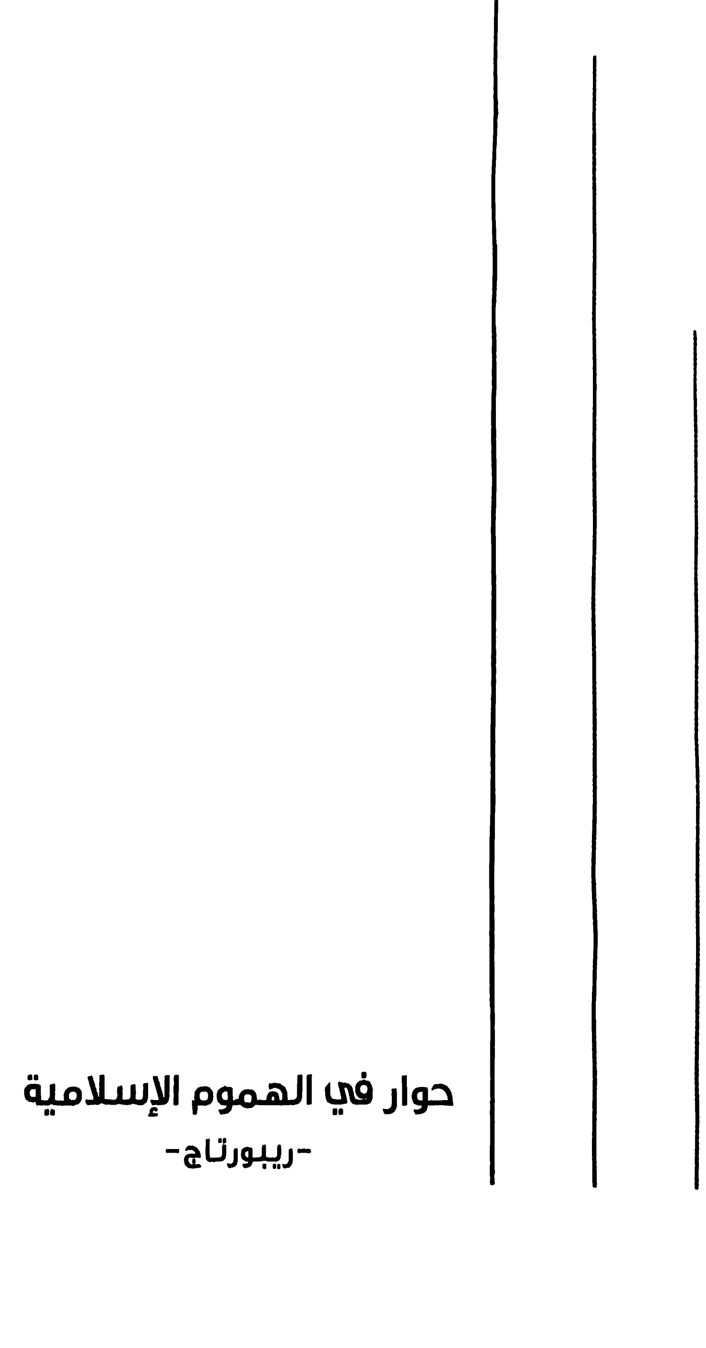
أ.د. عماد الدين خليل

# حوار في الهموم الإسلامية

## -ريبورتاج-





# حوار في الهموم الإسلامية

-ريبورتاج-

---

• الموضوع: ثقافة إسلامية
• العنوان: حوار في الهموم الإسلامية
• تأليف: أ.د. عماد الدين خليل

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م
ISBN 978-614-415-312-3

• الطباعة والتجليد: المطبعة العربية - بيروت
• الورق: أبيض / الطباعة: لون واحد / التجليد: غلاف
• القياس: 15×22 / عدد الصفحات: 392 / الوزن: 530 غ

ISBN 978-614-415-312-3
9 786144 153123

---

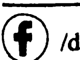


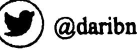

دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

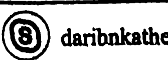
بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

---



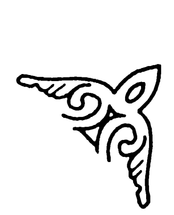
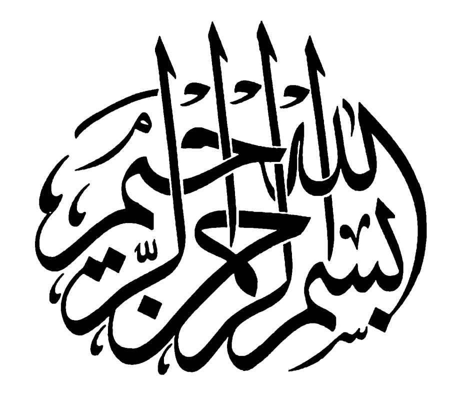

/daribnkatheer @daribnkatheer daribnkatheer daribnkatheer

أ.د. عماد الدين خليل

# حوار في الهموم الإسلامية

## -ريبورتاج-






بسم الله الرحمن الرحيم



أدب **«المقابلات الصحفية»** نادرٌ في حياتنا الثقافية الإسلامية كندرة «السير الذاتية» التي تتعامل هي الأخرى مع الرؤية الشخصانية للوقائع والأفكار.

إنه نمط من أنماط «أدب الحوار»، الذي مارسه أجدادنا بصيغ أخرى يوم أن لم تكن هناك صحف ولا مجلات.

تُسأل فتجيب... وتُناقَش فتردُّ... وتُجادَل فتجادِل بالتي هي أحسن... وخلال ذلك تُضاء مسألة هنا، ويوضع مَعْلم هناك، أو يكشف النقاب عن جانب من حياة المرء وفكره لا يكاد يعرفه الكثيرون.

وفي كل الأحوال تتشكل جداول وتيارات في هذا السياق الفكري أو الدّعوي أو الثقافي أو السيري... أو ذاك... قد يكون من المجدي أن يطّلع عليها القارئ في دائرة الإسلامية أو خارجها على السواء.

وعبر تنقّلي في البلدان العربية والإسلامية في العقدين الأخيرين، جرى معي أكثر من لقاء، وتلقيت في البريد طلباتٍ أخرى للإجابة على أسئلة أثارها العاملون في حقل الصحافة الإسلامية، وقد آثرتُ أن أختار من هذا وذاك، اللقاءات الأكثر

حداثة، تلك التي تمتد عبر الفترة بين (١٩٩١م و٢٠٠٠م)، لا سيما وأن الكثير من الأسئلة المثارة تمسّ العديد من «المتغيرات» الدولية والمستجدات الفكرية والثقافية، ولذا يدخل البُعد الزمني للحوار طرفاً مهماً في الموضوعات المطروحة على البساط.

حرصتُ أيضاً على أن أحقق قدراً مناسباً من التغطية الجغرافية للمقابلات التي امتدت على مساحة مكانية، تبدأ في لندن، وتجتاز إسطنبول، ثم تعبر البحر المتوسط إلى المغرب والجزائر، وتيمِّم وجهها شرقاً صوب القاهرة وعمان والموصل، أو الدوحة وصنعاء.

بعض الأخوة الصحفيين كانوا في تقديمهم للمقابلات أسخياء أكثر مما يجب، فألغيت المقدمات دون أن أرجع إليهم... فمعذرة...

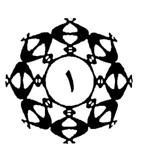
ألغيت أيضاً الكثير من التكرار، ولكن بعضه الآخر كان يفرض نفسه عليّ بسبب تباعد المحرّرين الذين أجروا الحوار، والعوائق الجغرافية في ديارنا... فضلاً عن ضغط بعض القضايا الملحّة في الفكر والحياة بما يجعل السؤال يعيد نفسه بين الحين والحين.

مرة أخرى تبدو مكتبتنا الإسلامية فقيرة إلى حدّ كبير في هذا النمط من الأِدب الذي غَزُر لدى الآخرين وشحّ لدينا... ولقد آن الأوان لسدّ النقص وملء الفراغ.

ومن الله وحده التوفيق، وإليه وحده نتوجّه بالكلمات والأعمال.

**المؤلف**

الموصل في آذار (مارس) ٢٠٠٠م



**أجرى الحوار في عمّان مندوب عن مجلة (فلسطين المسلمة) التي تصدر في لندن (آب ١٩٩١م)، ونشر في العدد العاشر من السنة التاسعة (تشرين الأول ١٩٩١م).**

ـ يبدو أن سؤال الأزمة يتسيّد لغة الواقع، ويفرض حضوره على الثقافة والأشياء، وتحديداً لن يكون السؤال حول انعكاس الأزمة الفكري بقدر ما هو **بحث وتساؤل عن المثقف وتجربته في ظلّ الأزمة، وبالذات عماد الدين المواطن والمثقف**، خاصةً أن المغترب العربي في أوربا وأمريكا عاش تجربة مريرة فيها الآلام والأحزان، وبدا موزّعاً بين همومه كمثقف ومواطن من العالم الثالث!.

= ليس ضرورياً أن يتغرّب العربي المسلم لكي يعيش تجربة المرارة والحزن، إذ هو بين أهله وعشيرته قد يحسّ أنه مواطن من العالم الثالث، وأنه يتعرّض للاستلاب في أية لحظة، سيّما في عصر التواصل السريع هذا، حيث يركب الجنود الجدد للغزو الفكري والثقافي كل صيغة ممكنة للتفوّق علينا وإشعارنا بالدونية... في السينما والإذاعة والصحافة والتلفزيون والكتاب... وهنا بصدد الكتاب، أتيح لي، عبر رحلة سريعة لإنكلترا في الصيف الماضي،

أن أضع يدي على أكثر من ثلاثين غلافاً لأعمال روائية، كلّها تستهدف وضعنا في الدرجة الأخيرة من سلّم العالم المتحضّر، عن طريق سحق ثقتنا بأنفسنا وعقيدتنا وتاريخنا وحضارتنا. إنه ليس (سليمان رشدي) وحده الذي ما كان يجب أن يُرفع إلى درجة البطولة والاستشهاد، وإنما هناك مئات منه ليست مجابهتهم هي الصيغة الوحيدة، فثمة ما هو أهم: مجابهتنا لأنفسنا، وقدرتنا على استعادة الثقة بالذات... ويوم أن تسترجع شهادة **(لا إله إلا الله)** في نفوسنا قدرتها على الفاعلية، يوم أن تزحزح الجبال عن مواضعها، إذا[٣] استعرنا عبارة (روجيه كارودي) في (وعود الإسلام)، فحينذاك لن نكون مواطنين من عالم ثالث أو رابع، وإنما «مبشّرين» بعالم يستوي فيه الأبيض والأسود، والغني والفقير.

❁ ❁ ❁

ـ يبشّر النظام الرأسمالي الذي تقف أمريكا اليوم على رأسه بانتهاء عهد الثورات والانقلابات، ألا يرى الدكتور عماد الدين في **أن عالم اليوم بحاجة إلى ثورة تقيم (يوتوبيا) جديدة قائمة على الفهم الإنساني لطبيعة الإنسان ووجوده؟ وهل الإسلام هو المرشح لقيادة العصر القادم، خاصةً وأن الحديث في هذه الأيام يدور حول الخطر الأصولي القادم... هل تجد قراءة تنبؤية في هذا الإطار؟**

**= بكل تأكيد، فإننا لا نستطيع اليوم أن نتقدم بقمر اصطناعي أو مركبة فضائية لإنقاذ العالم من الورطة، التي وضعته فيها النظم الغربية ذات الخلفيات الفلسفية، التي عرفت كيف تتعامل مع العالم**

لكنها أخفقت في التعامل مع الإنسان. إن روسيا الشيوعية نفسها بدت في نهاية التحليل امتداداً لهذا المنظور... فرعاً من فروع الحضارة الغربية؛ إذا استخدمنا تعبير الكاتب الروماني (كونستانتان جيوروجيو) في (الساعة الخامسة والعشرون).

ذلك هو المنفذ الذي يمكن أن يمرّ من خلاله عالم الإسلام، لكي يمارس بالفعل دوراً حضارياً... «ثورة جديدة قائمة على الفهم الإنساني لطبيعة الإنسان ووجوده» كما تقول في سؤالك... لكنها ليست (يوتوبيا) جديدة... ليست حلماً بعالم سعيد يرجع فيه الإنسان لكي يمارس دوراً هو بحجمه تماماً، فيتوحّد ويزداد قدرة ـ في الوقت نفسه ـ على تنفيذ حوار أشد فاعلية والتحاماً مع العالم والكون والوجود... وإنما «فعل» يسعى للتحقق في الزمن والمكان، وإلّا فإنه لن يمارس شيئاً.

إن «إسلام المستقبل ودوره في العلاقات الدولية»، يقول فقيه القانون الدولي المعاصر (مارسيل بوازار)، هذا الدور لا تجيء به الأماني والأحلام، وإنما هو «رهن بما يصنعه المسلمون أنفسهم»، وبهذا وحده يعود هذا الدين، كما يقول الرجل «إلى الظهور في العالم المعاصر بوصفه أحد الحلول للمشكلات التي يطرحها مصير الإنسان والمجتمع».

والحق أن أهمية المشاركة الإسلامية تبدو أيضاً، في نظر (بوازار) «في التوازن الذي يمنحه الإسلام، بما أنه تعبير عن روح ديني، لمسيرة المجتمع البشري، بين التقدّم المادي التقني، وبين

المطامح الروحية والإنسانية عامةً. لا سيما وأن الانخراط في المجتمع التكنولوجي، والمواجهة بين الإسلام والثورة التقنية لا تدفع المسلم إلى إنكار موقفه الديني، بل إلى تعميقه أمام العالم وأمام الله، متوجباً عليه محاولة إدراك الإمكانيات بشكل أفضل، في إطار إسلامي شامل».

ليس (بوازار) وحده، ولكنه حشد من المفكرين والفلاسفة والمؤرخين والعلماء: (ليوبولد فايس)، (سارتون)، (درمنغم)، (دينيه)، (مونتكمري وات) و(كارودي)... والأخير بالذات في كتابه (وعود الإسلام) يقدّم ملاحظات خصبة عن المشاركة العالمية للإسلام. وأنت ترى كيف أن عنوان الكتاب يحمل بُعداً مستقبلياً، وبالتالي فإن مادته القيّمة ستصبّ هناك لكي ترسم للإنسان المعاصر، الحائر، الممزّق، ما يمكن أن تقدمه له الخبرة الإسلامية. ولو أتيح لك قراءة الكتاب فلسوف تجد كيف أن الرجل يؤكد أبعاد التميّز الإسلامي في العالم، بعبارة أخرى: الإضافة الحقيقية التي يمكن أن تعطي مبرّراً كافياً لفاعليته المستقبلية في خلاص الإنسان... توازن الإسلام ووسطيته، قيمه الأخلاقية، ثم رؤيته الشمولية وقدرته على منح المغزى لمسيرة الحياة البشرية في هذا العالم. وهو ينتهي إلى أن المسألة برمّتها إنما هي «قضية مستقبلنا قضية مستقبل جميع البشر». وبالتالي فإن الإسلام، ومنظومة القيم التي تنبثق عنه، ليحملان «بذور تغيير جذري على مستوى الإنسانية».

❁ ❁ ❁

ـ ككاتب له تجربته الثريّة في الحقل الأدبي الإسلامي، وله تنظيراته في مجال الأدب كذلك، يُطرح دائماً في ساحة البحث العلمي **سؤال حول سلامة مصطلح (الأدب الإسلامي)**؛ هل هو ظاهرة تاريخية كما عشناها عند الدكتور المرحوم عبد الرحمن الباشا؟ أم أننا أمام ظاهرة إسلامية معاصرة نتلمس أصولها ونحاول أن نؤسس لها؟ أم أن الظاهرة في حدودها لا تعدو أدب حركات إسلامية أو تيار إسلامي بعينه؟

= هي الاثنتان معاً، إذا أردت الحق، فإنها (معاصرة) بقدر ما يتعلق الأمر بتنظيراتها وجانب كبير من ممارساتها النقدية والدراسية، كما أنها معاصرة باستعارتها العديد من التقنيات الإبداعية المتقدمة لدى الغرب. وهي (تاريخية) بقدر تجذّرها في المعطى التراثي الخصب ذي الخبرات المتراكمة عبر العصور، وليست أقلّها محاولات من مثل نظرية النظم (للجرجاني)، حيث نجد تأسيساً بنيوياً في التعامل النقدي مع النص من داخل نسيجه الخاص، وكذلك المعطيات البلاغية في مجال المجاز والاستعارة والتكنية... إلى آخره، مما يمكن أن يطلّ برأسه على (الانزياحية) الأكثر حداثة، والتي بالغت في التباعد بين اللغة ومطالبها، وبين دلالاتها التعبيرية غير المباشرة، ووضعت معايير نقدية قد تصدق حيناً وقد لا تصدق أحياناً.

ثم إن مصطلح الأدب الإسلامي، قبل هذا وذاك، إذ ينبني على رؤية متميزة للكون والعالم والحياة والإنسان والوجود، قد يجد

انعكاسه ليس فقط في التراث، أو حتى في الأعمال الإبداعية المعاصرة، وإنما في العالم على امتداده. فحيثما التقت مفردات نصّ إبداعي بهذه الرؤية، وتناغمت معها، أصبح النصّ صالحاً لإرفاد الأدب الإسلامي. وعلى سبيل المثال فلقد وجدت في مسرحية (مركب بلا صيّاد) للكاتب الإسباني (اليخاندرو كاسونا) حشداً من القيم الإيمانية، فلم أر بأساً من اعتبارها نموذجاً طيباً للنمط الإيماني في التعبير الأدبي. وعلى هذا فإن الأدب الإسلامي بمفهومه المعاصر لن يتموضع في حركة أو تيار إسلامي بعينه؛ ما دام يمتلك هذه القدرة والديناميكية للانفتاح على البعدين الزمني والمكاني معاً.



**ـ هل الكاتب الإسلامي المعاصر يعاني من «عقدة الآخر»، بمعنى أن الأديب المسلم يدير الحوار داخل أسواره المغلقة، أم أنّ القضية ذات أبعاد أخرى؟**

= إلى حدّ ما... بل إنه الوجه الآخر للتعامل الإبداعي والنقدي والمنهجي مع الظاهرة الأدبية... فهنالك الكثيرون من أدباء ونقاد ودارسي الإسلامية يرفضون التعامل مع (الآخر)، أو في الأقل، يترددون إزاء ممارسة كهذه، قد يعتبرونها خروجاً على مطالب (الإسلامية)، وهم مخطئون ـ في أغلب الظن ـ لأنهم أساساً لا يقدرون على تجاوز الاستعارة من تقنيات (الآخر) ومناهجه، ولأنهم من جهة أخرى، وبحكم مطالب المرحلة

التأسيسية لهذا الأدب مضطرون لأن يستفيدوا من خبرات الغير المتفوقة، وأن يوظفوها في سياق جهدهم الخاص، بعد تمريرها ـ بطبيعة الحال ـ عبر منظومة القيم والضوابط الجمالية الإسلامية. ولقد وقفتُ طويلاً عند هذه المسألة في بحث بعنوان (حول استراتيجية الأدب الإسلامي)، أرجو أن ينشر في مجلة (المسلم المعاصر) في وقت قريب إن شاء الله.

❁ ❁ ❁

**ـ الشعر الإسلامي متهم من قبل الآخرين بعقدتَي الخطابة والمباشرة. كيف تنظر إلى هذا الاتهام بصفتك مطّلع على جزء كبير من النتاج الإسلامي في ميدان الشعر؟**

= هذا التعميم ليس صحيحاً تماماً... هناك ـ بالتأكيد ـ مساحات واسعة في نسيج المعطى الشعري الإسلامي تتضمن قدراً كبيراً ـ أحياناً ـ من الخطابية والمباشرة... ولكن ـ وفي مقابل هذا ـ ثمّة مساحات واسعة تتمركز بشكل خاص في الدواوين والأعمال الأكثر حداثة، تسعى إلى تجاوز هذه الخطيئة الفنية التي تغتال النبض الشعري، وتحاول أن تبعد أكثر فأكثر في اتجاه التعبير غير المباشر عن العالم والأشياء... تنزاح شيئاً فشيئاً، بالاستفادة من تقنيات العربية وجمالياتها، باتجاه آخر، وهي تعرف جيداً أنه بدون هذا فإن الشعر، أو أي نوع أدبي آخر، لن يكون ـ كما يقول الجاحظ ـ بأكثر من معانٍ مطروحة على قارعة الطريق.

❁ ❁ ❁

**ـ تناولتم في العديد من كتاباتكم إشكالية بناء نظرية إبداعية للفن الإسلامي المعاصر، ما هي الأسس التي ترونها ضرورية لبناء مثل تلك النظرية، وتثبيت ركائزها؟ وما هي الصيغة التي يمكن من خلالها ربط المعاصرة بالأصالة، وصولاً إلى فن حضاري ملتزم؟**

= لا أريد أن أعيد هنا ما قلته هناك، أو ما قاله غيري وهم يؤسسون لهذه النظرية، وهم عدد طيب والحمد لله... وإنما يستحسن التأكيد هنا على أن نقطة البدء هي تحديد المفهوم الإسلامي (الإستطيقي) للجمال، وبعدها يمكن أن تأتي مسألة العناصر أو المقومات الأساسية للعمل الإبداعي... وبعدها ـ كذلك ـ يمكن أن تناقش مسألة الالتزام.

وبما أن الأدب، والفن عموماً، تعبير عن حالة حضارية، أياً كان المستوى النوعي لهذه الحضارة؛ فإنه يصبح بالتالي فنّاً ملتزماً، خاصةً إذا تذكرنا بأن المطالب الرؤيوية العقيدية للنشاط الحضاري هي التي تشكل وتصبغ الإبداع، وسائر التقنيات والآليات التي تتعامل معه في الأعم الأغلب. إننا نتذكر هنا عبارة معروفة للمفكر الفرنسي (مارسيه) في كتابه (الفن الإسلامي): «لقد تغلغل الإسلام في الحياة اليومية، كما دخل حياة المجتمع، وصاغت الطبائع التي نشرها شكل البيوت والنفوس».

ثمّة مسألة يجب أن يُشار إليها هنا، وهي أن النشاط الأدبي ـ على وجه الخصوص ـ ليس وجهاً واحداً أو طبقة متفردة، وإنما

هو أوجه وطبقات، قد تتوازى حيناً، وقد ينبني بعضها على بعض، ويتمخض عنه حيناً آخر. فهناك في الدور الأول المعطيات الإبداعية وفق أنواعها المعروفة، والتي تشكل قاعدة البناء كله. وهناك في الدور الثاني: المنظور أو الرؤية الشمولية التي تتشكل في ضوئها هذه المعطيات، فتتكون بموجبها مدرسة أو مذهب أدبي كالكلاسيكية والرومانسية والواقعية والوجودية والرمزية والسريالية... إلى آخره... وهناك ـ رابعاً ـ الجهد النقدي الذي يسعى لإضاءة الأسس الجمالية للنص الإبداعي، وتحليله، فيضع له المبادئ والقواعد والأصول، ثم يبدأ في تنفيذها وصولاً إلى قيمه الفنية، ودلالاته المضمونية، وطبيعة ارتباطه بالمنظور وبالمذهب الذي يندرج تحته.

هناك ـ أيضاً ـ الطبقة الخامسة: الطريقة أو المنهج الذي يدرس الحركة أو الظاهرة الأدبية عبر مساراتها الشاملة في الزمن والمكان، وفي ضوء قوانينها وارتباطاتها الداخلية الصميمة (ويجيء تاريخ الأدب لكي يندرج تحت هذا المساق)... ثم هناك ـ أخيراً ـ النظرية التي تلمّ هذه المساقات وتنطوي عليها جميعاً.

بمعنى أن النظرية لن تستكمل أسبابها إن لم يتوفر بين يديها قدر كافٍ من المادة (مجال الدراسة) في الأدوار الخمسة آنفة الذكر. وإذا كان الجهد الأدبي الإسلامي المعاصر قد تمكن من التحقق والعطاء في دوائر الإبداع، والمنظور الرؤيوي، والجهد النقدي إلى حدّ ما؛ فإنه في دائرتي المذهب والمنهج لم يكد يضع

خطواته على الطريق. ويوم أن يتميز بخصوصياته المذهبية وتقنياته المنهجية؛ فإن نظريته ستغدو أكثر مقاربة لطبيعة الجهد، وربما أكثر إقناعاً.

❁ ❁ ❁

ـ أفرزت الرواية العربية المعاصرة بطلها الملحميّ، والأسماء الروائية العربية كثيرة في هذا الجانب. في المقابل **أين يقف البطل في الرواية الإسلامية المعاصرة، حدود أبعاده الزمانية والمكانية، المدى السلّمي، الذي يتحرك فيه؟ السؤال يفترض أن البطل غائب في الرواية حيث لا تزال الرواية الإسلامية تحلّق في فضاء مثالي.**

= الكمّ الروائي الإسلامي لا يزال محدوداً، إذا استثنينا الجهود الخصبة للدكتور نجيب الكيلاني، ومع ذلك فإن التعميم لهو خطأ في المنهج، في التعامل مع الظواهر والمعطيات. صحيح أن الرواية الإسلامية، وبخاصة في بداياتها الأولى، كانت تحلّق في فضاء مثالي، أو ربما تجريدي، تكاد تنسلخ عن أبعاده الواقعية المتموضعة في البيئة والظرف التاريخي، أي في الزمان والمكان، وهي بهذا تفقد لحمها ودمها، وجملتها العصبية، وتغدو نماذج نمطية غير قادرة، وهي تخاطب الآخرين، على أن تؤثّر فيهم... التأثير ينبثق عن فضاء روائي يصير فيه البطل هو نفسه وليس أي كائن آخر... ونحن بأمسّ الحاجة إلى تعميق هذه المسألة وتنفيذها في النسيج الروائي. لكن هذا لا يلغي المحاولات العديدة

التي يتحقق فيها المطلوب، بغض النظر عن المستوى الفني الذي يتشكل فيه.

في العديد من روايات الكيلاني (ليالي تركستان، عمالقة الشمال، قاتل حمزة) على وجه الخصوص، نلتقي البطل الذي لن يكون غيره على أية حال... قبل أشهر قرأت عملاً روائياً للأديب التركي (جنكيز ضاغجي) بعنوان (السنوات الرهيبة)، عرف كيف يكسو بطله لحماً ويفجّر في شرايينه الدماء... كيف يعطيه ملامحه المتميزة وخصوصياته، وكيف يضعه في مكانه المرسوم من الفضاء الروائي.

و(هاشم عبد السلام) في روايتي (الإعصار والمئذنة) هو ليس مطلق «عالم»، كما يقول المناطقة، ولكنه هاشم نفسه، الذي أعرفه جيداً وأعرف كذلك ملامح وجهه، والحزن العميق الذي كان يتمركز في نظراته، وهي تطل على بلدٍ يكاد يضيع في أيدي الغزاة... إنه هو نفسه يتحرك في فضاء محدّد تماماً لم يتجاوز في الزمن الأيام الخمسة، ولكنها كانت كافية لأن تحكي لنا كيف انتهى به الأمر إلى الإعدام رمياً بالرصاص... أما المكان فهو البيئة الموصلية نفسها التي أعرفها بيتاً بيتاً وزقاقاً زقاقاً...



ـ كمثقف إسلامي له مشاركاته النقدية الراصدة للنتاج الإبداعي الإسلامي العام. **هل يبشر الدكتور بتيار نقدي خاص،**

**يدفع التجربة الإبداعية للأمام؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هي صور هذا التيار وأبعاده؟**

= أبداً... كل ما هنالك أن حركة الأدب الإسلامي هي بأمسّ الحاجة إلى مزيد من الجهد النقدي لإضاءة النصوص... لقد أخذ يبدو أكثر فأكثر أن المعطيات الإبداعية أكبر بكثير من المتابعات النقدية، فإن لم يتحقق قدرٌ من التوازن المطلوب، وتتم التغطية النقدية بنسبة معقولة، فإننا سنخسر مرتين... سنخسر الطاقات الواعدة التي تنتظر من يعكس صوتها أو يسمعه في الأقل، فتكفّ عن الخفقان. وسنخسر الفرصة الضرورية لتحسين معطياتنا الإبداعية وجعلها أكثر قدرة في وتائرها الفنية، ولتجاوز أخطائنا وقصورنا وعثراتنا وضعفنا من جهة أخرى... لقد دعوتُ إلى هذا في كتاباتي، فالآخرون عرفوا كيف يوظفون أداة النقد لكي يمسك بعضهم بعضاً وينتشله من الصمت والعزلة... إنهم يعملون بروح الفريق؛ فلماذا لا نتعلم منهم؟ لماذا لا نزال مصرِّين على مبدأ (أقتله بالصمت)؟! رسائل عديدة كانت تصلني من الأدباء الجدد... بعضهم كان يعد بقدرة متألقة على العطاء... وإذ لم يستجب أحد لندائهم انطفؤوا...

❁ ❁ ❁

**ـ في إحدى المقالات كتبتَ عن تجربة الأدب الإسلامي في المغرب، ووصفتها بأنها (حركة) بمعنى الحركة، هل تقصد مجلة (المشكاة) والذين حولها، أم أن التجربة لها امتداداتها الأخرى؟**

**وأين وصلت تجارب الأدب الإسلامي في بلدان أخرى غير المغرب، تجربة الشعر الفلسطيني مثلاً؟**

= ليست مجلة (المشكاة) وحدها، ولكنها القدرة على اختراق جدران الأكاديمية والتموضع هناك في أروقة الجامعات، حيث منحت شهادات البكالوريوس والدبلوم العالي والماجستير والدكتوراه لعشرات من الدراسات، التي تعاملت مع النصوص الإبداعية أو المعطيات النقدية والدراسية لأدباء الإسلامية المعاصرين.

في الساحة الفلسطينية، وفي دائرة الشعر بالذات، فإن المرء ليتذكر دونما عناء، كيف أن «القضية» عكست حالة شعرية متميزة لفئة من المبدعين، اكتوت أيديهم بالنار، ونزفوا كثيراً... من أجل هذا صاروا أكثر دفقاً شعرياً... وهم ينضوون إلى اتجاهات شتى... والإسلامية هي واحدة من هذه الاتجاهات، وقد أخذت بمرور الوقت تؤكد وجودها في الساحة، فتصبح أكثر قدرة على الخطاب... هناك مثلاً هارون هاشم رشيد، محمود مفلح، بارود، النحوي، الجيتاوي، كمال رشيد، جرّار... وآخرون... ولقد جاءت ثورة الحجارة بمنطلقها الأصيل، وبقدرتها على مواصلة الاشتعال، تحفيزاً مضافاً لحركة هذا الشعر من أجل المزيد من العطاء.

❁ ❁ ❁

**ـ هل ينظر الدكتور عماد الدين خليل إلى الأدب الإسلامي في عموم التجربة الإسلامية، بحيث تشمل تجارب الإسلاميين في لغات أخرى غير العربية مثلاً؟** وإذا كان الأمر كذلك؛ فهل هناك

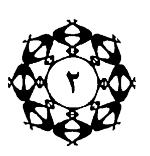
أسماء (إسلامية) في هذا الجانب، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن مدارس البحث العلمي مهتمة بنشر الإسلام في الآداب الأخرى خاصة دار هاتيمان التي أصدرت كتاباً عن الإسلام والأدب الشفاهي الإفريقي أخيراً؟

= بالتأكيد... فإن أدبيات وأشعار (محمد إقبال) مثلاً، تنضوي، من أي زاوية نظرنا، تحت الإسلامية، وكان الرجل قد رُشح لجائزة (نوبل)، لكنها صُرفت عنه إلى (طاغور)، الذي قد يستحقها هو الآخر، ولكن ليس على حساب (إقبال)، وكأن اللجنة المشرفة على الجائزة، كما يشير العقاد (رَحِمَهُ ٱللَّهُ)، آلت على نفسها ألّا تمنحها لأديب ينتمي بالصدق المطلوب إلى عالم الإسلام، ويعبّر بمقدرة عالية وأصالة عقيدية عن همومه وأحزانه وطموحاته.

وقبل لحظات أشرت إلى (ضاغجي)، الذي يشبِّهه النقاد بالروائي الأمريكي المعروف (جون شتاينبك)... هناك في العمق التراثي شعراء كبار كسعدي وشيرازي وجلال الدين الرومي، وكلهم تقدم بالشعر خطوات أبعد باتجاه مزيد من التألق الفني، ومن توظيف التقنيات الشعرية لهذا الجانب أو ذاك من الخبرة الروحية للإنسان المسلم... هناك بالتأكيد أسماء كثيرة، لأن هموم المسلم هي ذاتها في كل مكان، والذين يملكون القدرة على التعبير لا يمكن، بحكم قوانين الابداع وضغوط التعبير عن الذات، إلّا أن يكتبوا قصة أو رواية وأن يقولوا شعراً... ولكنه حاجز اللغة الذي

يتطلب جهداً مضاعفاً باتجاهين: الترجمة إلى العربية ومنها، من أجل مزيد من تبادل الخبرة والتعارف بين أدباء الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، ومن أجل أن ينتقل هذا الأدب إلى (العالمية) فيكون أثقل وزناً وأكثر قدرة على الخطاب.





**أجرى الحوار في إسطنبول الأخ الصحفي محمد عادل (أيلول ١٩٩٢م)، ونشر في جريدة (المسلمون) التي تصدر في لندن العدد ٤١٩ السنة التاسعة (١٢ شباط ١٩٩٣م).**

**ـ ماذا تقولون بخصوص النظام العالمي الجديد وموقع العالم الإسلامي فيه؟**

= يبدو أن إيقاع الأحداث ذات البعد التاريخي أصبح أكثر سرعة، بحيث يصعب معها البحث عن نقطة ارتكاز تعين على الاستشراف. ولكن، ومهما يكن من أمر؛ فإن المحصلة النهائية للمتغيرات الدولية في السنوات الأخيرة تشير إلى أنه ليس ثمة دوام لا نهائي لخرائط العالم، وأن أشد القوى الدولية هيمنة يمكن، إذا اجتمعت الشروط التاريخية، أن تنزل عن موقعها العالي، وقد تتفكك وتغيب. وبالمقابل فإن قوى أخرى كانت تحتل الخط الثاني أو الثالث، تمضي لأخذ مكانها في الصدارة، وذلك هو مصداق الآية الكريمة: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ٤٠] بكل ما تنطوي عليه هذه السنّة المؤكدة من قيمة تاريخية تتمثل بالتنوع والتغاير، وإعطاء الفرص المناسبة للقوى

الأكثر جدارة لممارسة دورها في التحقق التاريخي. وفي الوقت نفسه منح الأمل لكل الذين يتحركون في أسفل السلّم، في أنه سيجيء اليوم الذي يصعدون فيه إذا استكملت الشروط. ويجب التأكيد على العبارة الأخيرة لأن عملية الصعود إلى فوق ليست بالأماني والأحلام، وإنما بالفاعلية المتواصلة، وقبل ذلك بفهم مطالب اللحظة التاريخية، وإدراك السنن والنواميس، وصياغة المنهج المناسب في ضوء هذا كله.

والقرآن الكريم يقولها بصراحة: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]. وفي المقابل فإن الهزائم التي تنزل بالأمم إلى أسفل لا تجيء اعتباطاً، نحن نتذكر هنا ما حدث في هزيمة أحد. إذ لما دُهش المسلمون لهذه الهزيمة، وهم جند رسول الله ﷺ الموعود بالنصر من السماء، أجابهم كتاب الله بالحسم المطلوب: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

لقد انهارت الشيوعية في أوربا الشرقية، وتبعها تفكك وانهيار الاتحاد السوفياتي، وأصبحت قلعة الإلحاد الفكري في العالم خبراً من الأخبار. ومن قبل كانت الإمبراطورية البريطانية العظمى التي لا تغيب عنها الشمس، وفرنسا التي كانت تهيمن على مساحات واسعة من آسيا وإفريقيا، قد انهارتا، وتركتا الطريق للقوى الأكثر قدرة، وقبل هاتين محيت ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية من الوجود.

والحديث يطول، وما يقال عن تفرّد أمريكا في قيادة العالم

في المدى المنظور، ليس قدراً نهائياً، كما أن هذه المقولة ضد التاريخ... ضد السنن والنواميس التي لا يوقفها شيء... وها هي أوربا الموحدة تنهض في مواجهة أمريكا، إن لم يكن اليوم فغداً... واليابان قد تلعب دوراً ما... أما عالم الإسلام؛ فإن فرصته كبيرة إذا تذكرنا الموقع، والأرض، والمعادن، والمياه، والطاقة البشرية، والعقيدة القديرة على إعادة تشكيل الخارطة الإسلامية، ووضع الأمة على حافات البداية الصحيحة للانطلاق إلى الأهداف... فقط إذا أُحسن فهم مطالب اللحظة التاريخية، وتمّ تجاوز حالة الحلم، وأُخذ بالأسباب.

❁ ❁ ❁

**ـ إذا رجعنا في الزمن إلى الوراء، فما هي المؤشرات التي تمنحنا إياها قراءتنا للتاريخ الإسلامي؟**

= يمكن القول، بإيجاز شديد، بأن الإسلام، على المستوى التاريخي، أقام ما يمكن تسميته بالأممية الإسلامية، وهي تختلف في جوهرها عن الأممية الشيوعية، فهذه تميزت بالصلابة والرؤية الأحادية، واصطرعت مع مقومات الشعوب وخصائصها الذاتية، وتعاملت مع الحركة التاريخية بمنطق الميكانيك، فانكسرت وخسرت فرصتها في نهاية الأمر.

إنك إذا قرأت كتاب (القوميات والدولة السوفياتية) لهيلين كارير دانكوس، الخبيرة الفرنسية في شؤون الماركسية الآسيوية،

والذي صدر عام (١٩٨٧م)، عرفت أبعاد الخطأ الذي مارسَتْه الأممية الماركسية، فقادها إلى الضياع.

في التاريخ الإسلامي أتيح للجماعات والشعوب الإسلامية أن تعبّر عن خصائصها ومقوّماتها الذاتية، وأن تتحقق في دائرة تراثها الثقافي، ولكن في نطاق عالم الإسلام، وفي توازٍ معه، وليس في اصطراع أو تضادّ مع همومه الأساسية وأهدافه الكبرى وثوابته التي تجمع عليها كل المنضوين إلى هذا الدين. إنها أممية ذات مفاصل مرنة تتيح لها الديمومة، والحركة، والتنوع، والتغاير، فلا تتعرض للانكسار.

في ضوء هذه الحقيقة نستطيع أن نفسر لماذا شهد عالم الإسلام وحدات ثقافية متغايرة بين بيئة وأخرى... وحدات تستمد مفردات نشاطها من تراثها الثقافي، ومن مؤثرات المكان والزمان، وتراكمات الخبرة ذات الخصوصية، حتى في مجال اللغة والتعبير، فهناك مثلاً الثقافة أو البيئة التركستانية، والثقافة المغولية، والهندية، والإيرانية، والعراقية، والشامية، والمصرية، والمغربية، والسودانية، والإفريقية، والأندلسية، والبحر متوسطية، والأوربية... إلخ... كانت هذه البيئات تمارس تأكيداً لذاتها وتعبيراً عن مطالبها المتميزة، لكن هذا لم يقدها إلى التضاد مع الأهداف والثوابت الأساسية للإسلام... على العكس، إنها كانت تبذل جهداً مضاعفاً من أجل تأكيد انتمائها الإسلامي، تارة بالجهاد والانتشار في الأرض، وتارة في صدّ هجمات الأعداء والاستجابة لتحدياتهم،

وتارة ثالثة بالدعوة إلى الإسلام في البيئات المجاورة، وتارة رابعة في تأكيد الصبغة الإسلامية للمعطيات الثقافية داخل كل بيئة.

إن المشرق والمغرب قدرا على أن يعبّرا عن ذاتيتهما المستقلة، فمنح هذا حضارة الإسلام تنوعاً وخصباً، ولكنهما، وبموازاة هذا، كانا يتنافسان في الالتزام بالثوابت والأهداف الإسلامية، وفي تقديم المزيد من العطاء الذي يصب في هذه الأهداف... إنها ـ كما سماها المستشرق المعروف فون كرونباوم ـ في الكتاب الذي أشرف على تحريره: (حضارة الوحدة والتنوع)، وهذا كله يمنح تصوراً للمستقبل الإسلامي لا يقوم على الفراغ، إنما يستمد حيثياته من الخبرة التاريخية، ويتجذر فيها ما دام الإسلام يمنح وحده الشعوب الإسلامية، أو الأرض الإسلامية، هذا القدر من المرونة والمفاصل الحرة، ويمكّنها من التحقق بأممية غير قسرية، تتيح لكل المنضوين إليها أن يعبّروا عن أنفسهم في دائرة الإسلام.

❁ ❁ ❁

**ـ الجمهوريات الإسلامية المستقلة في الاتحاد السوفياتي سابقاً؛ كيف ترون واجب المسلمين نحوها؟**

= وضع انهيار الاتحاد السوفياتي، ومن بعده يوغسلافيا، المسلمين قبالة واحدة من أكثر التحديات خطورة وإلحاحاً في التاريخ الحديث. فعلى حين غرّة من الزمن برز إلى الوجود العديد من الجمهوريات والكيانات الإسلامية المستقلة استقلالاً

كاملاً أو ذاتياً، وعلى حين غرة من الزمن وجدت هذه الكيانات نفسها تسبح في فراغ مخيف، وعلى سائر المستويات السياسية والعسكرية والثقافية والعقدية والاجتماعية، وحتى الاقتصادية، وكأنها وضعت في منطقة انخفاض جوي يحمل الاستعداد لتقبُّل الرياح القادمة من كل مكان.

إنها لحظة تاريخية صعبة، والخيار فيها لا بدّ أن يتحدّد في أسرع وقت، سواء من قبل القيادات الجديدة لهذه الكيانات، أو من قبل عالم الإسلام في الخارج، وإلّا اضطرّ الفراغ إلى أن يسحب إليها قوى قد تكون في حالة تضاد مع الإسلام تاريخياً ودينياً وحضارياً... وقد تمارس هذه القوى ضغوطها لطرد بقايا القيم والموروثات الإسلامية في هذه الكيانات، وحينذاك قد نخسرها ـ نحن المسلمين ـ إلى الأبد.

إنه لسباق سريع تدخل فيه الأطراف كافة بما فيها إسرائيل والصهيونية والمعسكر الرأسمالي، فضلاً عن روسيا نفسها، وربما بقايا الأحزاب الشيوعية لاستعادة بعض مواقعها أو تحقيق مصالحها هنا وهناك.

❁ ❁ ❁

**ـ ما الذي يتحتم على المسلمين دولاً وجماعاتٍ وجماهيرَ ومؤسساتٍ وأفراداً أن يفعلوه؟**

**= إن ما ينتظرهم لكثيرٌ حقاً... ولكن رحلة الألف ميل قد تبدأ كما يقول المثل بخطوة واحدة، ولا بدّ أن نجتاز هذه الخطوة**

وبأسرع وقت، وإلّا فقدنا الفرصة لزمن لا يعلمه إلّا الله ﷻ... والتاريخ ـ كما هو معروف ـ قد لا يمنح فرصه مرتين.

لا يسمح المجال بالحديث عن الخطط التفصيلية لعمل كهذا في لقاء عابر، ولكن المرء قد يتذكر بعض مفردات هذه الخطط، من مثل تقديم الخبرة والمال والغذاء والحاجات الأساسية... والقيام برحلات دورية مرسومة بعناية لتغطية الحاجات الماسة أو دراستها في الأقل... وتقبّل عناصر بشرية من الجمهوريات المستقلة لتدريبها ومنحها القدرات اللازمة، لكي تعود إلى بلادها وتشارك في أعمال البناء، وهي تحمل رؤية أكثر نفاذاً لمطالب هذه البلاد في إطار خصوصياتها الإسلامية.

وبموازاة هذا، لا بدّ من بذل جهد إعلامي متواصل يغذي حاجة هذه الجمهوريات إلى البرامج الهادفة، جنباً إلى جنب مع جهد ثقافي يبدأ بتقديم الصحيفة والكتاب، وينتهي بإنشاء المدارس والمعاهد والجامعات.

وحتى على مستوى صراع القوى، فإن عالم الإسلام مدعوٌّ لدعم سياسي وعسكري، ووفق قنوات دولية لا تثير ردود الأفعال السيئة، من أجل سدّ الطريق على أية محاولة من داخل المنطقة أو خارجها، لتدمير مقوّمات هذه الكيانات أو احتوائها لصالح الطرف الآخر.

وعلى أية حال، فإنه لمحكٌّ خطير، يجد المسلمون أنفسهم معه إزاء إحدى اثنتين: المزيد من الاستجابة للتحدّي، والمزيد من الفاعلية للتحقق بحضور أشد كثافة لملء الفراغ المنظور، أو

التسويف والكسل والغياب ورفض المشاركة بانتظار فرص قادمة أكثر ملاءمة وسهولة، وحينذاك سيفقد عالم الإسلام، مرةً أخرى، ساحة واسعة من جغرافيته وعمقه الاستراتيجي لصالح الخصوم والأعداء، وهي خسارة مضاعفة، لأنها لن تقتصر على ضياع هذه الأرض وإنما تحوّلها إلى نقطة ارتكاز بيد الخصوم لمزيد من التفكيك والتدمير قد يلحق عالم الإسلام نفسه.

❀ ❀ ❀

**ـ انطلاقاً من عالم السياسة والاستراتيجية إلى عالم الفكر والثقافة... هناك من يرى ضرورة أن يكون الأدب والفن والإعلام الإسلامي في مستوى التحديات المعاصرة... فما الذي يمكن أن يقال في هذا المجال؟**

= إزاء سؤال كهذا، يجب أن يكون المرء حذراً من إحدى اثنتين: الاعتقاد بأن الساحة تخلو من أدب وإعلام إسلامي جاد يؤدي مهماته الوظيفية ولو في حدودها الدنيا... أو الاعتقاد بأن هذا الأدب والإعلام قد بلغا قدراً كبيراً من الفاعلية والكفاءة في التغطية. وعلى هذا، فإن علينا أن نتذكر ـ بقدر ما يتعلق الأمر بالأدب على وجه الخصوص ـ جهود خط طويل من الأدباء، الذين أرسَوْا وعمّقوا ملامح الأدب الإسلامي تنظيراً ودراسة ونقداً وإبداعاً وبخاصة في العقود الثلاثة الأخيرة. ويكفي أن يلقيَ المرء نظرة على معطيات هذا الأدب، لكي يرى بأمِّ عينيه خصب العطاء والوعد بمواصلة المسير وإنضاج أكثر لهذا الأدب المتميز، الذي

يتحتم أن يأخذ مكانه في العالم بموازاة أو قبالة كل الآداب الأخرى، بسبب من أصالته الإنسانية وتوجُّهاته الشمولية، الي تلبي أشواق الإنسان وهو يتحرك باتجاه عالم تتجاوز فيه البشرية بعض متاعبها ومنغصاتها ومراراتها، التي تجرّعتها عبر رحلتها الطويلة المضللة مع الكهنة والأرباب والوضّاعين.

ولكن هذا يجب ألّا يدفعنا إلى المحذور الآخر، وهو الاعتقاد بأن معظم الخطوات قد قطعت في طريق الأدب الإسلامي، وأنه لم يتبّق سوى القليل. إن تصوراً كهذا ربما يقود إلى نوع من الشلل والاسترخاء؛ ولا بدّ من أجل تجاوزه من الاعتقاد بأننا لا زلنا على خط البداية، وأن علينا أن نعمل الكثير من أجل التحسين والتعميق والإنضاج... أن نتداعى، متجاوزين الحالات الفردية، إلى صيغة عمل جماعي يعرف الأولويات، ويتحرك في ضوء خرائط عمل مرسومة تضع كل شيء في محلّه، وتحسب لكل أمر حسابه، وتعرف كيف تتعامل مع الزمن للوصول إلى الأهداف المتوخاة بأقل قدر من الهدر في الطاقات والتناقض أو التكرار في العطاء.

**إعلامياً... لا بدّ من الاعتراف بوجود نقص خطير رغم قيام صحافة إسلامية، وظهور محاولات عديدة لصحافة الطفل والشباب والمرأة... ومحاولات أخرى في مجال الإخراج المسرحي والتلفازي والسينمائي، ولكن هذه كلها لا تغطي سوى مساحة محدودة ضيقة من المطلوب، ولا بدّ من بذل المزيد من الجهد والعطاء من أجل تحقيق الحدّ الأدنى من التغطية الإعلامية في هذه السياقات...**

**فإذا تذكرنا أن الصحافة والتلفزيون والمسرح والسينما قد**

تكون أكثر إغراءً للجماهير والمثقفين من الكتاب، وإذا تذكرنا ـ كذلك ـ ما يفعله الإعلام خارج دائرة الإسلامية من هدم وتخريب، في كثير من الأحيان، أدركنا كم هو ضروري أن يتداعى المعنيون للمزيد من الإنجاز في هذه الساحات.

❁ ❁ ❁

**ـ بمناسبة حضوركم المؤتمر العالمي الثاني حول فكر النورسي، ما هو ـ في رأيكم ـ موقع هذا الفكر على الخارطة الإسلامية المعاصرة؟**

= يمثل فكر النورسي رؤية شمولية، تستمد حيثياتها من كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، وهي رؤية يلتقي فيها المادي بالروحي والعقلي بالوجداني، وتتلاقى وتتصالح كل الخبرات الإيجابية في الممارسة البشرية، وهي الميزة التي تفتقدها العقلية الغربية التي جنحَتْ باتجاه الرؤية الأحادية، وفرطت بالكثير من مقومات الخبرة ومطالب الحياة البشرية باعتبارها حياة كائن متفرّد اسمه الإنسان.

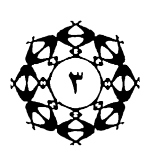
صحيح أن النورسي تمركز في مهمة (إنقاذ الإيمان)، وهو عمل قد يبدو دفاعياً بشكل من الأشكال، فيما حتّمته اللحظة التاريخية التي عاشها... ولكن الرجل لم يقف عند هذه المهمة، أو بعبارة أدق لم يتعامل معها من منظور أحادي. فهو في الوقت نفسه كان يؤكد وبإلحاح ـ يعرفه جيداً كل من قرأ رسائله ـ على العقل والعلم، ولم يجد في تكنولوجيا الغرب وعلومه الصرفة تهديداً للإيمان، وإنما ـ على العكس ـ تعزيزاً وتجذّراً، فقط إذا

أُحسن التعامل معها، وفكّ الارتباط بينها وبين الخلفيات الفلسفية الجانحة التي اقترنت بها بشكل أو آخر.

إن وقوع تركيا ـ بيئة النورسي ـ عند حافات أوربا؛ جعلت الرجل يقدّر عناصر القوة والفاعلية في حضارة الغرب في ضوء عقيدته الإسلامية، التي علمته كيف يكون التنقيب عن السنن والنواميس واكتشاف طاقات الأرض المذخورة وتسخيرها لتنمية الحياة، ضرورة كضرورة الصلاة والصيام.

إن فكر النورسي يظلّ قديراً على العمل في قلب العصر؛ لأنه لم يقفل الأبواب في مواجهة الآخر، وإنما دعا للحوار معه... لتبيّن عناصر القوة والتهافت في بنيانه وللاستفادة من الأولى. وهو كان يعرف جيداً أن إنقاذ الإيمان في العالم لن يكون بمعزل عن مطالب (الكتلة) والسنن والنواميس وإنما في توازٍ معها، فما لم تحمِ القوة الإيمان فإنه سيظل أعزلاً... سيظل نهباً للغدر والعدوان، ولذا كانت رسائله تنطوي على هذا الإلحاح المتزايد للتحقق بالتوازن بين المادي والروحي، هذا التوازن الذي افتقده المسلمون بالتنازل عن القوة، وافتقده الغرب بالتنازل عن الروح. ومن ثم فإن فكر النورسي يقدّم الجواب الذي ينتظره العالم المأزوم... وكما يقول كارودي في (وعود الإسلام): «إن مشكلة العالم المعاصر كونية، ولا بدّ أن يكون الجواب كونياً»... ولقد قدّم النورسي هذا الجواب.





**أجرى الحوار في الموصل الأستاذ محمد رشدي عبيد**
**(تشرين الأول ١٩٩١م)، ولم ينشر بعد.**

ـ هناك، في الحقيقة، أسئلة عديدة تدور في الذهن بصدد هموم الأدب الإسلامي المعاصر ومساراته، لعل هذا اللقاء يكشف بعض جوانبها. ولأبدأ باستطلاع **وجهة نظركم عن أهم الطروحات الفكرية والجمالية، التي يجب مراعاتها في أية محاولة لتنظير وتأسيس وإثراء نقد إسلامي معاصر يتسم بالأصالة والعمق والشمولية والمنهجية؟**

= أعتقد بأنك معي في أن الحيّز المتاح لهذا اللقاء قد لا يتسع للتحدث بإسهاب عن الكثير من القضايا الملحة. وإذ سبق وأن عرضتُ لهذه المسألة في خطوطها العريضة في الفصل الرابع من كتاب (مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي)، فلا أجد مبرراً لإعادة القول فيها.

❁ ❁ ❁

**ـ هذا صحيح ولكن إذا كان خلوص الغاية، أو (التوجه**

**الإيماني)، من أجلى السمات المميزة للناقد المسلم، فما هي الانعكاسات الإيجابية لهذه السمة على عمله النقدي؟**

= يمكن أن تكون المسألة ذات وجهين، وهي كذلك بكل تأكيد. فأما وجهها الأول؛ فيتمثل بقدر كبير من التجرد والموضوعية، يأخذ بهما الناقد المسلم نفسه وهو يمارس عمله النقدي، وهذا يعني ـ دون حسم أو جزم ـ تجاوزاً طيباً للميول والظنون والتحزب والأهواء، تلك التي جرفت الكثير من الأعمال النقدية غير الإسلامية، وبخاصة في العقود المبكرة الماضية. إن النقد الإسلامي، كأية فعالية تنسج خيوطها في دائرة الإيمان الوضيء، يجد نفسه ملزماً ـ ما وسعه الجهد ـ بتجاوز المصالح الصغيرة والأنانيات الشخصية من أجل إصدار تقويمات وأحكام أقرب إلى الصواب. قد تحدث حالات مخالفة وهذا واقع بالتأكيد، لكنها يجب ألّا تكون المساحة الأوسع في نسيج الممارسة النقدية... يجب أن تظل استثناءً... أما القاعدة الأوسع والأعرض فهي تلك التي ألمحنا إليها.

فأما الوجه الثاني، فهو أن التوجه الإيماني للنقد الإسلامي يفرض عليه التزامات معينة، بما أن الأدب الإسلامي عموماً هو أدب ملتزم، بمعنى أن هنالك سلماً من القيم والمعايير الفنية على مستويي الشكل والمضمون، تُلزم الناقد المسلم بالعمل من خلالها وهو يعاين النص الابداعي، ليس على سبيل القسر الرياضي

الصارم، ولكن من خلال قناعات كافية تتسرب بعفوية خلال عقل الناقد المسلم وحسّه الجمالي ووجدانه.

❁ ❁ ❁

**ـ إن هذا ينقلنا إلى ما يراه بعض المختصين بالأدب الإسلامي من أن وصفه بصفة الالتزام يجعله منحازاً بالضرورة إلى إحدى تيارات الأدب الأوربي، وكأن إسلامية الأدب واستقلاله وأصالته تحرّم أسلمة وتوظيف المصطلحات الجمالية العالمية، لتوصيف وإضاءة أبعاد الإسلامية في الأدب ورسم معالمها وتنظير مناهجها ومقارنتها بما سواها من المذاهب والنظريات... ما مدى مصداقية هذا الرأي، وصوابه، في نظركم؟**

= لقد طرحتَ في إشارتك لهذه المعضلة مسألتين وليس مسألة واحدة، الانحياز والمصطلح.

بالنسبة للمسألة الأولى، فإن الالتزام ـ إذا توخينا الدقة ـ لا يمثل مذهباً في سياقات الأدب الأوربي، والوضعي عموماً، إنما هو منهج عمل، وثمة فرق كبير بين المذهب والمنهج... المذهب يعبّر بشكل أو آخر عن رؤية للكون والحياة والعالم والوجود، تنبثق عن فلسفة أو تصوُّر أو عقيدة متميزة، وفي هذه الحالة فإن الإسلامية ترفض الإذعان ـ ابتداء ـ أو الانسياق وراء المذهبيات الأدبية، لأنها عند ذاك ستتنازل عن الكثير من مقوماتها وستفقد شخصيتها المستقلة ربما...

أما المنهج، فهو أداة عمل، وهو في بعض الأحيان قد يعكس

تمذهباً ما بدرجة أو أخرى، ولكنه يظل في معظم الأحيان حيادياً يمكن توظيفه لهذا المذهب أو ذاك... إنه يذكّرني بالتلفاز ـ مثلاً ـ أو السينما، فهما بحدّ ذاتهما قد لا يعنيان توجُّهاً معيناً على مستوى التصوّر، ولكن توظيفهما هو الذي يحمِّلهما بتصور كهذا...

وإذا كان «سارتر» قد أكد في أدبياته الوجودية مسألة الالتزام هذه (فيما عدا دائرة الإبداع الشعري كما هو معروف)؛ فإن هذا لا يعني أن الالتزام معطى سارتري أو وجودي صرف، ومن ثم فهو لا يعني أن المناداة بالتزامية الأدب الإسلامي تسوقه إلى الانحياز؛ لأن أحداً لم يخطر على باله بأن التزامية الماركسية تمثل انحيازاً للوجودية؛ وهي التي سبقتها بكثير.

ثم إن الالتزام الأدبي والفني عموماً ليس أمراً جديداً في عالمنا الحديث لكي يكون حكراً على هذا المذهب أو ذاك... إنه موغل في القرون البعيدة، ويكفي أن نتذكر فيلسوفين نصرانيين «كتوماس الأكويني» و«القديس أوغسطين»، بل يكفي أن نتذكر شاعرين مسلمين «كحسان بن ثابت» و«قطري بن الفجاءة»؛ لكي نعرف كيف أن توظيف الإبداع الفني لتصوُّر أو قناعة ما، عمل يندّ عن مقولات التاريخ والجغرافيا... يتحرك بعيداً عن نسبياتهما المحددة ومتغيراتهما المنظورة.

بالنسبة للمصطلح يمكن أن نجد في الكلمة اشتقاقاً عربياً أصيلاً، ومع ذلك فليس قدراً أن نسمي المحاولة التزاماً، ليسمِّها المتوجسون من لعبة المصطلحات الغربية ـ وهم محقون ـ

ما شاؤوا من تسميات قد تبعدها عن النحت الغربي للكلمة. ولكن يبقى هناك، قبل هذا وبعده، حقيقة أن الأدب الإسلامي أدب مذهبي، بمعنى أنه يعبّر ـ إبداعياً ـ عن منظور متميز للكون والحياة والإنسان... يلتزم بمعطيات هذا المنظور ويرفض قبول أو احتواء كل ما من شأنه أن يعارض أو يصدم هذه المعطيات.

وإذا كان المصطلح عموماً جسراً للتواصل، للعبور إلى الآخرين وتقديم رؤيتنا إليهم، فإن اعتماده بصيغه غير الإسلامية ليس جرماً، بل قد يكون ضرورة من الضرورات، وهو في الوقت ذاته يمثل تحدياً ملحّاً، يتطلب منا أن نشكل مصطلحاتنا الأدبية والنقدية والجمالية الخاصة بنا، وألّا نقف عند هذا الحد، بل أن ننشرها على الناس، أن نزيد من فاعليتها في ساحات النقد والأدب، وأن نجعلها عالمية ما وسعنا الجهد، وحينذاك يمكن أن نعبر إلى الآخرين بالجسور التي هي من صنع أيدينا، فنكون بالتأكيد أكثر صدقاً مع أنفسنا ومع الآخرين.



**ـ إن بعض النقاد المتأثرين بتيارات النقد الغربي يسخرون من محاولة تأصيل نقد أدبي إسلامي، بحجة تقاصر الأعمال الأدبية الإسلامية المعاصرة عن مضاهاة الإبداعات العالمية المتميزة... ما هو الردّ النظري والعملي على هذه السخرية الصغيرة؟**

= ليست سخرية إذا أردنا الصدق، ولكنها قناعة، قناعة قد

تخضع أحياناً للعبة الكراهية والهوى، ولكنها في المدى الأشمل تمثل نوعاً من اليقين لدى غير الإسلاميين عموماً (وليس فقط المتأثرين بتيارات النقد الغربي) بأن الأدب الإسلامي في دوائر الدراسة والنقد والإبداع ليس له وجود، أو هو في أحسن الأحوال لم يستوِ بعدُ على سوقه لكي يفرض حضوره ويشار إليه بالبنان...

وإذا كان بمقدور المرء أن يعطيهم الحق قبل عقدين أو ثلاثة، فإنه يجد نفسه مضطراً لأن يرفض «ادعاءهم» في اللحظات الراهنة، وأنا أؤكد هنا على كلمة «ادعاء»، لأن القناعة عندما تفقد مبرراتها الموضوعية، ويصرّ أصحابها على التشبث بها، تصير ادعاء...

إن هذا يبدو واضحاً في العقدين الأخيرين على وجه الخصوص، ولسوف يزداد وضوحاً في المستقبل القريب بإذن الله. لقد جابه أدباء الإسلامية تحدّياً كبيراً والحق يقال، ولكنهم قدروا على أن يجتازوه بقدر طيب من النجاح. وهناك سيل من الأعمال الدراسية والنقدية والإبداعية تخرج على الناس بكثافة تلفت النظر، بحيث أن محاولة كتلك التي يقوم بها الأخ «الدكتور عبد الباسط بدر» في «فهرسة مكتبة الأدب الإسلامي» تضع بين أيدينا مئات من المؤلفات والبحوث، وستضع في أجزائها القادمة مئات أخرى من الأعمال الإبداعية. فماذا يمكن أن يقال عن المستقبل؟ وهناك أيضاً... فلأول مرة في تاريخ الأكاديمية يفرض هذا الأدب حضوره في أروقة المعاهد والجامعات، فتكتب عنه البحوث والدراسات، وتقدّم الأطروحات للمراحل الدراسية المختلفة بدءاً من الليسانس

وانتهاءً بالدكتوراه. ويجب أن ننبه إلى أن الدوائر الأكاديمية التي تقبل هذه الممارسة المتزايدة، دوائر لم تكن تعترف إلى عهد قريب بشيء اسمه الأدب الإسلامي، والأساتذة الذين يشرفون ويناقشون ويقرّون درجة ما لهذا البحث أو ذاك عن الأدب الإسلامي، قد لا يكونون أساساً من الإسلاميين بل إن معظمهم من أولئك «المتأثرين» كما تسميهم «بتيارات النقد الغربي».

وإلى جانب هذه الدوائر، فإن أقسام اللغة والأدب العربي في العديد من الجامعات العربية والإسلامية، ذات التوجه الإسلامي الأصيل، قد أقرّت هذا الأدب الوليد في سياقاتها المنهجية وأعطته المساحة الواسعة التي يستحقها. ولسوف يزيد هذا التوجهَ عرضاً وعمقاً الجهودُ القيّمة التي ينفذها «المعهد العالمي للفكر الإسلامي» في عملية «أسلمة المعرفة»، التي يحظى الأدب الإسلامي بنصيبه الطيب منها. وهو، أي المعهد، الآن بصدد إنجاز كتاب منهجي شامل لتدريس مفردات هذا الأدب أكاديمياً، وتغذية الصفوف والدوائر الجامعية بإحدى حاجاتها الملحّة في هذا المجال.

ويجيء قيام «رابطة الأدب الإسلامي» في الهند قبل سنوات قلائل، تتويجاً لهذا كله، بل إنه في الحق البداية الصحيحة للمّ الطاقات وبرمجتها، وجعلها تصبّ في البؤرة التي ستحرق الكراهية والبغضاء، وستمزق حجب الجهل والتجاهل، وستضع في دائرة الضوء، وتنمّي، واحدة من أن أشد معطيات الإنسان الأدبية ارتباطاً بقضية

الإنسان وهمومه، وأكثرها نقاءً وطهراً، قبالة عالمٍ يكاد يختنق بالدنس، وفسادٍ يلفّ البر والبحر والسماء بما كسبت أيدي الناس.

❁ ❁ ❁

ـ والآن، فلندخل مملكة الشعر... هناك أشياء كثيرة يمكن أن تثار، ولكنني سأقف عند هذه النقطة التي يمكن أن تشكل عصب الموضوع... **فما هو الحدّ الصعب الذي يجب أن يتقارب إليه الشاعر المسلم لينجو من مساقط الغموض الدلالي والنثرية الباردة، وانعدام العذوبة والنكهة والجرس، وليتجاوز الحدّ السهل المتمثل في التعلّق المملّ بالأغراض التقليدية، والوجدانية الإيقاعية، والتشتت الصوري، والصلب الأبدي على عمود القصيدة العمودية؟**

= ها إنك قد اخترت الوقت المناسب تماماً، بعد حوار سريع عن الأدب والنقد الإسلامي، للتحدث قليلاً عن الإبداع نفسه، عن هذا النوع أو ذاك من معطياته وتقنياته.

وبالنسبة للشعر ـ مثلاً ـ ثمّة بالفعل أشياء كثيرة يمكن أن تقال، وقد يخطر على البال هنا ما ذكره لي مدير تحرير «المسلمون» الأستاذ محمد المختار الفال، من أن الشعر هو الهاجس الأكثر إلحاحاً في دائرة الإسلامية. وهذا حق إذا حاولنا بحساب الكم أن نقيس الشعر على الأنواع الأخرى كالقصة والرواية والمسرحية، ولسوف نجد يقيناً، قبالة كل مجموعة قصصية أو

رواية أو مسرحية، تصدر على مكث بين الحين والحين، عشرة دواوين شعرية أو عشرين!.

قد يكمن السبب في قصر عمر الأنواع الأدبية المذكورة في تاريخ أدبنا العربي الحديث، وما يقال ـ صدقاً أو كذباً ـ من أنها مستعارة في الأغلب من الغير، في وقت يبدو فيه الإبداع الشعري ممارسة أصيلة موغلة في الزمن، ضاربة بجذورها في أعماق الأرض العربية، مستمدة تقاليدها الفنية الخصبة الغنية من معطيات مئات السنين.

ولكن هذا بحدّ ذاته قد يمثل تحدّياً، وأن على الإسلاميين أن يقبلوه من أجل التحقق بالتوازن في المعادلة الصعبة، فما دام العصر الحديث في دوائره العربية والإسلامية والعالمية عموماً يتعامل مع القصة والرواية والمسرحية باهتمام بالغ، ويضع لها مكاناً كبيراً من اهتماماته الأدبية على مستويات الدراسة والنقد والإبداع، وعلى مستوى الاستهلاك، أي قاعدة القراء التي تشكل ثقلاً أساسياً في الموضوع؛ فإن على الإسلاميين أن يمنحوها ما تستحقه من اهتمام، وأن يسعوا إلى توصيل قناعاتهم وفق تقنياتها المؤثرة ذات الشعبية الواسعة والجذب النقدي الملحوظ. وهذا لا يعني ـ بطبيعة الحال ـ دعوة للكفّ عن قول الشعر، أو تحجيمه في أقل تقدير... أبداً... فليقل الشعراء الإسلاميون ما أتيح لهم القول، وليبدعوا ما سنحت لهم منازع الإبداع، فإن الساحة ما تزال بحاجة إلى مئات أخرى من الدواوين التي تحمل القضية

بالقصيدة الملحمية المقاتلة، أو الكلمة المغنّاة التي تعرف كيف تجتاز دروب الحسّ والوجدان.

ولكن الحضور الإبداعي الإسلامي لن يستكمل أسبابه إن لم يكن هناك، في مقابل هذا الخصب الشعري، عطاء مؤكد متواصل، وبالكثافة نفسها في دائرة الأنواع الأخرى، التي تقدر ـ ربما أكثر من غيرها ـ على الطرق على الآذان الصماء والعيون التي لا ترى، لكي تصحو فتجد نفسها قبالة أدب إسلامي سخيّ في الأنواع كافة، فتقول يومها أن هناك بحق أدباً إسلامياً!.

والآن فلأبدأ معك من آخر السؤال لا من أوله كما هو معروف، إذ قد استفزتني فيه عبارة «الصلب الأبدي على عمود القصيدة العمودية»؛ فلقد ضرب الشعراء المحدثون عموماً في تيه ما اصطلح عليه «شعر التفعيلة»، أو الشعر الحر، والأنماط الفنية الأكثر حداثة منه، وصولاً إلى قصيدة النثر... فماذا كانت النتيجة؟ تأكيداً للقصيدة العمودية وليس نفياً لها!! بل أستطيع أن أمضي إلى أبعد من هذا، فأقول بأنها لم تستطع حتى أن تهزّها عن عرشها، ولعلها زادتها تميزاً وتألقاً... انظر إلى ما يجري في المهرجانات والاحتفالات العامة، فإن العمل الشعري الذي يحقق حضوراً أكثر كثافة عل مستويي الجمهور والتأثير الوجداني إنما هو القصيدة العمودية... إن ما تتميز به من تماسك في بنيانها الفني، ومن توحد وتناظر في معمارها... من تأثير جمالي مؤكد لتكرار الروي والقافية بصيغة ضربات متوازنة الإيقاع، محكمة

الأداء الموسيقي، تشدّ سمع الجمهور ووجدانه الشعري... تهيمن على حضوره... فتكسب الجولة...

ليست كل القصائد العمودية بكل تأكيد، فهناك من بين هذه القصائد ما يدعو إلى القرف والاشمئزاز ويدفع للانفصال الوجداني عن الخطاب. لا أريد أن أمضي في الحديث عن هذه المسألة التي قد تطول كثيراً في حيز لا يتسع لقول الكثير، وإنما أحب أن أنبِّه، قبالة هذا كله، إلى حقيقة أن شعر الحداثة، بأنماطه كافة، يعدّ ـ كذلك ـ ضرورة من الضرورات في الساحة الشعرية، ويكفي أن ننظر إلى سيل من الأعمال المتألقة في مملكته لكي نتأكد من هذه الحقيقة... يكفي أن نرى ونلمس قدرة الخيال الشعري على التحرر عبر صيرورته الفنية من كل ما من شأنه أن يعوق تدفقه وإيغاله، من حواجز المطالب الفنية للقصيدة العمودية، لكي يتبيّن لنا صدق المقولة.

فهل بعد هذا من ضرورة للاعتقاد الخاطئ بأن القصيدة العمودية يتحتم أن تنفي الإبداع الشعري الحر، أو أن هذا يقود بالضرورة إلى نفي العمود أو الحكم عليه بالإعدام؟

إن المسألة على العكس تماماً، فهذا التنوع والخصب في صيغ الخطاب الشعري، إنما يحسب للشعر العربي وليس عليه، ونحن نعرف جميعاً تنويعات الشعراء العباسيين والأندلسيين في دائرة هذا النمط من الإبداع، وكيف أنهم زادوا ساحته غنى وتلويناً، ولم يقل أحد أن هذا خروج عن الحضرة أو القداسة الموهومة للعمود

الشعري الذي احترمه الآباء والأجداد. فليس في تقنيات الإبداع الأدبي والفن حلال أو حرام، ولن يستطيع ناقد مسلم الادعاء بقدرته على «جدولة» هذه التقنيات وقبول بعضها ونفي البعض الآخر. وتبقى القدرة الإبداعية للشاعر هي الحكم الفصل في الحكم النقدي على أعماله، سواء قدّمها بصيغة العمود أم التفعيلة أم أية صيغة أخرى.

إن الشاعر العملاق قد نجده هنا وهناك... وأدعياء الشعر وعجزته قد نجدهم ـ كذلك ـ هنا وهناك... وليس الصراع بين أنماط الشعر كافة ـ إذا أردت الحق ـ سوى معركة موهومة لا مبرر لها، إذا تذكرنا كرّة أخرى أن القيم الجمالية قد توجد هنا، وقد تشح وتنعدم هناك، فيسقط معها العمل الشعري، سواء كان حراً أم عمودياً...

لقد كنت أنا شخصياً قبل عشرين سنة أو ثلاثين مندفعاً إلى حد الهوس وراء الدعوة لتحرير الشعر العربي من هيمنة القافية والعمود، ثم ما لبث أن تبين لي خطأ هذا الموقف في أساسه النقدي، فليس المهم أن نحرر القصيدة، ولكن أن نحميَها من التفكك والتبذل والضياع، وأن نغنيَها في الوقت نفسه، وننوعَ عليها... أن نتحررَ إذا جاز التعبير من بعض مطالبها وقوالبها... ولكن أن نعطيَ لها الحيّز الذي تستحقه باعتبارها واحدة من أكثر الخبرات نضجاً واكتمالاً فنياً في آداب الأمم والشعوب كافة...

❁ ❁ ❁

**ـ يعني أنك تؤيد التجريب؟**

= ذلك بكل تأكيد، فمن منا يرفض ذلك؟ وهل كان نمو الأنواع الأدبية كافة، وتطوُّرها، وتزايد تألقها الفني؛ إلّا من خلال التجريب؟

ولكن ليس مطلق تجريب، يقيناً، وإلّا غدا فوضى وهدماً وتخبطاً، إنما هو التجريب الذي ينفذه مبدعون بلغوا القمة في قدراتهم الفنية في دائرة هذا النوع أو ذاك، وفي إدراك أسرار الإبداع ومطالبه وتقنياته، وفي متابعة التطور التاريخي للنوع، أي الخط البياني لتراكم الخبرة النوعية. وهذه مسألة في غاية الأهمية، من أجل تجاوز الارتجال والمطبات، أو القفز في الفضاء... بل إن على المبدع أن يملك قبل هذا كله خلفية نقدية تمنحه خارطة عمل، إذا صح التعبير، يعرف كيف يتحرك على هديها...

فإذا تذكرنا أن الأنواع الأدبية كافة، بما فيها الشعر، هي بشكل من الأشكال خبرة بشرية متراكمة، قد يزيدها الزمن أو التاريخ الإبداعي نضجاً واكتمالاً، أفنبيح لأنفسنا أن ننفي هذه الخاصية ذات الأهمية البالغة بحجة الدعوة إلى التحرر والتجديد؟ إن الجواب على هذا قد يبدو أكثر ما يبدو في تعاملنا مع ما تسميه عمود القصيدة.

**التجريب... نعم وبكل تأكيد... ولكنه التجريب المنضبط بالقيم والمعايير الفنية المتفق عليها... التجريب الذي يحترم**

الخبرة الفنية ويحتضنها، ولا يفرط بأية جزئية متألقة منها بحجة هذا المطلب أو ذاك.

❁ ❁ ❁

**ـ فماذا عن مساقط الغموض الدلالي؟**

= يمكن أن تكون متفقاً معي، وكافة الأخوة القراء، على أن الإبداع الأدبي، بما أنه أساساً خطاب نتوجه به للآخرين، فلا بدّ أن يحمل قدرته الفنية على التوصيل، والتجربة الإبداعية التي لا تصل إلى الشاطئ الآخر... إلى «الآخرين»... فإنها محكوم عليها بالعجز... بعدم القدرة على العبور، وقد تسقط غرقاً فيبتلعها التيار فلا تحظى بفرصتها للتحقق. إن لغتنا العربية الشاعرة، الحساسة، الخصبة بمفرداتها ومجازاتها واستعاراتها التي ما لها من نفاد... لا يمكن بحال أن تبخل بقدراتها الإبداعية وأدواتها الفنية لتوصيل التجربة؛ فليس إلّا العجز والانحسار في قدرات الأديب نفسه، ذلك الذي يغمض في التجربة ويمنعها من الوصول إلى الآخرين.

لقد دونتُ بعض الملاحظات المتواضعة بهذا الصدد في مقال بعنوان «حول أدب الغموض: الجسور المقطوعة» نشرته مجلة «الوعي الإسلامي» قبل أكثر من سنة، فلا مبرر لإعادة القول فيه، ولكنني أعود فأؤشر ثانيةً هنا على واحدة من التصورات أو القناعات الخاطئة للأدباء المحدثين في الساحة العربية... إنهم يعتقدون أن المذاهب الأدبية الأكثر حداثةً في الغرب كالطليعية والمستقبلية والبنيوية واللاوعيية، ومن قبلها الرمزية والسريالية...

إلى آخره... تعاني في أعمالها الإبداعية من الغموض، وأن هذا الغموض شيء أساسي في تكوينها، وأنه مرسوم مسبقاً في تصور أصحابها... إنه بإيجاز قَدَرُها، وإننا إذا أردنا أن نجدد نحن الآخرين؛ فإن علينا أن نغمض ونلغز... أبداً، فإننا لو تمعنا في أي من الأعمال الإبداعية للمذاهب الآنفة، فإننا سنعرف كيف أنها، على غموضها وإلغازها، تحمل القدرة على التوصيل، ليس هذا فحسب بل إن هذا الغموض والإلغاز ليس هدفاً بحدّ ذاته، وإنما هو ضرورة فنية للتعبير عن حالة نفسية أو عقلية أو وجدانية أو إنسانية أو كونية. والمهم أن هذا الغموض سرعان ما ينكشف في نهاية الأمر عن معنى أو إشارة ما، يتلقاها القارئ فيعرف بالتأكيد ما يريد الأديب أن يقوله... والذي يحدث عندنا ـ في كثير من الأحيان ـ للأسف، ليس هذا وإنما شيء آخر تماماً... الغموض الذي يستهدف نفسه، والذي لا يحمل أية دلالة ذات مغزى، أو هو يحملها ـ ربما ـ لكنه يعجز عن توصيلها إلى «الآخرين».

ولعل من فضول القول بأن التكشف الكامل للعمل الإبداعي يقوده إلى التضحُّل ويفقده خصائصه الفنية، ويؤول به إلى ما تسميه «النثرية الباردة» أو التقريرية أو ما شئنا من تسميات... وإنه إذن لا بدّ من التغطية... من المجاز... من إحاطة التجربة التعبيرية بأكبر قدر ممكن من المضافات الفنية التي تبعد بها عن الكلام الاعتيادي... وهذا بالتأكيد قد يقودنا إلى نوع من الألغاز أو الغموض، وهما في الحقيقة مما يميز الإبداع عن الكلام أو

المعاني المطروحة على قارعة الطريق كما يسميها «الجاحظ»... لكن المبالغة في الإغماض وفق قصد مسبق، سوف يقود التعبير إلى التشرنق، والعزلة، ويصدّه عن الوصول إلى الآخرين، فيفقد وظيفته الفنية الأساسية... إن كثيراً من قصائد الشعر الحر، على سبيل المثال، تتحول على أيدي أنصاف الشعراء من المولعين بالتقليد والملاحقة، إلى نوع من لعبة الكلمات المتقاطعة... من الشفرات السرية التي قد لا يقدر على فكّها وحلِّ رموزها سوى واضعها نفسه... وهذا بالتأكيد ليس ميزة للأديب بقدر ما هو إدانة لأدواته الفنية وقدراته التعبيرية.

❁ ❁ ❁

**ـ إذا ما انتقلنا إلى الرواية الإسلامية المعاصرة وجدنا من يأخذ عليها، مع كل التقدير والعرفان لروّادها، كثافتها المضمونية، ووضوح نبرة الراوي فيها، إيثاره لأسلوب الإخبار والوصف في التشخيص... ما هو تقويمكم النقدي لهذه المآخذ؟**

= لستُ معكَ في هذا التعميم، فإن الرواية الإسلامية المعاصرة، على شحّة معطياتها كمّاً، تتضمن ـ نوعاً ـ قدراً طيباً من التنويع على مستوى التقنيات الروائية، وهذا بدأ يتضح أكثر فأكثر في الروايات الإسلامية الأكثر حداثةً، أما في البدايات، فإننا نلمح بالتأكيد حضوراً طاغياً للروائي نفسه في صميم عمله الفني، ونلمح كذلك مبالغة في السرد والإخبار والوصف فيما يكاد يجعل العمل الروائي ريبورتاجاً صحفياً أو جهداً تسجيلياً، بل إنه على

أيدي البعض يغدو عملاً وعظياً مباشراً يستعير من القصة بعض شروطها الفنية، ولا شيء وراء ذلك. إن هذا ليس عيباً في الرواية الإسلامية كنوع، بل إنه ليس عيباً في الروائيين القدامى، فإننا نجد هذه التقاليد تسود معظم الأنشطة الروائية في مراحلها المبكرة. ولسنا هنا بصدد ضرب الأمثلة، الأمر الذي قد يقتضي دراسة مستقلة، مفصلة، أحسب أن العديد من الأخوة في «المغرب» يقومون بها... والمهم هو ما الذي يفعله وسيفعله الروائي المسلم عبر الزمن القادم؟

❁ ❁ ❁

**ـ إن هذا يدفعني للتساؤل عن تجربتكم في «الإعصار والمئذنة»؟**

= بإيجاز شديد، فإنني بعد وضع اللمسات الأساسية لفضاء الرواية، وبعد الحضور بين الحين والحين لربط سياقات الحدث الروائي، أردت أن أنسحب، ما وسعني الجهد، لكي أعطي الحرية الكاملة للشخوص، فلا يكون تشكُّل الحدث وصيرورته إلّا من خلالها. بمعنى آخر أن تكون الرؤية هي رؤيتهم وليست رؤيتي الشخصية، التي تقطع عليهم حريتهم في معاينة الوقائع والتجارب والأشياء... وفي معايشتها... صحيح أنني شذذت في بعض المواقف عن هذا التصميم، فيما أشار إليه الأخ الناقد «محمد إقبال عروي» في دراسته للرواية ضمن كتاب «جمالية الأدب الإسلامي» والأخت نبيلة الجراري في دراستها الأكاديمية للرواية بعنوان «الإعصار والمئذنة بين الجمالية والالتزام»، ولكن هذا لن يعدو أن

يكون استثناءات محددة اقتضتها بعض الضرورات الفنية، بينما ظلت القاعدة تتحرك في نطاق ذلك التصميم... ومن يدري فلعلي إذا عدتُ للرواية منقِّحاً أن أستأصل منها حتى هذه الاستثناءات...

والحق أن بناء العمل الروائي وفق صيغة المتحدث «العالم بكل شيء» يفقده تركيزه الفني المطلوب، ويعطي الإذن للروائي بأن يدخل بين لحظة وأخرى حضرة التشكل الروائي للوقائع والشخوص، فيقطع عليها عفوية صيرورتها وانسيابية تشكُّلها، وقد يصدم حسّ القراء برقابته الصارمة وإمساكه المكشوف بخيوط اللعبة، فيما يجعلهم يتأرجحون بين تصديق الواقعة الروائية والاندغام فيها، أو الانفصال عنها وتكذيبها!.

وهذا إن جاز في العمل الدرامي، فيما هو واضح في «الملحمية» البرشتية من أجل تحقيق أغراض تعليمية عن طريق جعل المشاهد ينفصل عن العمل التعبيري ويعاينه من الخارج لكي يعرف كيف يتلقى مؤثراته البنائية، فيما هو مثار جدل حتى الآن، فإنه لا يجوز في العمل الروائي الذي يفترض فيه التشكل من الداخل ووفق منطق صيرورته الخاص، لكي يمنح القارئ القناعة بصدقه... وهكذا فإذا كانت صيغة المتحدث من الخارج، «العالم بكل شيء» قد تقود إلى مآخذ من هذا النوع، يقف على رأسها ولا ريب تسيُّب العمل الروائي، وانفتاحه غير المحدود، وفضفاضيته وترهُّله، أحياناً؛ فإن طرح الحدث الروائي بصيغة ضمير البطل المتحدث من الداخل، قد يحدد الحركة والرؤية بأكثر مما يجب،

وقد يحوّل الرواية أحياناً إلى ما يشبه السيرة الذاتية للبطل، وقد يسرق الضوء أحياناً أخرى من شخوص قد لا تقل أهمية عن البطل المحوري فيضعها في مناطق العتمة والظلال، أو يجعلها ـ في أقل تقدير ـ تتحرك في «عالم البطل» ووفق مشيئته، أو رؤيته سلباً وإيجاباً...

في الحالة الأولى؛ فإن الحدث سيتشكل وفق مشيئة الراوي ورؤيته. وفي الحالة الثانية؛ فإنه سيتشكل وفق مشيئة البطل ورؤيته... في الحالة الأولى، ستعاني الرواية من نوع من الافراط والترهل. وفي الثانية، ستتحدد بقدر كبير من التفريط والاقتصاد في المنظور.

وقد تكون الصيغة الثالثة التي تشكلت فيها «الإعصار والمئذنة» هي الصيغة الوسط التي تفيد من ميزات التقنيات السابقة وتطرح سيئاتهما... أن ينسحب الراوي بعد تحديد الفضاء الروائي، تاركاً مجموعة الشخوص، لا البطل وحده، تتحدث وتتحاور وتنفعل وتعايش وتسمع وتلمس وترى... وما هي إلّا وجهة نظر «فنية» قد لا يسلّم بها هذا الناقد أو ذاك على أية حال. ومع ذلك فقد سمحتُ لنفسي بين الحين والحين بالتحدث نيابة عن الأبطال واختراق عالمهم الخاص... وقد كان هذا ـ ولا ريب ـ خطأ مني...

❁ ❁ ❁

**ـ ألا يتقاطع هذا مع منظوركم الالتزامي؟**

**= أبداً... فأنتَ إذا قدرتَ أن تجعل بعض شخوصك تتشكل وتصير، وتعاين وتتحقق في دائرة قناعاتك الإيمانية، وبعيداً عن**

تأثيرك المباشر، أو حضورك المنظور بتعبير أدق، منفصلة قدر الإمكان عن رؤيتك المباشرة، تكون قد اجتزتَ المعادلة الصعبة بنجاح وبالصدق الفني المطلوب... والهدف نفسه، أي البعد الالتزامي، سيتحقق فيما يقابل هذه الحالة الإيجابية، أي في الحالة السلبية التي تعبّر عنها مجموعة الشخوص التي تتشكل في دائرة القيم المضادة، وأيضاً دونما تدخُّل أو مقاطعة، وبالصدق الفني الذي يجعل هذه الشخوص تصدم القارئ، فينفر منها ولا يتعاطف معها، أو هو في الأقل يرفض الذهاب معها إلى ما تريد هي وتختار لا ما يريده هو أو يختاره.

❁ ❁ ❁

ـ هذا يكفي، فقد نلتقي كرةً أخرى للحديث عن «الإعصار والمئذنة» بالذات. وعلى أية حال، فإنني قدَّمتُ تصوري وقناعاتي النقدية عن الرواية في دراسة مستقلة، أرجو أن تتاح لها فرصة النشر قريباً. **والآن فإنني أحب أن أختم لقائي معكم في الحديث عما يعدُّ أكثر الأنواع الأدبية التصاقاً بكم... فباعتباركم من الرواد في الفن المسرحي إنتاجاً وتقويماً، ما هو حكمكم النقدي على إبداعاتكم المسرحية؟**

**= أعتقد أن من حق المرء أن يعتذر عن إصدار حكم نقدي على مجموع أعماله في مجال ما من المجالات، فإن هذا أمر متروك للنقاد والدارسين والقراء وهم أهله وأحقُّ به... وبدلاً من ذلك، فإن البعض يتحدث عن خبرته وتنامي هذه الخبرة في**

دائرة نوع أدبيّ ما... وعمل كهذا قد يضيء الطريق أمام النقاد والدارسين، وقد يفيد المبدعين أنفسهم في ذلك الحقل ويجنبهم الكثير من العثرات والأخطاء.

ولا أظن أن حواراً كهذا، ربما يكون قد طال به السرى، يسمح بوقفة كهذه تتضمن رحلة مع خمسة أو ستة من الأعمال المسرحية (ثلاث مجموعات من المسرحيات ذات الفصل الواحد وثلاث مسرحيات من ذوات المشاهد والفصول).

ثمة ملاحظة أحب أن أشير إليها... فإذا كان هناك نشاط نقدي إسلامي ما في دوائر الشعر والقصة والرواية، فإنه يكاد يكون غائباً تماماً عن المسرح...

**ـ لماذا؟**

= ربما لأن النشاط المسرحي نفسه أكثر جدة على الساحة... ومهما يكن من أمر، فإننا جميعاً لن نقدر على مواصلة الطريق بالصيغ المرتجاة، دونما إضاءة النقد. إنه ـ إذا أردت الحق ـ ضرورة من الضرورات، فهو الدافع والمعلّم... وللأسف الشديد فإن الكثير من النقاد الإسلاميين لا يدركون هذه الحقيقة التي هي أخص ما يخصهم، أو هم قد يدركونها ولكن أسباباً شتى، ربما يكون الكسل، أو زحمة المشاغل، أو عامل شخصي؛ ما يجعلهم يقعدون عن ملاحقة ما تطرحه الساحة من أعمال إبداعية.

إن مخاطر «سلبية» كهذه قد لا تشلُّ أولئك الذين قطعوا شوطاً من الطريق، لكنها قد تقضي على العناصر الشابة الجديدة

التي تضع خطواتها الأولى على الدرب وهي تملك رصيداً مذخوراً وطموحاً كبيراً، لكن ليس ثمّة من يسمع صوتها أو يأخذ بيدها. لقد تلقيتُ رسائل شتى من هؤلاء كانوا يستغيثون فيها، وكنت تحسُّ إزاءهم كما لو أنهم يجدّفون لوحدهم في بئر عميق، وأنهم سيختنقون... سيضيعون إلى الأبد.

❁ ❁ ❁

**ـ هل لي أخيراً أن أسألكم سؤالا تقليديا معروفاً...**

= مثلاً؟

**ـ أحبّ أعمالكم المسرحية إليكم؟**

= من جهتي سأتجاوز الجواب التقليدي المعروف، مراوغاً أو مدعياً بعبارة «كلهم أبنائي»... أبداً... فإن ثمة ما يجعل بعض هذه الأعمال أحبَّ إلى نفسي.

**ـ وهي؟**

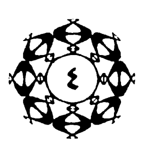
= «المغول» و«العبور».

**ـ لماذا؟**

= لعلّ تراكم الخبرة الفنية ما يجعل الأولى أنضج أعمالي المسرحية ذات الفصول، ويضع الثانية على رأس مجاميعي ذوات الفصل الواحد.

**ـ وهل ثمّة عمل مستقبلي في هذا اللون الأدبي؟**

= علمُ ذلك عند الله...



**أجرى الحوار في عمّان الأستاذ هيثم الأشقر (آب ١٩٩٢م)**
**ونشر في مجلة النور اليمنية في (خريف ١٩٩٢م).**

**ـ هل لكم أن تحددوا أولويات العمل لبناء مشروعنا الحضاري؟**

= بعد أن تساقطت جلّ المشاريع الحضارية الوضعية والدينية المحرّفة، يغدو تقديم المشروع الحضاري الإسلامي البديل ضرورة لازمة للإنسان المعاصر. وبدلاً من ملء الفراغ بمحاولات أخرى من حلقات الخطأ والصواب، التي تهدر فيها الطاقات ويضيع الزمن ويزداد المرء تعاسة، لا بدّ أن يشمِّر الإسلاميون عن ساعد الجدّ لتأكيد مصداقية دعوتهم، وتقديم المشروع الحضاري البديل الذي يعد إذا استخدمنا عبارة المفكر الفرنسي المسلم رجاء كارودي، بالإجابة على أسئلة القرن العشرين والقرن الخامس والعشرين!.

ولكن كيف؟ ليس بالأماني والأحلام... بكل تأكيد، وإنما بالفاعلية المتواصلة التي تقوم على التخطيط، وعلى تحديد أولويات العمل من أجل استكمال البناء وفق أشد الطرق إحكاماً وعطاءً.

والحديث عن هذه الأولويات في لقاء سريع كهذا قد لا يعالج كل المفردات الضرورية للإجابة على السؤال... ولكن بالإمكان

التأشير بالإيجاز المطلوب على المهم فقط. فالإسلاميون يجب ـ أولاً ـ أن يكونوا على بينة من طبيعة المشروعات الحضارية «للآخر» والأسباب التي آلت بها إلى الإخفاق، أي أن يكونوا على وعي عميق بنسيج الحضارة الغربية وبحلقاتها المعرفية وبخاصة في دائرة ما يسمى بالعلوم الإنسانية، لأن هذه بالذات هي الثغرة التي يتسرّب منها الفساد والخلل. وهي أيضاً البوابة التي سيجتازها المشروع الحضاري الإسلامي، لكي يقدم البدائل المناسبة بدءاً من الثوابت العقدية وانتهاء بالتعامل مع الإنسان، والمجتمع، والدولة، والحضارة. وهذا يعني من جهة أخرى، ضرورة التحقق بإدراك شامل لأسس التصور الإسلامي ومقوماته، مقارنة بما قدمته المحاولات الأخرى... بمعنى أننا نتعامل مع «إسلام» يملك الفاعلية في قلب العصر الذي نعيشه، ويملك معها القدرة على الإجابة على كل الأسئلة المعلقة، التي تؤرق الإنسان المعاصر، والتي عجزت المحاولات الأخرى عن الإجابة عليها.

مهما يكن من أمر، فإن «الفكر» باعتباره القاعدة الأساسية للعمل في هذه الاتجاهات جميعاً، يحتّم على الإسلاميين القيام بمحاولات متواصلة لتحديد ثوابته الإسلامية، بما في ذلك التصور المعرفي الذي يستند إليه، والذي ينطوي على الوحي والوجود معاً، وبما في ذلك المقاصد الشرعية التي هي الهدف الأساس لكل نشاط فكري في دائرة الإيمان.

وأنت تعلم ـ أيها الأخ الكريم ـ أن نشاطاً كهذا لم يعد

بمقدور الأفراد أن يأتوا فيه بطائل، ولا بدّ من عمل مؤسسي تلمّ فيه الطاقات، وتُرشَّد الخطوات، وتحدَّد أولويات العمل. ومن ثم فإن مؤسسة «كالمعهد العالمي للفكر الإسلامي» يُعَدّ قيامها ضرورة لا خيار فيها باتجاه وضع الخطوات الصحيحة على طريق المشروع الحضاري المرتجى. ولقد قطعَتْ بالفعل، عبر أكثر من عقد من الزمن، مراحل في الطريق، ولا يزال ينتظرها الكثير.

والأهم من ذلك أنها، بوضعها الراهن، تقدم إغراءً لقيام مؤسسات أخرى تعين على تحقيق مقاربة أكثر للأهداف، ونحن نجد ـ مثلاً ـ أن «المركز العالمي لأبحاث الإيمان» الذي أنشئ في السودان الشقيق قبل حوالي السنتين، يمثل هو الآخر استجابة طيبة لتحديّات المشروع الحضاري.

وكلما اتسع نطاق المحاولة على المستوى المؤسسي، ورافقها في الوقت نفسه تعاون وتنسيق بين هذه المؤسسة وتلك؛ تجاوز الإسلاميون إشكالية البدء من نقطة الصفر، بكل ما ينطوي عليه ذلك من هدر للطاقات وتضييع للزمن. وأخيراً فلا بدّ من الإشارة إلى أن حلقتَي التربية والتعليم والثقافة والإعلام، يمكن أن تضطلعا بالقسط الأكبر في كل بلد إسلامي للإعانة على بلورة المشروع الحضاري وإنضاجه والاقتناع بجدواه... إذ بدون هذه القناعة لا يمكن أن نقطع خطوة واحدة صوب الأهداف.

❁ ❁ ❁

**ـ كيف يرى الدكتور عماد الدين خليل منهج أو طريقة بناء العقل المسلم المعاصر؟**

= إن الإجابة على هذا السؤال تمثل بشكل من الأشكال امتداداً طبيعياً لمسألة المشروع الحضاري. ذلك أن العقل المسلم هو المعني بالنهوض بهذا المشروع. ولعلي في كتابي المتواضع (حول أصول تشكيل العقل المسلم) قد قدّمتُ بعض الإجابات على السؤال، ولا بأس من إحالة القرّاء عليه كرّةً أخرى. وأؤكد على عبارة «بعض الإجابات» لأن هنالك الكثير مما لم يتناوله الكتاب.

❁ ❁ ❁

**ـ أين يكمن الخطر في المناهج التربوية؟**

= إنه ولا ريب يتمثل في تعميق الانفصال بين العلم والإيمان، وفي إقامة حواجز عالية في عقل الطالب ووجدانه، بين مطالب الوحي والوجود. وأظنك تلحظ كيف أن الهم الأساسي لكل العاملين أو المنادين بالمشروع الحضاري البديل، إنما يبدأ بردم هذه الهوة التي حفرتها جهود عشرات السنين في نسيج الحياة الإسلامية وسياقاتها المعرفية وأفكارها وتصوراتها، بتوجيهات وضغوط مراكز اتخاذ القرار في العالم الغربي، المتسلط، سواء في مرحلة الاستعمار القديم المباشر، أو الاستعمار الجديد المقترن بالغزو الفكري.

إنهم ـ لأسباب واضحة تماماً لا يتسع المجال لسردها ـ يحاولون أن يرغموا الإسلام على أن يمر من عنق الزجاجة

الضيّق... على أن يجتاز الطريق، المسدود نفسه، الذي اجتازته النصرانية المحرّفة، فانعزلت عن العلم والعقل والحياة، وهذا لا يمكن أن يكون بحكم الفارق النوعي الحاسم بين التصورّ الإسلامي والتصوّز النصراني المحرّف. ففي التصور الإسلامي يلتحم الوحي بالوجود ويصير العلم أداة للإيمان، ويغدو الدين علماً يقود الحياة ويصمِّمها ويجيب على كل الأسئلة التي تؤرق الضمير البشري.

إن التربية نشاط في غاية الخطورة، وهو يمكن أن يعمّق الهوّة التي حفرتها معاول الاستعمار الأولى، ولا تزال تعمل عملها تحت مظلة الاستعمار الجديد، أو أن يعين على ردم الهوّة واستعادة الوفاق كرّةً أخرى بين الدين والحياة وبين الإيمان والعلم. وليس ثمّة طريق وسط... إما الضياع وفقدان الذات، وإما التحقق وتحصين الذات، وتلك هي المهمة الأساسية للمناهج التربوية في لحظات الصراع الحضاري الراهن.

❁ ❁ ❁

**ـ ما هي أهمية دراسة التاريخ؟ وما هو المنهج الأفضل لدراسته؟**

= الشطر الأول من سؤالك يذكرني بمقولة الفيلسوف الإيطالي المعروف «بنديتو كروتشه»، من أن «التاريخ كلّه تاريخ معاصر»، بمعنى أن الخبرة التاريخية يمكن أن تتجاوز نسبيات الزمن والمكان، وأن تمتد لكي تتعامل مع كل زمن ومكان. وأنت تعلم أن الثوابت التاريخية باعتبارها مرتبطة بنظام الخلق، أي

الكون والعالم... بسننهما ونواميسهما، باعتبارها متجذرة في التكوين البشري الذي لا يتغير ولا يتبدّل، تظلّ كما هي عبر كل التقلبات التاريخية. فإذا تجمّعت الشروط في مرحلة ما، وفق شبكة محدّدة من المؤثرات، آلت إلى النتائج نفسها، ليس في التفاصيل والمفردات، وإنما في الخطوط العريضة. ذلك أن التفاصيل والمفردات تتعرض للتغير باستمرار. ولهذا ـ أيضاً ـ يقال في إحدى المأثورات المعروفة، أن التاريخ لا يعيد نفسه!.

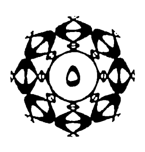
وهكذا فإن قراءة التاريخ ستمنحنا بالتأكيد فرصة جيدة لإضاءة الطريق، وتبيّن مواقع خطواتنا الراهنة، واستشراف احتمالات المستقبل. وهذا ما فعله وأكّد عليه فلاسفة التاريخ ومفسِّروه منذ عصر ابن خلدون وحتى عصر توينبي... وقبلهما... قبلهما بكثير كان كتاب الله ﷻ وسنّة رسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام)، قد أعطيا، لقراءة التاريخ ثقلها الحقيقي، واعتبراها فرصة ضرورية للتعلم مما كان من أجل تحسين ما هو كائن، والتقدم بأكبر قدر من الرشد والوعي باتجاه ما سيكون.

ولنتذكر معاً واحداً من المقاطع القرآنية، من بين عشرات بل مئات من الآيات والمقاطع الأخرى، لكي يتبين لنا كيف أن دراسة التاريخ تعدّ في المنظور الإسلامي، والإيماني عموماً، ضرورة حياتية، وليس مجرد ترف فكري أو نشاط بحثي صرف: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾

هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧ ـ ١٣٩].

أما الشق الثاني من سؤالك، فلعلي أكون قد أجبتُ عنه بإيجاز في كتابي الصغير «حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي»، الذي نشرته دار الثقافة في الدوحة منذ عدة سنوات.





**أجرى الحوار بالمراسلة الأستاذ سعيد ساجد الكرواني، ونشر في مجلة (المنعطف) المغربية العدد ٦ ـ ٧، ١٩٩٣م.**

**ـ نعرف الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل أديباً ومؤرخاً مسكوناً بالفن أكثر، كيف يفسّر لنا هذه المسألة؟**

= لعلّه التكوين النفسي والمطالعات الأولى... منذ اللحظات المبكرة كنت أتعامل مع العالم بجملتي العصبية... كان تحسسي للخبرات والتجارب والأشياء مرهفاً إلى حدّ الإعياء... باختصار شديد، لقد كنت أعيش الحياة (انطباعياً)... فاللون... الصوت... النأمة... الحركة... هذا الأمر الصغير أو ذاك... يثير دائماً في نفسي ردّاً، أو استجابة بشكل من الأشكال... وكانت هذه الاستجابات المتراكمة التي قد تتجاوز أحياناً معادلها المتوازن إزاء الخبرة... تضغط عليّ... تريدني أن أقول شيئاً أو أن أفعل شيئاً... وإلّا آذت أعصابي... ولقد حاولت أن أستجيب للنداء بمحاولات مبكرة في عالم اللون... الرسم، فلما أخفقت تحوّلت إلى الكلمة... وكانت الكلمة بالنسبة لي، ولا تزال، ليست وسيلة أو فرصة للتعبير فحسب، وإنما لنقل إحساسي بلون العالم، الأحمر أو الأخضر أو

الرمادي، للآخرين، وبسبب من الإرهاف الملحّ الذي شكّل معظم الأدباء والفنانين، تحوّلت الكلمة عندي إلى ريشة ترسم، وتلوّن، وتشكّل القيم والخبرات... لا مجرد أداة أو آلية للتوصيل.

وعندما كنت اقرأ والحالة هذه، كنت أرتشف القصة أو الرواية أو المسرحية أو القصيدة أو الرؤية الأدبية، كما يرتشف الإنسان كوباً من الشاي أو العصير اللذيذ... قطرة قطرة... بمحاولة للتذّوق والتلذّذ والاختزان حتى آخر قطرة من العصير...

لا زلت أذكر زمن الدراسة الثانوية: لامرتين، وجبران، وهوغو، وتوفيق الحكيم، وطه حسين، والعقاد، والرافعي، وأبو ماضي، وشوقي، وإبراهيم طوقان، وديكنز، وموباسان، وغوته، وعلي الجارم والعريان... وغيرهم كثيرون...

لا زلت أذكر كيف كانت قصائد (دروس تاريخ الأدب) التي كنا نكلّف بحفظها، تفرض عليَّ حضوراً يصعب وصفه... كانت قصائد المعرّي والمتنبي وأبي العتاهية والبحتري تسكنني... وكنت أجتاز المسافات الطوال تحت الشمس... في ربيع الموصل الحار... وأنا استعيدها كي أتحرّر منها... (أتطهّر) بتعبير (أرسطو)... فما أزداد إلّا احتراقاً... وكان لا بدّ أن أقول شيئاً... وأنت تعلم، فإن الكلمات الأولى تقطر رومانسية، في معظم الأحوال، وتنطوي على حشود من الأخطاء والتناقضات والمبالغات والتهاويل... ولكنها ـ على أية حال ـ تُعلّمُ... تُعلّم كثيراً... كما أنها ـ وهذا هو الأهم ـ تخفف الضغط وتسمح للتوتر بأن يجد فرصته... ولكن

الذي حدث ـ بالنسبة لي على الأقل ـ أنني ما كنت أقتنع بهذا على الإطلاق، فما كنتُ أزداد إلّا توتراً واحتراقاً... ولقد أثر هذا على صحتي، وقادني إلى حافات المرض والإعياء.

من ثمَّ فإنني، عندما فرض عليّ أن أختار الفرع الذي سأذهب إليه في كلية التربية بعد نجاحي في الدراسة الثانوية، وجدتني أعاني لحظات صعبة إذ كنت أخشى أن أندفع إلى قسم اللغة العربية فيسحقني مواته، وأكاديميته المتضحلة، وعدم اعترافه بخبرة الطالب (الذاتية) أو تحسس النار التي تشتعل تحت جلده... وقلت أذهب إلى التاريخ كي لا تضيعني الصدمة كما ضيعت الكثيرين ممن ذهبوا إلى هناك... أما تنمية الخبرة الأدبية فلسوف أتعامل معها من الخارج... وبالحرية التي لا يأسرها قيد...

ثم إن التاريخ نفسه قد يكون فرصة جيدة للتعامل الإبداعي مع الخبرة. وأذكر جيداً كيف أنني لما دلفت إلى الدراسات العليا في التاريخ الإسلامي بعد ذلك بأربع سنوات، حاولت أن أكتب أطروحتي بلغة شعرية، أو قطعاً منها على الأقل، ثم خشيت أن يضحك عليَّ الآخرون وبخاصة أستاذي المشرف... فإن لغة البحث التاريخي الجاد لا تترك أيما مساحة للشعر... هكذا خُيِّل إليّ أيام الصراع القاسي ذاك في البحث عن صيغة أو لغة، أخرج بها رؤيتي للعالم، إلى الناس... ولكن، وفيما بعد (ربما ست سنوات أخرى) يتبين لي بعد محاولات عديدة أن التاريخ في أعمق طبقة منه هو بالضرورة تشكيل شعري... فعل درامي بعبارة أخرى... وأنه

قد يلتقي مع النص وشاعرية التعامل مع الحقائق والخبرات... وكتبت يومها مقالات عديدة في الدعوة إلى كسر حاجز النصية التاريخية التي أسرت الكثيرين، وإلى تحقيق لقاء ما أو توازن مناسب بين الكلمة والحقيقة، بين الأكاديمية الإبداع، وكان كتابي المبكر عن (ملامح الانقلاب في خلافة عمر بن عبد العزيز) تعبيراً بشكل من الأشكال عن هذه القناعة... كما أنني عثرت على ضالتي في معطيات إزوالد اشبنغلر وأرنولد توينبي وكولن ولسون.

إن المؤرخ يتحتم أن يكون أديباً، وإلّا فإنه لن يتجاوز ظاهر النص إلى عمقه المطلوب، ولا يبعد عن حافات الخبرة التاريخية باتجاه الوجدان البشري الذي شكّلها... أما الأديب، فإنه مؤرخ بالضرورة، فليس ثمّة أدب يتحرك في الفراغ... لا بدّ له من زمن ومكان يستمد منهما ويتكئ عليهما ويتعامل معهما ويشكّل منهما فضاءه... وهذا في نهاية الأمر هو التاريخ.

❁ ❁ ❁

ـ بالنسبة إلى فكر رجل مثل عماد الدين تتعدد الاهتمامات غير أن الله تبارك وتعالى يبارك في الجهود، **كيف يوفق الدكتور بين المتحف والكلية والإنتاج وو...؟**

= تلك، كما تقول بحق منة يمن الله بها، وفضل منه سبحانه وبركة... أن نجد الفسحة الزمنية الكافية للإنتاج... وسط زحمة المشاغل الوظيفية والأكاديمية والبيتية وما أكثرها... وقد أعانني على هذا أنني منذ بدايات مبكرة ترجع إلى أيام العطل الصيفية

في (الليسانس) كنت آخذ نفسي بنظام صارم للعمل (على المكتب) كما يقولون، فكنت أفرض عليها فرضاً أربع ساعات أو خمس من الجهد اليومي في الكتابة (على تغاير توجهات هذه الكتابة)، وكانت تناديني أصوات مغرية لترك العمل والذهاب هنا أو هناك، وممارسة هذه الهواية أو تلك وما أكثرها... وكانت نفسي تتوق إلى الاستجابة، لكن هاجساً كان يشدني من الداخل إلى الالتزام بنظام الساعات الأربع أو الخمس من العمل اليومي المتواصل.

حتى المطالعة كنت أكافح ضد إغرائها، كي لا تسرق شيئاً من هذه الساعات، فإن موعدها في وقت آخر من اليوم، ولن أسمح لها أبداً أن تجيء على حساب الكتابة... بمرور الوقت تلبّس تكويني النفسي حالة لا أرجوها للآخرين... نوع من القلق الممض... من التشتت والتبعثر... من الإحساس بالملل أو اللاجدوى، عبر كل زمن مستقطع من وقت الكتابة... أكثر من هذا: إحساس مرير الطعم بالندم، بأنني أمارس تفريطاً بواجب ما، بمهمة هي أكثر ضرورة وإلحاحاً من أية ممارسة أخرى. كانت الحياة خارج دائرة الكتابة: قلقاً وبؤساً وتسطحاً وتشتتاً... أشياء وخبرات تفقد طعمها بالمرة... وكان الهاجس يدق في جملتي العصبية كناقوط الماء... أكتب وأكتب وأكتب، فإن ساعات الكتابة يجب ألّا تذهب أو تعطى لأي شيء آخر على الإطلاق... ويوماً بعد يوم، كان الإنجاز بالنسبة لي هو الداء والدواء... وكنت أغادر المكتب بعد ساعات العمل تلك وأنا أحس بسعادة غامرة يصعب

وصفها... بامتلاء نفسي عجيب... بإحساس مترع بالأمل والجدوى... وبتذوّق شهي لطعم الأشياء والخبرات... عندها فقط كانت أقل متعة... أبسط هواية... أتفه ممارسة... تسعدني وتملؤني بالغبطة.

بدون الكتابة ما كنت سعيداً على الإطلاق... ولكن هذه السعادة... هذا الإحساس الغامر بالفرح، ما كان يجيء إلّا بعد معاناة قد تبلغ أحياناً حدّ أن أرغب في الفرار بعيداً... اليوم الذي أتحرّر فيه من الأسر وأستعيد فيه نفسي، أو بعبارة أخرى، أعيد ترتيب حياتي بصيغة أخرى تماماً. قد تسألني: والنتيجة؟ ويجيء الجواب: إنني بمرور الأيام وجدت طريقي في الكلمة نفسها... التقيتُ بفكاكي من الأسر على المكتب نفسه... وبدون الإمساك بالقلم ومواصلة العمل، فإن الحياة قد لا تستحق أن تعاش!.



- في مقام الشعر والنقد، **ما رأي الدكتور خليل في الدراسة التي قام بها الأستاذ محمد حسن بريغش للمجموعة الشعرية (جداول الحب واليقين)؟** وما رأيك بمؤاخذته على وجه الخصوص؟

= باختصار إنه يرفض توظيف خبرات (الآخر) لإغناء خبراتنا الإسلامية... إنه يجد في الإسلامية نفسها خبرة مكتفية بذاتها... وكنت أختلف معه في هذا، فإن الأدب الإسلامي بالذات بأمسّ الحاجة لتلك الخبرات، وبخاصة في التقنيات الإبداعية... قد نرفض مضامينهم أو نتمنع عليها لسبب أو آخر، ولكن صيغ

الخطاب الإبداعي تفرض حضورها وثقلها بسبب نضجها وتفوّقها... إنها حصيلة تراكم في الخبرة الجمالية يمتد على قرون طويلة من الزمن، وهي في كل الأحوال فرصة جيّدة لتحسين أدواتنا... فهل بمقدورك أن تتصور قصصياً أو روائياً أو مسرحياً إسلامياً يبلغ حافة النجاح دون أن يكون قد أفاد من هذه الفرصة أو تعامل معها؟ دون أن يكون قد قرأ نصّاً روائياً أو مسرحياً غربياً؟.

بل إننا نستطيع أن نمضي خطوة أخرى باتجاه المضامين نفسها... فمن قال أن كل ما ينسجه الأدب الغربي كفر وضلال؟ من قال أنه لا ينطوي هنا أو هناك على (حكمة) ما... أو على الأقل خبرة ربما تقدّم في أقصى حالات سلبيتها إضاءة ـ بالمقابل ـ لقيم الحق والعدل والجمال؟ ألم يعلّمنا رسول الله (عليه أفضل الصلاة والسلام) أن الحكمة ضالة المؤمن وأنه أحق بها حيثما وجدها؟.

بتهوفن في واحدة من يومياته أو خواطره... يذكر كيف أنه وهو يتجول في الحقول والغابات، ويحاور السماوات البعيدة، ويتحدث مع خفقان النجوم، ويناجي نداء القمر... كان يجد نفسه قبالة وحدة الخلق... إزاء وحدانية الخالق جلّ في علاه... ولطالما أشار إلى أنه كان يستمد من القدرات الخلاقة لهذا التوحد المطلق نبضات موسيقاه الآتية من أعماق الكون... فهل ثمّة من جريرة إذا ما استوحى الشاعر أو الأديب المسلم هذا الموقف الجمالي المؤثر لموسيقار في القمة، فوجد في وقفته المتساوقة مع الحقيقة الإسلامية فرصة

للتوظيف الإبداعي؟ هذا ما فعلته في إحدى مقطوعات (جداول الحب واليقين)، فما هي مسوغات (المؤاخذة) ها هنا؟

❁ ❁ ❁

**ز - (إنهم لا يطرقون الأبواب) مجموعة قصصية للشاعر محمود مفلح، درسها ولم يدرسها الدكتور عماد في آن واحد فكيف يفسر لنا ذلك؟**

= سبق وأن نفذت تغطية نقدية لمجموعتين من قصص الأخ الشاعر (محمود مفلح): (القارب) و(المرفأ)، وقد نشرتا في كتاب (محاولات جديدة في النقد الإسلامي). فلما أصدر مجموعته الثالثة تلك وعرض عليَّ أن أكتب عنها وجدتها فرصة للانطلاق من العنوان نفسه ومعالجة واحدة من المعضلات التي يعاني منها الأدباء الإسلاميون؛ العزلة والقطيعة وعدم التواصل... حيث يعيش كل واحد منهم في جزيرة منعزلة أو دار مهجورة أقفلت على ساكنيها الأبواب ولا من يطرق عليها... وكنت أعتقد أن الكتابة عن مجموعته الثالثة قد يتضمن تكراراً لما قلته عن سابقتيها، فآثرت الهروب المشروع من التعامل النقدي معها. ومهما يكن من أمر فلطالما قلت في رسائلي للأخ مفلح أنه شاعر أصيل أكثر منه قصصياً، وأن الشعر هو ساحته الحقيقية. وها أنت ذا ترى دواوينه تترى وهو في كل إصدار جديد يحقق نقلة فنية نحو الأحسن... يتحرك بعبارة أخرى... وهذا هو أحد مطالب العمل الابداعي... وأرجو ألّا أكون متجنياً إن قلت أنه في مجموعته القصصية الأخيرة لم يضف جديداً، ويبدو أنه اقتنع أخيراً بأن

ينصرف للشعر، وهو يملك أدواته جيداً... إنه يعرف كيف يبني قصائده العمودية وذات التفعيلات المتغايرة على السواء.

❁ ❁ ❁

ـ مما لاحظت شخصياً أن الدكتور **عماد الدين خليل يطمس معالم خيط رفيع بين التنظير والنقد في بعض ممارساته النقدية** مثل مقدمة «ثلاثية الغيب والشهادة» للدكتور الشاعر حسن الأمراني، **بصفتكم ناقداً متمرساً كيف تفسرون هذه المشكلة؟**

= إنها الضرورات أو الأولويات أيها الأخ الكريم... إن الضرورة تمتلك نداءً من نوع ما... نداءً ملحّاً قد يدفعك من حيث تريد أو لا تريد، للاستجابة له والتصادي معه... أن تعتقد أن هذه مسؤوليتك، وأن تمارس جهدك الأدبي: نقداً أم تنظيراً وفق سلم للأولويات يتقدم فيها الأهم على المهم على الأقل أهمية... إننا لا زلنا بحاجة ـ بعد ـ إلى مزيد من التنظير، والتنظير يعني التأسيس. وحركتنا الأدبية ما لم تتحقق بتأسيسات غنية، متبلورة، واضحة، ومقنعة، فإن معمارها سيعلو متأرجحاً، قلقاً، مهزوزاً... قد ينفذ التنظير بعيداً عن التعامل المباشر مع النص الإبداعي، وقد يجيء موازياً أو تالياً له... ومن ثم فإن التعامل مع (ثلاثية الغيب والشهادة) للأخ الشاعر حسن الأمراني قد يمنح فرصة طيبة لبعض التأسيسات التنظيرية دون أن يطمس هذا على البعد النقدي للنص بطبيعة الحال.

❁ ❁ ❁

**ـ لاشك أن العمل النقدي لا يماشي ـ كما يجب ـ الإبداع في هذه المرحلة التأسيسية من عمر الأدب الإسلامي، ما هي مقترحاتكم بهذا الصدد؟**

= هذا حق، بل إنه يمثل واحدة من أبرز المآخذ التي يمكن أن توجَّه إلى حركة الأدب الإسلامي... النصوص المزدحمة وبخاصة في مجالي الشعر والقصة القصيرة، وغياب التغطية النقدية لهذه النصوص، تلك التغطية التي لا يكون المرء مبالغاً إذا استنتج أنها لا توازي خمسة إلى عشرة بالمائة... بينما المساحة الكبيرة المتبقية لا تزال تسبح في الفراغ، وليس ثمة من يسمعها أو يتحاور معها أو يضيئها أو يقول عنها شيئاً... إن النقد التطبيقي، بالنسبة للمبدع، هو الزاد اليومي... الوقود والضوء معاً... وبدونه لن يعرف الأديب مواقع قدميه ولن يحصل ـ في الوقت نفسه ـ على الزيت الذي يمكنه من مواصلة المسير... إننا جميعاً مقصرون، ونحن جميعاً نتحمل إثم هذا الوزر، ولطالما وصلتني رسائل من مبدعين يرهصون بمستقبل واعد، وكلّهم يشكو من غياب المتابعة أو الإضاءة النقدية...

تسألني عن المقترحات لتجاوز الأزمة، وهي ـ بحق ـ كثيرة متشعبة لا يسمح بها المجال، وقد يكون بعضها أماني وأحلاماً، يصعب تنفيذها على الأقل في اللحظات الراهنة. ولكن، ومهما يكن من أمر، أفلا ترى معي أن على المبدعين الإسلاميين أنفسهم، شعراء ومسرحيين وروائيين وقصّاصاً وكتّاب مقالات وأناشيد؛ أن

يبذلوا جهداً مزدوجاً في الوقت نفسه؟ أن يعطوا شيئاً من وقتهم للجهد النقدي، وأن يمارسوا جنباً إلى جنب مع أنشطتهم الإبداعية محاولات في التعامل النقدي مع نصوص الآخرين، للتحقق بقدر من التوازن بين النقد والإبداع، ولن يكون صعباً على المبدع أن يمارس النقد بعد إذ سبر بحكم خبرته الجمالية الكثير من قوانين ومعايير الجهد الإبداعي، والتي ستمكنه ولا ريب من إصدار أحكام، وصياغة استنتاجات أقرب إلى الصواب.

مرة أخرى، فإننا جميعاً مقصرون، وأن علينا أن ننفر لتجاوز الفجوة، فالتحدي لا يزال قائماً والوقت لم يفت بعد.



**ـ نلاحظ غياباً في اهتمام الفن الإسلامي بالكاريكاتير والرسم والنحت... لماذا؟**

= هذه حالة أخرى من حالات عدم التوازن في الفن الإسلامي المعاصر، فإن فن الأدب يكاد يغطي كمّاً على سائر الفنون الأخرى. وإذا كان الرسم والنحت التجسيديان محرمين ـ قطعاً ـ في المنظور الإسلامي، فإن أجدادنا عرفوا كيف يستجيبون للتحدي، وتحولوا إلى التجربة، فأبدعوا في عالم الخط والزخرفة والمعمار حشوداً من الروائع، التي عكست بدرجة أو بأخرى رؤية جمالية جديدة للكون والعالم، هي الرؤية الإسلامية التي أسرت عدداً كبيراً من الآثاريين والفنانين والمفكرين في عالم الغرب وهم يجدون أنفسهم إزاء فنون معمارية متميزة

الشخصية، أصيلة القسمات، تعرف كيف تقول بلغة الحجارة ما يريد أن يقوله هذا الدين المتفرد... لقد عالجت هذه المسألة بقدر من التفصيل في كتابي الصغير الذي صدر أخيراً عن مؤسسة الرسالة في بيروت بعنوان: **(الفن والعقيدة)** فلا أريد أن أكرر ما قلته هناك، ولكنني ـ مرةً أخرى ـ معك في أن هناك غياباً لهذه الفنون في حركتنا المعاصرة بما في ذلك ـ بطبيعة الحال ـ الكاريكاتير كواحد من أكثر صيغ التعبير الفني بالخطوط قدرة على الإثارة والتأثير... إنه فرصة جيدة للفنان المسلم، فلماذا هذا التفريط بها؟

❁ ❁ ❁

**ـ أزمة المسرح، لا شك أن هناك أزمة، هل ترجع في نظركم إلى الكتاب المسرحيين أم المخرجين أم النقاد أم مزاحمة الفيديو والسينما والتلفاز؟**

= إنها ترجع إلى هذه العوامل جميعاً... لقد وضعتَ يدكَ على أطراف المعضلة كافة. ولكن ربما يخطر على البال أن العرض المسرحي الذي يستكمل أسبابه الفنية قد ينهض قائماً قبالة تحديات الفيديو والسينما والتلفاز، وأن جمهور المسرح لا يزال يشكل ثقلاً وحضوراً في حياتنا المعاصرة. إنني أذكر جيداً ما لمسته في الصيف الماضي في عمّان حيث قدرت مجموعة من الفنانين الإسلاميين الفلسطينيين أن تقدم ثلاثة عروض أو أربعة تهيأ لها الكاتب الجيد، والمخرج المتمرس والممثل القدير... فماذا

كانت النتيجة؟ مئات، بل آلاف من الأردنيين كانوا يتزاحمون لمشاهدة هذه المسرحيات ولقد أغرى هذا المجموعةَ نفسَها لتقديم المزيد، وهم يجدون كيف أن الفِرَق الأخرى ـ خارج الإسلامية ـ رغم قدراتها الحرفية وإعلامها القوي؛ لم تجذب سوى نفر من المشاهدين!

لا تنس أيضاً أن الأديب المسلم وهو يكتب عملاً مسرحياً، مطمئناً ـ ابتداء ـ إلى أنه سينفّذ على خشبة المسرح، قبالة مئات المشاهدين وألوفهم، هو غيره عندما يكتب لتكون مسرحيته سجينة الغلاف. إنه في الحالة الأولى سيزداد تفوقاً وتألقاً... وقدرة في الوقت نفسه على استكمال سائر المطالب والأدوات الفنية الضرورية لنصِّه المكتوب.

❁ ❁ ❁

**ـ لمجلة «المشكاة» تعثرات مالية... ما رأيكم في طروحاتها وماذا تقترحون لها؟**

= أن تبذل المستحيل من أجل الانتظام في الصدور، فذلك هو أحد أسباب نجاحها وقدرتها على الحضور المؤثر في قلب الساحة الأدبية. أما مشاكلها المالية، فتلك هي ثالثتها ورابعتها وخامستها... وقد تتجاوزها المجلة بأن تطلب استكتاباً مالياً أو دعماً من مؤسسة ثقافية إسلامية مستقلة بطبيعة الحال. وأما عن طروحاتها ومباشرتها للأحداث، فإنها والحق يقال شكّلت ولا تزال بادرة جيدة في مجال الإعلام الأدبي الإسلامي. فمن كان يحلم

قبل عقد واحد بأن مجلة متخصصة كالمشكاة، معنية بالأدب الإسلامي، ستصدر في المغرب الشقيق؟. إنها ولا ريب همّة الأخوة المغاربة من أدباء الإسلامية هناك، وطموحهم الذي لا يقف عند حدّ، وقدرتهم على تنفيذ مطالب هذا الطموح رغم العقبات وربما الاستحالات المقفلة.

وها هي ذي المشكاة، تتجاوز العقد من عمرها، مصرّة، رغم المصاعب، على المضيّ في الشوط، محاولة التحقق بقدر طيب من التغطية لهموم ومطالب حركة الأدب الإسلامي على مستوى الدراسة، والنقد، والتنظير، والإبداع، والإعلام الأدبي. ثم إنها استطاعت أن تمتد جغرافياً وأن تحظى صفحاتها بكتّاب من أكثر من قطر عربي أو بلد إسلامي. ومن يدري؟ فإنها لو أمدّ الله ﷻ القائمين عليها بالمزيد من مجابهة التحديات... ربما تكون المجلة الأمّ التي يأوي إليها ويفيء عندها أدباء الإسلامية في كل مكان.

ومرةً أخرى، فإن الدعم المادي، والانتظام في الصدور، يعدّان ولا ريب من العوامل الأساسية في القدرة على الاستمرار والعطاء... وقد ينضاف إليهما ضرورات التوزيع الجيد والسريع، والتحسين المتواصل في الإخراج، بما في ذلك تغيير تصاميم الأغلفة بين سنة وأخرى. ومع هذا وذاك: التحقق بقدر كافٍ من التوازن في معطيات كل عدد بين الإبداع، والتنظير، والنقد، والدراسة، والريبورتاج، والخبر... إلى آخره. وبصدد الإبداع، فإن المرء يلحظ طغياناً للشعر على الأنواع الأخرى ربما بسبب شحّتها

وربما بسبب سخاء الساحة المغربية بالشعر الإسلامي الجيد، لكن هذا لا يبرر عدم التوازن الذي يُلحظ في بعض الأعداد، ولا بدّ من تداركه.

❁ ❁ ❁

**ـ ختاماً... ما نصيحتكم لحاملي الأقلام من علماء وأدباء الإسلام؟**

= القراءة والقراءة والقراءة حتى اللحظة الأخيرة... تلك هي الصيحة التي يجب أن نرفعها قبالة أنفسنا وإزاء كل حملة الأقلام من علماء وأدباء الإسلام... إنها الكلمة الأولى... كلمة البدء التي تنزّل بها كتاب الله... والفعل الذي يتحتم أن يكون الخبز اليومي للمثقف المسلم... طعامه وشرابه...

قد يبدو هذا أمراً اعتيادياً يوم كانت القراءة في العقود الماضية تقليداً سائداً في الحياة الثقافية. لكن الأمر يختلف في العقود الثلاثة الأخيرة... لقد غزتنا وسائل الترفيه السهلة، وحاصرتنا الهموم والمطالب المعيشية والوظيفية من كل مكان، وأخذ الزمن يضيّق علينا الخناق... الكل يركضون وراء همومهم حتى اللهاث، وما تبقى من وقت يستلقون فيه على جنوبهم نائمين، أو باحثين عن الثقافة الضحلة السهلة الميسورة التي تنسجم وإعياءهم المقيم ولا تكلّف جهداً عقلياً... قراءة الصحف والمجلات ودوريات تزجية الفراغ... إنني أعرف جيداً المثقفين الإسلاميين، وغير الإسلاميين بطبيعة الحال، بل أعرف العديد من

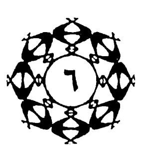
الكتّاب أنفسهم لا يكادون عبر الزمن الأخير يقرؤون شيئاً ذا قيمة... فماذا تتوقع أن تكون النتيجة؟ وكيف تكون النصيحة بالقراءة شيئاً مستهلكاً؟

إن الأمر جدّ، إذا استعملنا عبارة الكاتب الفرنسي يونسكو، وقبالته يجب أن نفعل شيئاً، وإلّا استهلكَنا الوقت وفقدنا القدرة شيئاً فشيئاً على أن نقدم للحركة الثقافية شيئاً ذا قيمة...

فإذا تذكرنا أن زمننا هذا، هو في الوقت نفسه، زمن الانفجار المعرفي وسيول المؤلفات التي تطلع على الناس في كل يوم، وأنه ـ كذلك ـ زمن التواصل الثقافي السريع، حيث ينتقل الكتاب من بلد إلى بلد بسرعة الكهرباء، وحيث يترجم عن لغاته الأصلية أسبوعاً بأسبوع ويوماً بيوم... إذا تذكرنا هذا عرفنا أن الأمر جدّ فعلاً، وأنه التحدي الذي تنوء به العصبة أولو القوة... ولكن لا بدّ مما ليس منه بدّ... لا بدّ أن نقرأ ونقرأ ونقرأ ما وسعنا الجهد وحتى آخر حدود الاحتمال وإلّا ضعنا...

تلك هي «النصيحة» إذا جازت التسميات... أو قُل «الرجاء» الذي يحدق به الخوف من التضحُّل والضياع...

القراءة... القراءة... القراءة... من أجل إعادة ترتيب ما كان... ومحاولة السيطرة على ما هو كائن... والاستعداد لما سيكون...



**أجرى الحوار في فاس والرباط الأخ الشاعر المصطفى أبو ياسر (تشرين الأول ١٩٩٣م)، ونشر في الملحق الثقافي لجريدة (الراية المغربية) العدد ١٢ السنة الأولى (تشرين الثاني ١٩٩٣م).**

ـ ابتداء نرحب بالدكتور عماد الدين خليل في المغرب، وبخاصة في فاس، المدينة الشاهدة على حياة تخللت كيان الأمة المسلمة لفترة، ومنحته من معاني النماء والقوة ما لن ينساه التاريخ. وأرغب في إثارة سؤال حول محور الندوة التي شاركتم فيها عن المستقبل الثقافي للعالم الإسلامي في واقع متغير. إذا فككنا هذا العنوان: **ما مفهوم المستقبل؟ وما الثقافة؟ ولماذا مستقبل الثقافة وليس مستقبل الإسلام مثلاً؟**

= شكراً جزيلاً أيها الأخ العزيز على هذه الفرصة الطيبة. وأنا في قلبي للأخوة المغاربة مكان عميق، على بعد المسافة ونأي الديار... لقد كانت الندوة التي أشرتَ إليها نوعية، بمعنى أنها مرتبطة بالجانب الثقافي فقط، وبالمتغيرات المحتملة على صعيده، ولم تعنَ بالجوانب الأخرى السياسية والاقتصادية... لا ريب أن

الثقافة هي عصارة الجانب الفكري والروحي والوجداني من الحضارة، فإذا كانت المدنية تعبيراً عن الواقع المادي والتقني، فإن الثقافة تمثل الإطار الرؤيوي للحياة والكون والإنسان، فالذي يميز حضارة عن أخرى ليس إنجازها التقني، أو المدني عموماً، وإنما هو في الدرجة الأولى التصورات والرؤى والأنساق الكونية التي تمثلها الثقافة. ولذا كان الصراع الحضاري الراهن، إذا أردنا أن نسبر غوره تدافعاً ثقافياً.

أما مفردة «المستقبل»، فهي غير محددة المعالم، ولا واضحة الدلالة، لكونها تنطوي على معانٍ عديدة داخل سيرورة الزمن، فقد تعني الوقت الراهن الذي يطل على نهاية القرن العشرين، وقد تعني الاتجاه قدماً إلى النصف الأول من القرن الحادي والعشرين... وعلى أية حال فإن التاريخ لا يقاس بالساعات ولا بالأيام والسنين، فمتغيراته تمضي لكي تتشكل على مدى مساحات زمنية واسعة نسبياً.

❁ ❁ ❁

**ـ تبدو الدعوة إلى الأصالة والمعاصرة، إلى التراث والحداثة والتوسط بينهما دعوة منطقية. ولكن التراث في ذاته ليس منسجماً، وكذلك الحداثة، فإذا كان الجواب أن تنقية التراث وانتخاله هو الحل، أليس ثمة تخوّف من إعادة إحياء ثقافة الأزمة؟ أقصد الثقافة الكلامية من حيث تحكم خلفيتها في عملية الانتخال والتصفية؟**

= التراث معطى بشري ينطوي على الصواب والخطأ، فيه ما هو

إبداعي وما هو اجتراري... إنه خزان الحضارة... ما نكتبه من شعر وأدب ونكتشفه من حقائق ونصوغه من فلسفات ونتخلق به من طبائع ونتشكل به من عادات وتقاليد وأذواق... هذا كلّه يصبّ في ساحة التراث، وقد يكون في العديد من مفرداته وليد بيئة ما أو زمن محدد، وبالتالي فإنه لا يحمل صفة الإلزام... ونحن لسنا ملزمين بحمله على كاهلنا والمضي به عبر الحاضر إلى المستقبل...

ما هكذا أراد لنا الله ورسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام)، والتراث لا يحمل طابع القدسية على أية حال... وفي آيتين كريمتين يحررّنا كتاب الله من أعمال الأجيال الماضية: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١]. وهو يدين الكفار لتشبثهم الأعمى بتقاليد الآباء والأجداد: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]... وعليه فنحن نستطيع أن نتعامل مع التراث بكل حرية: نقبل، نرفض، نفكك، ننتقي، نعيد التركيب... في ضوء ما تقود إليه هذه العملية من بناء لأنفسنا وتأكيد لوجودنا كأمة متميزة... ومدار الأمر أن نكون مخلصين لله ورسوله ﷺ الذي منحنا معياراً إنسانياً مرناً في التعامل مع مفردات سلوكنا اليومي والمعرفي بحديثه الشريف: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى».

فاذا أردنا أن نتحرك، أو أن نمارس فعلاً حضارياً، وتوفرت النية المخلصة في دائرة الضوابط الشرعية، فذلك هو الضمان، بخلاف أولئك الذين يتعاملون مع تراثنا من خارج دائرة الإسلامية

من الملاحدة والعلمانيين والمتغربين، الذين يدسّون رؤوسهم في المعطيات التراثية برؤية انتقائية مسبقة لا يحكمها ضابط أو معيار، ويسوقها الظن والهوى، فتكون النتيجة عبثاً بمقدّرات هذا التراث وتزييفاً لخصائصه.

فنحن بقدر ما نرفض التعبّد للتراث والتقديس لمفرداته، نرفض في الوقت نفسه العبث بمقدّراته، والتعامل معه بمعايير يؤتى بها من خارج الدائرة الإسلامية، فيما لا يجعلها تصلح ابتداءً للتحقق بنتائج مقبولة.

إننا أحرار في تعاملنا مع التراث، شرط أن نكون مخلصين لخصوصياتنا وثوابتنا وتاريخنا وعقيدتنا، وأن يتجاوز هذا التعامل أهدافه المتحفية الساكنة أو حتى الأكاديمية البحتة، وأن يعين ـ بدلاً من ذلك ـ على تحريك حياتنا الراهنة وإعادة تركيبها في ضوء الخبرة التاريخية، من أجل أن تتجاوز حالة التفكك وانعدام الوزن وضياعَ الشخصية.

وحينذاك لن يكون ما تسميه بالثقافة الكلامية حكماً في الموضوع... إنها مجرد حلقة في نسيج تراثنا، كانت يومها قد أدت دورها كآلية فاعلة في معارك الجدل العقدي والفكري... أما الآن، وفي ضوء الآليات الأكثر فاعلية وجدوى، وبخاصة «العلم الصرف»، فإن الاستغناء عنها أمر ميسور وضروري في الوقت نفسه.

❁ ❁ ❁

**ـ بعضهم يقول: نحن نريد الحداثة والغرب يريد لنا التحديث. هل هناك فرق ـ فعلاً ـ بين الاصطلاحين؟**

= ينبغي أن نرجع إلى القاموس ونستشيره فيما إذا كان هناك فارق بينهما، فلربما ينطويان على المدلول اللغوي نفسه. أما على المستوى الاصطلاحي، فإن الحداثة غزت المجالات الفكرية والأدبية في ديارنا وبخاصة في العقدين الأخيرين، بكل ما تتضمنه من خلفيات مذهبية ورؤيوية، ليس فقط في التعامل مع النص الإبداعي، وإنما مع الواقع والفكر بكل تفاصيلهما.

إن كتاب الله يأمرنا أن نطور حياتنا ونحدِّثها وهو القائل: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] ورسول الله ﷺ يقول في حديثه الشريف: «من تساوى يوماه فهو مغبون» و«إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر»... إن هذه المعطيات، وغيرها كثير لا يتسع المجال للتحدث عنها، ويكفي أن نتذكر مبدأي الاستخلاف والتسخير القرآنيين، إنهما يدعوان المسلم إلى الحركة المتواصلة لجعل الحياة الإسلامية الجادة مشروعاً مفتوحاً، ينتقل بالإنسان والجماعة المسلمة من حالة إلى حالة أعلى، ومن وضع إلى وضع أرقى، في تدرّج متواصل صاعد إلى الأمام وإلى أعلى، من أجل أن يتحقق الوفاق بين الإنسان والعالم.

ألا تتذكر معي ـ ونحن نتحدث عن الحداثة والتحديث ـ ذلك المدرج الإسلامي المعروف الذي يجعل المشروع ينطلق من

الإسلام، ثم يجتاز محطتَي الإيمان والتقوى، في طريقه إلى الإحسان الذي هو قمة الإبداع البشري وبؤرة التجديد الدائم، وهو يعني فيما يعنيه إضافة الخبرات الجديدة إلى الخبرات السابقة، عبر مسيرة الحركة الإسلامية التي تنشد الأحسن والأفضل. ولا أظن أحداً من المسلمين ـ إلّا أن يكون قد حُجر على عقله ـ يرفض هذه الحركية المتجددة ويعارض التحديث المتواصل في ضوء الثوابت والمعايير العقدية وعلى هدي مقاصد الشريعة الغراء.

إننا كمسلمين ـ إذا أردتَ الحقَّ ـ يجب أن نكون من أكثر شعوب العالم إدراكاً لقوانين الحركة التاريخية... أي للسنن والنواميس... وتوظيفاً لمعطياتها إذا أردنا أن نكون منسجمين مع العقيدة والتاريخ والعالم والطبيعة، وليس في حالة اصطراع معها... وحينذاك سنعرف كيف نجتاز حالة السكون التي لازمتنا القرون الطوال... ونعبر الخندق الذي يفصلنا عن العالم، ونكون أكثر صدقاً مع أنفسنا... وقبل هذا وذاك... مع الله ورسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام).

❁ ❁ ❁

ـ **للغرب حضور في مخيلاتنا وأذهاننا**، يوجه طريقة تعاملنا مع الأحداث والأشياء، وهو حضور له مبرراته التاريخية والحضارية، **ولهذا طرحت عدة حلول للتعامل معه: المواجهة والمحاورة والمفاصلة. أي الحلول يقترحها الدكتور عماد الدين خليل؟**

= ليست المسألة اقتراحاً شخصياً، ولكنها ضرورة من

الضرورات. فالذين تعاملوا مع الحضارة الغربية الغالبة سقطوا ـ إلّا من رحم ربك ـ في إحدى اثنتين: العزلة الكاملة، أو الذوبان والفناء في الآخر. لكن الخط الأعرض من المفكرين الإسلاميين اتخذوا موقفاً وسطاً: الحفاظ على الثوابت والمقومات، مع الانفتاح على الآخر وتقبُّل ما ينسجم وهذه الثوابت والمقومات، أو لا يرتطم معها، من مثل المعطيات المدنية للحضارة الغربية وبعض الكشوف في حقول المعرفة الإنسانية، فضلاً عن العلوم الصرفة. والمسألة بعد هذا وذاك بحاجة إلى جهد مؤسسي وعمل جماعي لوضع الأطر الأساسية وخرائط العمل، للتحقق بنتائج أكثر فاعلية عبر تعاملنا مع الآخرين.

❁ ❁ ❁

ـ إذا انتقلنا إلى مجال اختصاصكم في التاريخ، وغير بعيد عما أثرنا سابقاً، **هل يسير التاريخ إلى نهايته فعلاً؟!.**

= ها هنا أيضاً نجد أنفسنا قبالة المدلول اللغوي والاصطلاحي لعبارة نهاية التاريخ... فعلى المستوى الأول تعني في المنظور الديني عموماً نهاية الحياة الدنيا والتهيؤ ليوم الحساب، وهذا من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله... فالساعة التي هي نهاية التاريخ بهذا المفهوم: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ﷻ كما يشير القرآن الكريم في أكثر من مكان. وكل محاولة للتكهن بالوقائع المستقبلية ليست إلّا ضرباً من الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً. وإن كان التغير التاريخي والتبدل الاجتماعي مبنيين على معطيات

محددة، ترتبط بالفرد والجماعة، وتسمح بقدر من التعليل العلمي للحركة التاريخية ومصائرها. هذا إلى أن الرسول ﷺ قدّم في أحاديثه شبكة من العلامات التي ترتبط زمنياً بنهاية التاريخ فيما يعرف بأشراط الساعة والملاحم والفتن، والتي تعين الإنسان في مرحلة تاريخية قادمة على ترتيب توقعاته بخصوص هذه النهاية...

أما على المستوى الاصطلاحي، فإن الجواب يقودنا إلى نظرية فرنسيس فوكوياما حول (نهاية التاريخ)، التي تتزامن ـ لسبب أو آخر ـ مع المتغيرات السياسية والأيديولوجية في أعقاب انهيار الاتحاد السوفياتي وتفرُّد الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة العالم وفق مبدأ القطبية الأحادية فيما يعرف بالنظام العالمي الجديد... ولعلها تتزامن كذلك مع سياسات التطبيع، التي يراد منها تدمير الحاجز النفسي والثقافي والعقدي بيننا وبين إسرائيل، تحت مظلة عالم موحد تنسلخ فيه كل أمة عن تاريخها، وتنتمي لمقولات التنمية الاقتصادية والرفاهية المادية ومنطق التكاثر بالأشياء وارتفاع معدلات النمو... وهي حالة أو معادلة مكتوب علينا فيها نحن العرب والمسلمين أن نخرج منهزمين، وأن نسلِّمَ مصائرنا لأمريكا والصهيونية تصوغها كما تشاء...

إن انسلاخنا عن تاريخنا بحجة «نهاية التاريخ» سينطوي بالضرورة على تخلينا عن مقوماتنا، بما فيها خصائصنا العقدية، والانخراط في نظام استلابي يأخذ بأعنّته ويحصد زرعه وضرعه الأمريكان واليهود...

وعلى ذلك يصعب التسليم بمقولات فوكوياما حول نهاية التاريخ، لأنها تنطوي على الكثير من الخطأ على المستويين الذاتي والموضوعي... والخطأ كما يقول السياسي الفرنسي تاليران أكبر من الجريمة أحياناً... وسنكون مجرمين بحق أنفسنا إن سلّمنا بمعطيات كهذه...

من جهة أخرى، فإن مما هو معروف لدى دارسي التاريخ والحضارات استحالة خضوع التاريخ لنمطية واحدة... فليس ثمة ثبات أو سكون تاريخي على الإطلاق، وقد ثبت بطلانه يوم حاولت النبوءات الماركسية أن تقود التاريخ إلى نهايته تحت مظلة حكم البروليتاريا... والقرآن الكريم بواقعيته المعجزة يرفض هذا «التأحيد» ويقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩] .﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فالاختلاف والتغاير سنة من سنن الله في التاريخ، وهو في الوقت نفسه ضرورة من ضرورات تحريك الحياة... فنهاية التاريخ بهذه الصورة النمطية السكونية، ووضع البشرية كلها في خانة واحدة، أمر لا ينسجم مع مطالب العلم ولا مقاصد الدين.

❁ ❁ ❁

**ـ أليست هذه النظرية نوعاً من المركزية الحضارية؟**

= نعم وهي بشكل من الأشكال انسحاب للمركزية الغربية من أوربا إلى العالم الجديد...

❁ ❁ ❁

**ـ يرى الجابري أن للعقل العربي محدّدات هي العقيدة والغنيمة والقبيلة؛ شكلت مفاهيمه السلوكية والعملية. ورأى أنها هي نفسها من أسباب السقوط العربي: غياب التصور العقدي والاهتمام بالمصالح المادية والشتات القطري المعاصر... كيف يقيم الدكتور عماد الدين هذا التحليل؟**

= هذه التنظيرات وما يدور في فلكها من وضع الخلفيات الفلسفية للأمور الواضحة في الحياة والتاريخ، محاولة لتحويل الشيء من وضوحه إلى حالة من الغموض يصعب فهمها على الآخرين... والوقائع التاريخية ـ إذا أردنا الحق ـ تستعصي على القياس... تتأبى على المسطرة والبركال... ولقد مارسها الكثيرون من قبل فأخفقوا، لأن منظوماتهم المهندسة بإتقان اختُرقت من أكثر من مكان... وليست تنظيرات الماركسية عنا ببعيدة... إننا نتذكر هنا عبارة لألكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل في طرائق عمل الدماغ البشري، يشير فيها إلى عشق العقل البشري هندسة الظواهر والأشياء وترتيبها في أنساق محددة، حتى ولو كانت ظواهر حيوية يصعب إخضاعها للنظام بخلاف الظاهرات الفيزيائية مثلاً...

الحديث في هذه المسألة يطول ولكن دعني أقول لك شيئاً... لقد درّستُ تاريخ أوربا في العصور الوسطى لمدة سنتين في جامعة الموصل ووجدت أن العقيدة والغنيمة والقبيلة هي المؤشرات الأساسية في تاريخها. ولو رجعنا إلى ما قبل هذا التاريخ، أو إلى

تاريخ أية أمة من الأمم، فإننا سنجد هذا المثلث ـ إلى جانب مؤشرات أخرى ـ يلعب دوره المؤكد في الصيرورة التاريخية لتلك الأمة... هذا هو قدر التاريخ البشري... إذا حاولنا أن نقصر الظاهرة على أمة بالذات وقعنا في الخطأ... بل إنه حتى التاريخ الحديث والمعاصر يشهد على فاعلية هذه العوامل الثلاثة: أليس الاستعمار والبحث عن مناطق النفوذ في العالم محاولات غنائمية؟ أليس التمييز العنصري في أمريكا مزاجاً قبلياً بشكل من الأشكال؟ أليس الصراع بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثودوكسية صراعاً عقدياً؟ والاستعمار نفسه ألا يمكن أن نضيف إلى بعده الغنائمي بُعداً عقدياً (صليبياً) وبُعداً قبلياً يتحرك تحت غطاء تفوق الرجل الأبيض؟ ألا تجد معي أيضاً أن التجربتين النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا تنطويان على العقيدة والغنيمة والقبيلة؟ إذن ما الذي تسمي الصليب المعقوف والممارسات الإيطالية الصليبية في إيطاليا، والبحث عن المجال الحيوي في وسط أوربا، ودعوى الآرية والرومانية في التجربتين؟ أليس هذا كله يمكن أن يندرج في خانة المثلث الذي يُسقطه الجابري على تاريخنا... حيث تصير العقيدة والغنيمة والقبيلة الدافع والهدف... إنني أتذكر أيضاً مقولة للأديب المجري الشيوعي المرتد: آرثر كوستلر وهو يتحدث عن تناقضات الماركسية وادعاءاتها وتنظيراتها: من أن أي مبدأ إذا فسر شيئاً محدداً وكان جاهزاً

في الوقت نفسه لتفسير كل شيء... فقدَ تميُّزه ومعناه؟ بل إنه قد يفسر الحالة ونقيضها في وقت واحد!.

❁ ❁ ❁

ـ أتذكر أن للدكتور عماد كلاماً عن الإبداع داخل الكتابة التاريخية، **فما هي إذن حدود الذات والمزاج الإبداعي في التعامل مع الكتابة التاريخية؟**

= الثنائية بين الذات والموضوع في التعامل مع الواقعة التاريخية مسألة قيل فيها الكثير. ولكن يبقى البحث في التاريخ ومحاولة مقاربته يختلف أساساً عن المعطى الجمالي... في التاريخ يتحتم على الإنسان الانسلاخ عن ذاته، والتعامل بتجرد مع مفردات الحدث التاريخي. أما الهامش الذي يمكن أن يعطى للبعد الإبداعي في الكتابة التاريخية، فيجب ألّا يكون على حساب الموضوعية، التي هي شرط منهجي والتزام أخلاقي ليسا موضع نقاش... وإنما المطلوب أن يكون الأسلوب الذي تعرض من خلاله شبكة الوقائع التاريخية على قدر من «الجماليات» يتيح لها أن تصل الآخرين بتأثير أكبر وإقناع أشد، خاصةً إذا تذكرنا أن معظم خريجي الأكاديمية في مجال التاريخ من حملة الليسانس والماجستير والدكتوراه لا يكادون يعرفون كيف يكون التعبير عن الظاهرة التاريخية، ولا يملكون لغةً ولا أسلوباً... إنهم يعرضون أعمالهم وفق خطاب تتكسّر فيه الحروف والكلمات والتعابير...

وهذا هو الذي يدفع المرء إلى التأكيد على المنحى الجمالي

في النشاط التاريخي كأداة للتواصل والخطاب... أداة تتضمن إشباعاً جمالياً مؤثراً. إنما أن تدخل الذات بأحاسيسها وقناعاتها الخاصة... بتذوقها الخاص للأشياء وميولها وتطلعاتها في نسيج الحدث التاريخي... فإن هذا سيؤثر على موضوعية البحث ويجنح به عن سويته...

❁ ❁ ❁

**ـ ونحن نتحدث عن الإبداع، وأنتم من رواد الأدب الإسلامي، إبداعاً ونقداً، ما رأيكم في إنجازات الإبداع الإسلامي المعاصر؟**

= الحمد لله، فإن الذي أُنتج عبر العقدين الأخيرين على وجه التحديد تقرُّ له العين. وهو يقدم القناعة بأن الإبداع الإسلامي يمتلك حضوراً وانتشاراً من خلال عطائه الذي يزداد كمّاً ونوعاً... لكن ما يعوز الأدباء الإسلاميين إنما هو توسيع مساحة النقد التطبيقي في أعمالهم، لكي يكون قادراً على ملاحقة نهر الإبداع المتدفق... فكثيرون هم المبدعون من الشعراء والقصاص الإسلاميين... وهم ينتظرون من يدلّهم على الطريق، ويمسّ أعمالهم بلمسات نقدية قد تعدّل الوقفة وتعطي الحالة الأفضل... فعلى مراحل متباعدة يلحظ المرء كتاباً أو مقالاً أو محاولة في النقد التطبيقي لا تكاد تُرى على الخارطة الأدبية الإسلامية التي يطغى عليها الإبداع... وربما التنظير.

والنقد التطبيقي هو عصب الحركة الأدبية إذا أردت الحقيقة... هو الذي يفجر القدرة على التحسين المستمر... هو

الذي يأخذ بيد الأدباء الجدد... وهو الذي ينصت بأذن مرهفة حساسة للأصوات الجديدة، فيدلها على الطريق، ويعينها على تحقيق حضور ثقافي في ساحات الإبداع... إن كثيراً من الأصوات اختنقت وانسحبت من الساحة، لأنها لم تجد من النقد استجابة تمكّنها من مواصلة العمل والمضيّ في الطريق...



**ـ وماذا عن المنهج؟**

= إذا تذكرنا أن المعمار الأدبي ينطوي على أدوار مختلفة، هي الإبداع الذي يشكل بنسقه الشامل مذهباً في الأدب والنقد الذي يلاحق النص الأدبي، ودراسة التاريخ الأدبي التي تلاحق عصراً بكامله أو ظاهرة أدبية، والتنظير الذي يضمّ هذا كله... وجدنا أن الإسلامية الأدبية تحاول أن تقدم أجوبتها في هذه الأدوار أو السياقات الخمسة بشكل قد يتضخم وقد ينكمش. إنما في المنهج وهو أحد الأدوار الأساسية، لا نكاد نعثر على جهد محدد الملامح يمكن تسميته بالمنهج الإسلامي في الدراسة الأدبية. فهناك مناهج عديدة نفسية واجتماعية وبنيوية وجغرافية وزمنية... الخ. ولكننا لا نجد منهجياً إسلامياً. والمسألة ليست تقحُّماً لوضع العناوين الإسلامية على النشاط الأدبي، ولكن لأن الإسلام بتكوينه الخاص ينطوي على قدرة فعالة لتقديم منهج للعمل في دراسة الأدب يستمد مقوماته من الرؤية الإيمانية لهذا الدين.

واعتقد أنك تتفق معي في أن المنهج لا يصاغ في سنة أو

سنتين، ذلك أنه يعكس معطيات تتراكم مع مر الزمن لتمنحه القدرة على التشكل. ويمكن أن نؤشر هنا على الشمولية كواحدة من خصائص هذا المنهج، والتي ترفض الرؤية الأحادية في التعامل مع النص، أو الظاهرة الجمالية عموماً. وهذه الشمولية ليست تقحُّماً وادّعاء، إنما هي من أساسيات بنية الفكر الإسلامي، الذي يتعامل مع ظواهر الأشياء والحياة من منظور شمولي، يضع في اعتباره كل مكونات الظاهرة الروحية والبيئية والنفسية والاجتماعية والزمنية و... و...

وبالتالي فإن هذا التكوين الشمولي للفكر الإسلامي سينعكس بالتأكيد على المنهج المعتمد في الدراسة الأدبية، والذي سيتميز عن غيره من المناهج، التي حصرت نفسها في زوايا ضيقة، وانزلقت باتجاه المنظور التأحيدي، فاعتمدت الجانب النفسي الصرف حيناً، والاجتماعي، أو البيئي، أو الزمني حيناً آخر... إن لحظة التوهج تبدأ في أعماق الفرد، وتتمركز في وجدانه وروحه، وتمضي قدماً لكي تتلقى من خزينه العقلي حيناً، ولكي تتأثر بالبيئة المحيطة حيناً آخر، متجاوزة كل هذا باتجاه الأفق الكوني، الذي يحسب له المنظور الإسلامي ألف حساب.

لأضرب لك مثلاً، إن المناهج التي تعاملت مع الأدب اليوناني لم تحاول أن تدينه من حيث بنيته الميثولوجية. أما المنهج الإسلامي، فإنه يضع يديه ـ ابتداء ـ على الشرخ الذي يعاني منه هذا الأدب، فيضعه موضعه الحق باعتباره نقيضاً لرؤية الإسلام

التوحيدية... وهكذا تتشكل المجالات التي يمكن أن تعكس الفاعلية المتميزة للمنهج الإسلامي.

إننا نتذكر هنا ما قدمه ـ يوماً ـ الباحث الإنكليزي ريتشاردز في (مبادئ النقد الأدبي)، وهي أنه ليس بالضرورة أن يعتمد الناقد أو الدارس منهجاً محدداً للتعامل مع الظاهرة الأدبية، وأن بمقدوره أن يتلقى جوانب إيجابية من هذا المنهج أو ذاك، لصياغة أداة عمل أكثر قدرة على التعامل مع الأدب، من حيث كونه معطى إنسانياً يتجاوز البؤر الضيقة.

❁ ❁ ❁

**ـ أنتم تدعون إذن إلى المنهج التكاملي؟**

= نعم... ولكن ليس بصيغة تجميع ميكانيكي، وإنما انبثاق عن طبيعة المنظور الإسلامي للكون والحياة والوجود.

❁ ❁ ❁

**ـ بخصوص تضخم الكمّ الشعري، ألا يمكن أن نرجعه إلى أن الحركة الإسلامية لا تزال في مرحلة الخطابة والإقناع، والقصيدة هي الأقدر على تصوير هذا الإحساس. أما الرواية فإنها تقدم شبكة من العلاقات الاجتماعية لم ترقَ الحركة الإسلامية وأدباؤها إلى استيعاب شكلها وطبيعتها؟**

= لا ريب أن القصيدة تحمل في كثير من الأحيان خطاباً مباشراً يستمد حيثياته من واقعة ما تضغط على الجملة العصبية للشاعر، فتجعله يسرع محاولاً إيصال صوته إلى الطرف الآخر،

والقصيدة هي أكثر الأنواع الأدبية قدرة على نقل الخطاب المؤثر. ولكن علينا ألّا نقف عند هذا الحد وأن ننظر باتجاه أفق أكثر اتساعاً، غير متأثر بردود فعل آنية تجاه الوقائع والأحداث في محاولة استشرافية، أكثر رحابة، للعالم والحياة والإنسان والمجتمع، وهذا الفضاء الكبير الذي لم تبلغه المذاهب الأخرى ينطوي على إثارة وتحفيز من نوع ما يدفع الأديب المسلم إلى أن يستدعي الأنواع الأدبية الأخرى خاصةً الرواية، التي تعطي للرؤية الإبداعية عمقاً إنسانياً وكونياً...

الرواية ضرورة من الضرورات، والمجتمع الإسلامي إن لم يكن قد تشكّل بالفعل فإنه في طريقه إلى التشكُّل... وبمقدور الروائي أن يبشر به... وأن يعمل ـ قبل هذا ـ على هدم الممارسات الخاطئة لمجتمعات الحيرة والضلال فيؤدي بذلك دوره... وإنني واثق من أنه إذا أتيح للإسلاميين أن يقدموا كمّاً معقولاً من الأعمال الروائية؛ فإنهم بهذا قد يتجاوزون أسر المحلّية وهو ما لا تستطيع القصيدة، مهما بلغت جودتها، الوفاء به، لأنها تبقى في كثير من الأحيان ابنة بيئتها ولغتها ومناخها الجغرافي، بينما الرواية تستطيع الحركة من خلال البيئة نفسها إلى العالم كله...

❁ ❁ ❁

**ـ في اعتقادي أن الأدب الإسلامي يعاني عزلة سببها الرؤية القاصرة لمفهوم الأدب الإسلامي**، في حين تسعفنا بعض الآراء القديمة في فك حصار هذه العزلة كما نجد عند الإمام القرطبي

حين يقسم الشعر إلى مستحب ومباح وحرام، وأعتقد أن كثيراً من الإبداع العربي غير المحسوب على مدرسة الأدب الإسلامي يدخل في دائرة المباح مما يفرض علينا اعتباره إسلامياً.

= أنت تشير إلى عزلتنا نحن الإسلاميين عن المعطيات الأدبية الأخرى والتيارات الإبداعية المتاخمة، وإغلاق الأبواب قبالتها... لكن هناك عزلة الآخرين عنا، لأنهم يكادون يصمّون آذانهم عن الصوت الأدبي الإسلامي، وهناك ـ بالتأكيد ـ أسباب عديدة تجعلهم يتعمّدون اعتزالنا ومفاصلة خطابنا. فنحن إذن إزاء نمطين من العزلة ـ وأرجو ألّا تكون عزلة المائة عام! ـ والواقع أن النمط الأول ليس صعباً، فهو بأيدينا، وحلّه تحطيم الجدران والانفتاح على الآداب الأخرى، ليس الأدب العربي خارج دائرة الإسلامية وحده وإنما الآداب العالمية أيضاً. وقد أشار إلى هذا محمد قطب منذ فترات مبكرة في كتابه (منهج الفن الإسلامي)، وجرى حوله نقاش لا يزال قائماً... بعضهم رفض التسليم به وبعضهم قبل. ولكن يبقى أن الأدب الإسلامي أدب إيماني يحمل رؤية الإسلام الشاملة، فليس ثمة ضير في أن يتعامل مع كل أدب يحاول تعزيز القيم الإيمانية وتغذيتها بالمعطيات الجمالية.

أما كيف نصل إلى الآخر، ونفتح ثغرة في الجدار الذي يفصله عنا ونقنعه بسماع صوتنا، فذلك لن يكون إلّا بتحقيق التوازن في معطياتنا الابداعية بين المضمونية والشكلانية ... بين المعنى وتقنيات الإبداع...

كثيرون من أدباء الإسلام لا زالوا يعتقدون أن الأدب الإسلامي أدب خطابي... أدب مضامين فحسب... وهم يضعون التقنيات في الخط الثاني أو الثالث، وربما العاشر! وبالتالي يفقد المعنى على أيديهم سويته الفنية وإلّا فالمعاني ـ كما يقول الجاحظ ـ مطروحة على قارعة الطريق. ولا بدّ ـ إذن ـ من اعتماد أقصى وتائر النضج الفني من أجل أن يكون أدباً قديراً على إقناع الآخر... إن الأدب ـ كما هو معروف ـ بنية متعاشقة بين الشكل والمضمون، وفك الارتباط بينهما سيقتل هذا أو ذاك... وأنت تذكر معي خطيئة الواقعية الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي المنحلّ، حينما جنحت نحو المضمون، فعجزت عن أن تقدم أدباً يضاهي ما قدّمه الروس أنفسهم زمن تولستوي وديستوفسكي وتورجنيف وجيكوف... إننا الآن بحاجة إلى إعادة الوفاق بين القطبين، وحينذاك يمكن أن نجعل الآخرين يسمعوننا، فنتجاوز العزلة التي تتحدث عنها.

❁ ❁ ❁

**ـ هل يترك الشعر مكانه للرواية؟**

= الأنواع الأدبية وليدة خبرات وثقل تاريخي ـ إذا صح التعبير ـ فليس من السهولة التخلي عن نوع ما في سبيل نوع آخر، وإنما هي ماضية مرتبطة بنزوع الإنسان الجمالي، وبقدرته على التعبير، وبالتنوع الذي هو فطرة الإنسان، بين أديب يملك القدرة على الخطاب بالصيغة الشعرية، وآخر بالصيغة الروائية، وثالث

بلغة المسرح. وحتى في السياق الشعري هناك الصيغة الملحمية والغنائية والمسرحية... الخ. وسيظل التغاير قائماً ولكن يحدث أحياناً لأسباب ثقافية أو بيئية، وربما أسباب أخرى يصعب تحديدها، نوع من الميل العام بين عقد وآخر... بين فترة زمنية وأخرى، إلى هذا النوع الأدبي أو ذاك ويجيء هذا ـ ربما ـ على حساب الأنواع الأخرى، وأذكر ـ على سبيل المثال ـ كيف كان عقد الخمسينيات عقداً شعرياً حظي فيه الشعر بالأولوية، لكن هذا لم يغيِّب الأنواع الأخرى كالقصة والرواية والمسرح...

وفي الستينيات أصبح المسرح هو الغالب، لاسيما وأن الحركة المسرحية في مصر بلغت أوجهاً يومذاك، وأخذت دور النشر المصرية تصدر سلاسل قيمة من الأعمال المسرحية المترجمة، وأصبح القارئ منجذباً إلى هذه الأعمال مشدوداً إلى حضور بعضها مشخَّصاً على خشبة المسرح.

وربما كان عقد السبعينيات عقداً للقصة القصيرة، لأنها أخذت في ذلك الحين تنضج وتهندس بشكل أكثر إحكاماً من ذي قبل...

أما إذا رجعنا في الزمن فقد نجد عقد الأربعينيات ساحة لأدب المقال الذي زادته انتعاشاً مجلة رائجة كالرسالة، التي كانت تصدر في مصر وتوزع في كل ديار العرب...

أما الرواية، فأمرها يختلف فهي بسبب من خصبها وجماهيريتها في الوقت نفسه قديرة على الحضور في كل زمن

ومكان... ويزيد في ديمومتها ظهور روائيين كبار بين الحين والآخر ينفخون النار في حطبها فيزيدونها اشتعالاً... ومن منا لا يذكر عبر العقود الأخيرة ريمارك وهيسه الألمانيين وماركيز واستورياس الكولومبيين وغيرهم ممن انتشرت أعمالهم في الآفاق؟

❁ ❁ ❁

**ـ ماذا عن المسرح الإسلامي؟**

= لا يزال إحدى الحلقات الضعيفة ـ نسبياً ـ قياساً إلى الحلقات الأخرى بسبب من قلة الكم المنجز، وبسبب عدم تحول النصوص المكتوبة إلى فعل درامي على الخشبة... والمسرح لا يكون مسرحاً إلّا إذا انطلق من أسر النص المعتقل بين دفتي كتاب إلى حركة مشخصة ماثلة للعيان...

ليس العيب في ضعف النص المسرحي، وإنما في مجموعة الشروط التي تجعل الخشبة حكراً على الآخرين. وأذكر لك مثالاً واحداً: مجموعة من الشباب الإسلامي الفلسطيني في عمّان قدموا على مسرح الجامعة الأردنية ثلاث مسرحيات عن القضية الفلسطينية بشكل بعيد عن الخطابية، وبتقنيات أكثر نضجاً وانزياحاً، وتلقوا من الجماهير على مدى هذه العروض الثلاثة ما لم تحلم به أية مسرحية أخرى أقيمت لها الدنيا وما قعدت، وعملت من أجلها الدعايات الكثيرة دون جدوى... أما هذه فإن صالات العرض استمرت لأسابيع طويلة تتلقى سيل المشاهدين دونما فتور... هناك

إذن استعداد جماهيري للتعامل بشغف مع المسرحية الإسلامية شرط أن تكسر النصوص عزلتها وتخرج إلى الخشبة.

۞ ۞ ۞

**ـ كيف ترون خروج المرأة على الخشبة؟**

= المسألة ذات بعد فقهي، وليس هناك مجال للترخيص فيها... لا يجوز قطعاً للمرأة أن تظهر على الخشبة... والسؤال المطروح الآن هو: هل سيؤثر غياب المرأة على سوية العمل المسرحي ومطالبه الفنية؟ والجواب أنه ليس من الضروري أن تكون المرأة حاضرة بشكل مباشر في العمل الدرامي، وهناك مجال للتحايل الفني المشروع من أجل تغييب عنصر وإبراز آخر، وبالتالي يمكن أن تُجعل المرأة حاضرة من خلال الحوار... باختصار... فإن بإمكان المؤلف والمخرج أن يتعاونا على تحقيق حضور ضمني وغير مباشر للمرأة في الفعل المسرحي، دون اضطرار لأن تمثل فيه شخصياً، اللهم إلّا إذا أريد للنساء أن يشهدن عروضاً خاصة بهن تنفرد فيها المرأة بالتمثيل...

۞ ۞ ۞

**ـ ما هي مشروعاتكم الإبداعية المستقبلية؟**

= لا أدري إن كانت مسرحية المغول ذات المشاهد السبعة قد وزعت في الساحة المغربية أم لا؟ وكذلك مجموعة مسرحيات (العبور) ذات الفصل الواحد.

كانت (المأسورون) عملاً مبكراً لم أكن راضياً عنه، ولا زلتُ

أدينه من أكثر من زاوية... أما (المغول) فالأمر يختلف... إنها تجيء بعد عشرين سنة من شقيقتها وهي محملة بشحنات درامية تمنح الحدث التاريخي القدرة الفائقة على توظيفه في البناء المسرحي... بؤرة الحدث هي حصار الموصل على أيدي المغول وصمودها قبالتهم، ثم انكسارها في نهاية الأمر بعد سبعة أشهر من المقاومة... والنهاية المأساوية للبطل تذكّرنا بالتراجيديات اليونانية.

والآن أجدني مستغرقاً لاتمام مشروع روائي بدأته منذ سنوات وأعتبره ـ بقدر تعلّق الأمر بقناعاتي الفنية الخاصة ـ نتاجي الإبداعي المركزي عبر السنوات العشر الأخيرة... ذلك هو رواية (السيف والكلمة) والتي تسعى لتوظيف الهجوم المغولي على بغداد عام (٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م) وسحقها على أيديهم... إنها لحظة تاريخيّة تنطوي على مفردات مشحونة تمنح الحدث الروائي قدرة فائقة على التأثير.

لقد تعامل (المؤرخ) مع الغزو المغولي من الخارج، وهو لا يتابع الدقائق والتفاصيل، ولا يحاول النفاذ إلى العمق الإنساني للواقعة التاريخية، وإنما يكتفي برسم الهياكل الخارجية لها في حين نحن بحاجة إلى رؤية الفنان لكي نسبر انعكاسات الحدث على النفس البشرية في أزقة بغداد ودورها وأحيائها ومساجدها وأسواقها وملاعبها ومكتباتها... هذه الرواية تحاول أن تقدم لنا انطباعاً مأساوياً للاجتياح المغولي لبغداد، وأن تومض ـ من وراء الحزن والانكسار ـ بسبل النهوض والخلاص.

لقد حاولت أن أقيم معمار الرواية على أسس وتقنيات غير تقليدية رباعية الأدوار والأصوات... ينمو فيها الحدث عبر نقلات أربع لزاوية الرؤية، ومن خلال فعل وتداعيات أبطال أربعة وهم يشاركون في صناعة الوقائع والأحداث، ويغرقون في تيارات وعيهم الباطن، ويدخلون سيلاً من المنولوجات التي تعكس رؤيتهم الانطباعية لتلك الوقائع والأحداث... وهم ينطلقون منذ اللحظات الأولى... كلٌّ من اختياره الحر لكي ما يلبث كل واحد منهم أن يجتاز شبكة من الدروب والصدمات والخبرات، يجاهد كي يجعل خياره قديراً على اجتيازها بنجاح... ولكنه ينهزم في نهاية الأمر لأنه رمى بثقله صوب نقطة ارتكاز واحدة في الكينونة البشرية... إنها دراما الصراع بين العقل والروح والوجدان والجسد... ولن يقدر لأحد فيها الخلاص إلا من خلال بذل جهد استثنائي للتحقق بالوفاق، وذلك ما تومئ به شخصية البطل الرئيسي.

والرواية بتداخل أصواتها قابلة للتفكيك... وسماع كل صوت منفرداً... وهي في هذه الحالة ـ كذلك ـ تتابع تنامي الحدث ولكن بصيغة ميلودية مسطحة... والمطلوب تعامل هارموني ينصت للأصوات جميعاً لكي يكتشف من وراء التغاير وربما التنافر توافقاً لا نشاز فيه... يقود الأشخاص والوقائع والأشياء إلى مصائرها...

لقد كان الغزو المغولي لبغداد مجزرة حقيقية على كل المستويات... كان مذبحة إنسانية قبل أن يكون تصفية جسدية... وكانت المذبحة تنطوي بالتأكيد على بعدها العقدي والحضاري

معاً... وليس بمقدور الصيغ التقليدية في بناء الرواية أن تحمل هذا كله دون أن تثقلها الوقائع وتجنح بها صوب نوع من التقريرية، أو تحولها ـ على أحسن الأحوال ـ إلى ريبورتاج تاريخي، يمارس فيه الراوي دور السائل أو الصحفي... وكان عليَّ من أجل الانزياح بالتاريخ صوب المطالب الفنية للرواية أن أبحث عن صيغ جديدة في الأداء...

ثمّة مسألة أخرى... وهي التعامل مع ضمائر الخطاب، فقد رفضت منذ البدء اعتماد ضمير المتحدث الغائب العالم بكل شيء، لأن هذا سيفقد الرواية تركيزها وسيقودها إلى نوع من الفضفاضية التي تضعفها إلى حد كبير... ليس هذا فحسب، بل إن الرواية سعت إلى توظيف ثلاثة أنماط من الضمائر لتحقيق التغاير والتوتر في الوقت نفسه... وكان على كل بطل من الأبطال الأربعة أن يتنقل وفق ثلاثة مستويات للخطاب تبعاً للحظة الزمنية التي يتحرك فيها...

إنهم جميعاً يتحدثون من الداخل، ولم يحاول الروائي أن يقتحم عليهم ضمائرهم، من أجل أن يمنح حوارهم صدقاً فنياً...

وكان هذا ـ ربما ـ رد فعل لتجربتي مع (الإعصار والمئذنة)... كنت أقتحم على الشخوص خبراتهم ومرئياتهم الخاصة بين الحين والحين، بما قد يجعل القارئ ينزعج لمداخلات كهذه قد يتقبلها المسرح الملحمي ـ مثلاً ـ لهذا السبب أو ذاك، ولكنها تسيء إلى العمل الروائي بكل تأكيد... ولهذا تحاول تيارات الحداثة الروائية أن

تتجاوزه فيما نلحظه مثلاً لدى ساروت وبوتور وسيمون... إنهم يشكلون الفضاء المعرفي لشخوص الرواية من خلال خبراتهم وقدراتهم ومرئياتهم الخاصة التي تحدد مساحات الفضاء... وليس من خبرات الروائي ومرئياته بطبيعة الحال.

❁ ❁ ❁

**ـ حدّثني عن المغرب... البلد... والناس... والتاريخ...**

= منذ زمن بعيد وأنا أحلم بزيارة للمغرب الشقيق، فإن لأهله في نفوس المشارقة عشقاً موغلاً... إن الساحة المغربية تتميز بحكم موقعها الجغرافي على حافات أوربا... بحساسية خاصة تجاه المؤثرات الثقافية، وبقدرة على التقاطها والتعامل معها... وربما كان المثقف المشرقي مطالباً ـ من أجل تلقي المعطيات الجديدة ـ بالمرور عبر بوابة المغرب.

والحق أن البعض من المغاربة جنحت به الجوائح، ومال أكثر مما يجب باتجاه الصوت الغربي، متجاوزاً قيمه وثوابته وشخصانيته الثقافية التي تمنحه التقدير والاحترام بين الناس... لكن المثقف المسلم سيظل موئل الرجاء في الساحة المغربية، للتحقق بالتوازن المطلوب بين الأصالة وبين ما يجيء من الغرب تحت مظلة الحداثة، من أجل أن يتم توظيف الخبرات الجديدة بأكبر قدر من التمحيص والدراسة والنقد...

**المغرب بعيد ـ جغرافياً ـ عن ديار المشرق... والإنسان يميل إلى أن يرحل إلى البعيد النائي... ولعلها موافقة طيبة أن أجد في**

بيئات لم أكن قد رأيتها من قبل: تركيا... السودان... والمغرب ـ سمة مشتركة وملمحاً يكاد يجمع بينها: المحبة المتدفقة من قلوب الناس بعفوية غير مصنوعة... ولا مفتعلة... محبة تكاد تلمسها بيديك وتراها بعينيك وأنت تتجول في إسطنبول أو بورصة أو الخرطوم أو فاس أو الرباط... والحق أن من النادر أن تجد مثل هذا النبض والخفقان المتدفق في قلوب المغاربة وهم يستقبلون الغرباء في غير الساحتين التركية والسودانية...

يوم أمس تجولت في بعض شوارع الرباط، واجتزت شارع محمد الخامس من البدء حتى المنتهى، ورأيت التضاد الحاد بين الحياة بكل تدفقها وزخمها وعطائها وبين الموت المشحون بجلال الصمت والخلود، فقد وجدتني فجأة في مقبرة الشهداء المطلة على المحيط الأطلسي... هذه الانتقالة المباشرة بين الحياة والموت... بين الحركة والسكون... بين الفناء والخلود وضعتني وجهاً لوجه قبالة الوجود الذي ينطوي في اللحظة الواحدة على الانصرام والانبعاث... تماماً كما أراد الله ﷻ أن يكون...

بقيتُ هناك لأكثر من ساعة أحدّق في زرقة المحيط وانعكاسات الضوء عليها، وألتفت بين لحظة وأخرى إلى شواهد القبور، وهي تخلد أسماء أولئك الشهداء الذين قارعوا الاستعمار الفرنسي يومها وماتوا قريري العين، لكي ما يلبثوا أن يودعوا الثرى في حضن المحيط.

لست أدري لِمَ تذكرتُ عقبةَ بن نافع... لعله وقف في المكان

نفسه ورفع نداءه قبالة بحر الظلمات الذي كان يبدو ألّا شطآن له: «لو كنت أعلم أرضاً وراءك لاجتزتك إليها»!.

ها هو «الآخر» يجتاز البحر إلينا... لا لكي يقدم لنا كلمة الله ويحررنا من الطاغوت كما أراد «سيدي عقبة» ورجاله أن يفعلوا، ولكن لكي يستعبدنا ويجهز على ثوابتنا ومقوماتنا...

ينهض المغاربة لكي «يجاهدوا» تحت قيادات ما كانت تنبض بغير عشق الله وتعاليم رسوله... وتشهد الصحارى والجبال والوديان وثبج المحيط تدفقهم من كل مكان دفاعاً عن العقيدة والأرض والعرض...

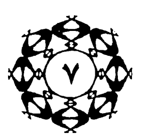
ليس ثمّة منطقة للحياد... قلت في نفسي وأنا أتابع شواهد القبور... فإما أن نعبر إليهم بالحق، أو أن يعبروا إلينا بالباطل... إنها دراما الصراع الأبدي بين الطاغوت الذي يسعى إلى تكبيل الإنسان وبين الدين الذي استهدف تحريره والخروج به من ضيق الدنيا إلى سعتها...

عندما غادرت المكان وقفلت عائداً، ما كان يفصلني عن تدفق الحياة سوى لحظات فحسب، إذ سرعان ما وجدتني في شارع محمد الخامس كرة أخرى وهو يخفق بألف نداء ونداء... هذه الحوارية المترعة بمغزى الوجود البشري يعرفها المغاربة جيداً ويعيشونها لحظة بلحظة... إنهم يحترمون صوت التاريخ، لا لكي ينفصلوا عن الحاضر، ولكن ليحتفظوا بجذورهم الموغلة على بعد خطوات.

في فاس ـ مثلاً ـ رأيت ما لم أره في بيئة عربية أو إسلامية أخرى... هذا التشبث بالتراث وحمايته من التآكل والفناء... مدينة بكاملها يحاول المغاربة اليوم الحفاظ على هويتها بكل تفاصيلها وقسماتها المعمارية... وبمناخها النفسي واضطرابها الاجتماعي...

اجتزتها مرتين... ولفحتني نسمات عذبة لا أدري من أين... لكنها كانت محملة بعبق التاريخ وطعمه بكل تأكيد... وللحظات وجدتني أتجاوز الواقع باتجاه حالة من الوجد الرومانسي، إذا صح التعبير... وقلت في نفسي وأنا استنشق نفساً عميقاً: آه!.. كم يمتلئ قلب الإنسان جذلاً وحبوراً وهو يرى نفسه ـ وجهاً لوجه ـ قبالة التاريخ!.






**أجرى الحوار بالمراسلة الأخ الأديب محمد بو عجاجة**
**ونشر في مجلة (التضامن) الجزائرية (حزيران ١٩٩٣م).**

**ـ الشعر بالنسبة للحضارة في عصر التكنولوجيا يبدو للبعض ترفاً فكرياً. هل هذا صحيح؟!.**

= على العكس... إنه الآن، فيما يسمى بعصر التكنولوجيا، أشد ضرورة من أي عصر مضى... إنه بشكل من الأشكال محاولة (إنسانية) لموازنة صوت الآلة، وكسر حصار التكاثر بالأشياء... إن الوجدان البشري يختنق، والإنسان يضيَّق عليه، وأعصابه توشك على الانهيار... وقد طفح الكيل.

هذا، وسط الإحساس المرير بتراجع كل ما يمت بصلة إلى عالم الشعور... يصير الشعر، من بين معطيات جمالية أخرى لا تقل أهمية، محاولة ضرورية للمقاومة... للدفاع عن الذات... لاستعادة المواقع الجميلة الضائعة... ولفتح ثغرة في جدار المادية الكالح، وإلّا فقدت الحياة عمقها الجمالي، وتضحّلت، وأصبحت لا تطاق...

❁ ❁ ❁

**ـ ماذا يعني بالنسبة إليكم مصطلح الأدب الإسلامي؟**

= هذه ضرورة أخرى على مستوى الإنسان... إن الأدب الإسلامي بالذات، بما أنه تعبير جمالي مؤثر عن الرؤية الإسلامية للكون والحياة والوجود... بما أنه انعكاس للحالة الإيمانية العليا... الحالة المتألقة الفريدة، بعد اندحار الأديان وانحرافاتها... في عالم يتفكك وينحدر بسرعة صوب مستنقعات العفن، والرذيلة، والشذوذ، والجريمة، والانحراف، وفقدان طعم الأشياء... عالم يقود الإنسان المحاصر إلى الخمر والحشيش والأفيون، ويجابهه بالإيدز والقتل والاكتئاب والانتحار... عالم ضيق، يتحول شيئاً فشيئاً إلى نقرة معتمة يضيع فيها كل شيء جميل، ويصير الوجود صراعاً حشرياً من أجل التكاثر والبقاء... عالم كهذا يغدو أشد حاجة إلى الصوت الذي يدلّه على طريق الخروج... الرؤية الجميلة المؤثرة التي تقوده إلى الضفاف البعيدة، حيث يستعيد كل شيء نبيل قيمته وحضوره...

إن الأدب الإسلامي لهو واحد من أكثر الإعانات قدرة على الفاعلية في عملية الخروج المنتظرة للإنسان المتآكل، من ضيق الدنيا إلى سعتها بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى.

❁ ❁ ❁

**ـ ما هو تقييمكم لمسيرة الأدب الإسلامي حتى الآن؟**

= ما قدّمه هذا الأدب حتى الآن يمنح الثقة والاطمئنان... وهو رغم عمره القصير الذي لم يتجاوز العقود المحدودة، يعد بالكثير... لقد قدر أخيراً على أن يتجذر في الأرض، وأن يعطي

ثمراً يراه ويستذوقه الناس... أن يقنع الكثيرين ممن كانوا يشكّون بجدوى المحاولة، وأن يكسب إلى صفِّه عشرات بل مئات من الأدباء والنقاد... وفضلاً عن هذا، فإنه استطاع أن يخترق جدران الأكاديمية، وأن يتموضع هناك في بحوث ورسائل وأروقة الدراسات العليا.

ثمّة حلقات ضعيفة في مسيرة الأدب الإسلامي، يجب أن نعترف بها ونشير إليها باستمرار في محاولة لتداركها واجتيازها. ومن بين هذه الحلقات غياب الاستراتيجية التي تعين على ترشيد حركة الأدب الإسلامي، وتمنحها التوازن المطلوب في معطياتها كافة... هناك ـ على سبيل المثال ـ طغيان للأعمال الإبداعية وضمور في المتابعة النقدية. وفي دائرة الإبداع نفسه هناك عدم توازن بين سيل من النتاج الشعري، والقصة القصيرة إلى حد ما، وندرة في الرواية والمسرحية والسيرة الذاتية. فضلاً عن أن هذا الأدب لا يزال بأمسّ الحاجة إلى تأسيسات منهجية.

صحيح أنه قدّم كمّاً طيباً من التنظيرات والدراسات، ولكن المنهج يظل القاعدة والمنطلق. وإذا كانت الآداب الأخرى قد شكلت مناهجها الخاصة بها، أفلا يتحتم على الأدب الإسلامي الذي يملك خصائصه المستقلة، ورؤيته المتميزة، وأدواته في العمل، أن يكون له منهجه الخاص؟

❁ ❁ ❁

**ـ وسائل الإعلام تجهل كل شيء عن الأدباء الإسلاميين**

**أمثال عمر بهاء الدين الأميري، حسن الأمراني، عبد الباسط بدر... ما مردُّ ذلك؟**

= هنالك مثل في عالم السياسة نعرفه جميعاً: «إن الحرية لا تعطى ولكنها تؤخذ... تنتزع». ها هنا في مجال الإعلام يمكن أن يمارس المبدأ نفسه قدرته على العمل، وعلينا أن نتعلم منه. فعندما يصير لنا أدب أكثر قوة وفاعلية وحضوراً... عندما نتمكن من اقتحام مواقع أكثر تقدماً، فإن صوتنا سيرتفع وقامتنا ستطول، وحينذاك سنضطر أجهزة الإعلام إلى أن تفتح لنا الطريق.

صحيح أن هناك حسابات وأولويات معينة، تجعل الصوت الإسلامي بالذات أشدّ تعرُّضاً للحصار... قتله بالصمت وإرغامه على الانسحاب، لكن هذا ليس مبرراً كافياً لتعليق غيابنا عن ساحات الإعلام على مشاجب الآخرين، ولا بدّ ـ كرّةً أخرى ـ من الفاعلية المتواصلة، من التجذر، من العطاء الموصول وفق وتائر وسياقات فنية أكثر نضجاً واكتمالاً.

إن الأدباء الذين ذكرتَهم هم أدباء كبار بكل المقاييس، ولكنهم في نهاية الأمر أشبه بجزر منعزلة وسط محيط صاخب لا تكاد شطآنه ترى... نحن بحاجة إلى عشرين وخمسين أميري وأمراني وبدر آخر من أجل أن نرغم النشاط الإعلامي في العالم على أن يسمع صوتنا، وأن يعطيه المساحة التي يستحقها، أو يفرضها بعبارة أكثر دقة...

❁ ❁ ❁

**ـ إلى ماذا تعزون تأييد بعض الأدباء الحداثيين للحركات التخريبية التي جرت في التاريخ الإسلامي، كثورة الزنج والقرامطة، والشخصيات المنحرفة من أمثال القداح وابن سبأ؟**

= الحداثيون في بلادنا لا يعرفون على وجه لتحديد ماذا يريدون... لقد بهرتهم النار اليونانية المقدسة فسرقوها، ولكنهم كانوا أصغر من استيعابها وتوظيفها.

لا أقصد أبداً مسألة الفهم والإدراك، ولكني أقصد عدم القدرة على حمل الوقر الثقيل والسير به إلى نقطة محددة... توظيفه من أجل هدف تكتيكي أو استراتيجي أكثر أصالة في صراعنا الثقافي ومعطياتنا الأدبية... لقد اندفع بعضهم بسبب من هذا الذي ناءت به الكواهل... اندفع بأكثر مما يجب صوب الطرف الآخر، فتغرب وضاع هناك. ومن يدري فلعله اقتنع في نهاية الأمر بتفوق الثقافة الغربية، فأعلن استسلامه لها وفق طريقة مقنعة. لكن «اللعبة» ليست صعبة على أية حال، ويمكن اكتشافها بسهولة.

آخرون أرادوا التوظيف، بعضهم في سياق الماركسية المقهورة، وبعضهم الآخر في سياق الليبرالية واللادينية والإلحاد في منظوره الغربي... ما درى هؤلاء أنهم يقومون بعملية حسابية مستحيلة، وأنهم يجمعون التفاح والبرتقال للوصول إلى رقم مستحيل في منطوق الحساب... إنهم يريدون إرغام ثقافتنا وتراثنا وتاريخنا... بل حتى عقيدتنا ورؤيتنا للحياة على المرور من المنظور الحداثي، الذي يرفض الثوابت ويمضي، في حمى النزوع

التغييري، متجاوزاً الكثير من المؤسسات الحضارية والعقدية والاجتماعية حيناً، رافضاً الكثير من التأسيسات اللغوية والثقافية حيناً آخر.

التقاطهم للحركات التخريبية (إذا جازت التسمية) يأتي في هذا السياق... تدمير الثوابت والجري وراء المتغيرات حتى ولو قادت إلى الخراب... حتى لو ارتطمت بالمعطى الحضاري المتفق عليه. مهما يكن من أمر، فإن هذا يجب ألّا يدفع الأدباء الإسلاميين، بردّ فعل غير مدروس، إلى الطرف النقيض الآخر... إلى رفض التعامل مع تيارات الحداثة وكشوفها ومناهجها، التي تنطوي ـ ولا ريب ـ على قيم معرفية في غاية الأهمية والفاعلية... إنهم بهذا يفرطون بفرصة جيدة للتوظيف... للإضاءة... لتعميق المسيرة الأدبية في جناحيها الإبداعي، والنقدي ـ الدراسي...

أشياء كثيرة يمكن أن تقال عن مواقف شعرائنا ونقادنا وأدبائنا الحداثيين أو المحسوبين على اليسار، كما كانوا يسمون أنفسهم يوماً، ولكن الأهم من هذا هو ألّا نشغل أنفسنا بهم، وألّا تعيقنا أخطاؤهم، عن التبصر الجاد فيما يقدمه العقل الغربي من كشوف ومعطيات.

في اعتقادي أن أحد المطالب الأساسية للحظة الراهنة هي محاولة سبر هذه التيارات، وإدراك نقاط الايجاب والسلب فيها... إن هذا سيمنح الأدب الإسلامي فرصة جيدة لكي يكسب عمقاً إضافياً هو بأمسّ الحاجة إليه، فضلاً عن أنه سيعين هذا الأدب

على أن يكون في قلب العصر، وعلى أن ينسج خطابه الإبداعي والنقدي من المفردات التي يتعامل بها مثقف العقد الأخير من القرن العشرين.

❁ ❁ ❁

**ـ الدعوة إلى القطيعة مع الأصول الدينية والتراثية، والاعتصام بإفرازات الثورة الحضارية المعاصرة، أصبحت فعلاً مكشوفاً... ما هي حدود هذا الفعل وأبعاده؟**

= لعل إجابتي على السؤال السابق تتضمن الجواب على سؤالك هذا... فلا مبرّر للتكرار...

❁ ❁ ❁

**ـ رواية (الإعصار والمئذنة) هل هي مرآة عاكسة للصراع المتواجد في العالم الإسلامي من المحيط إلى المحيط؟**

ـ كل رواية تتعامل مع التاريخ... مع مرحلة ما من مراحله... تنطوي في الوقت نفسه على الجزئي والكلي... على الراهن والمستقبل... على البيئي والعالمي... لأن الروائي، هو بشكل من الأشكال، فيلسوف تاريخ... مفسر، يحاول أن يضع يديه من وراء الوقائع والجزئيات المتشكلة في مدى الفضاء الروائي، على السنن والنواميس التي تحرك الأحداث... أي ما يسمى بقوانين الحركة التاريخية... وهذه هي إلى حد كبير نفسها في السياق التاريخي على امتداده. وعندما تتموضع رواية (الإعصار والمئذنة) في فضاء محدود بمدينة صغيرة كالموصل، وأيام خمسة من الصراع

بين الشيوعية والإيمان، فإنها تومئ ـ وفق المعادلة المذكورة ـ بما يمكن أن يشهده عالم الإسلام على امتداده.

إن (قصة مدينتين) ـ على سبيل المثال ـ كانت تتحدث عن (لندن) و(باريس)، لكنها حكت في الوقت نفسه عن أوربا كلها زمن الثورة الفرنسية... الشيء نفسه يمكن أن يقال عن (الحرب والسلام) و(ذهب مع الريح) و(الدون الهادئ) وعشرات من الأعمال الروائية الأخرى.

❁ ❁ ❁

**ـ التعامل الروائي مع الواقعة التاريخية ـ كما ترون ـ هل من شأنه أن يخدم الحادثة التاريخية أكثر مما يؤثر عليها؟**

= إنه يؤثر عليها بالتأكيد... بل يوظفها، إذا أردنا الدقة في التعبير، لهدف جمالي إبداعي، ومن ثم فإنه يجد نفسه مرغماً على إجراء تبديل وتحويل في النسب والمساحات والأبعاد، بدرجة أو أخرى... إن الواقعة التاريخية تتحول على يدي الأديب، وبقوة قوانين العمل الفني وصيغ التعامل بين الذات والموضوع، إلى شيء آخر... وبالتالي فإننا يجب ألّا نطلب من الأديب أن يخدم الحادثة التاريخية بالمنهج نفسه الذي يعتمده المؤرخ، بل أن يفككها ويعيد تركيبها من جديد... فهو في نهاية الأمر وبدئه ليس مؤرخاً، ومهمته تختلف في جوهرها عن مهمة المؤرخ. ومع ذلك فإن العمل الأدبي طالما أسدى خدمات جليلة للتاريخ... وأؤكد على الكلمة ولن أكون مبالغاً. فإن الكثير من الجزئيات والمياومات

ومفردات الواقعة التاريخية التي لا يعنى بها المؤرخ، التقطتها عين الأديب، وجاءت الرواية لكي توثقها وتحميها من الضياع.

إننا لا نستطيع أبداً أن ندرس عصر النهضة في إيطاليا بدون دانتي، ولا التاريخ الأندلسي زمن الطوائف بدون المعتمد بن عباد، ولا المقاومة الإسلامية للبيزنطيين بدون المتنبي وأبي فراس. كما أننا لا نستطيع أن نتابع المعطيات العمرانية في عصر المتوكل العباسي ـ مثلاً ـ بدون الرجوع إلى وصفيات البحتري... بل إن عملاً تلفيقياً كألف ليلة وليلة، يغدو ضرورياً لكل من يريد أن يكتب عن تاريخ المجتمعات الإسلامية، محاولاً تقديم تصوّر أكثر مقاربة لما كان يتشكل في شرايين هذا المجتمع وتفاصيل حياته اليومية.

❁ ❁ ❁

**ـ ماذا توحي لكم هذه الكلمات: التراث... التاريخ... العقل المسلم... شباب الانتفاضة؟**

= **التراث:** هو العمق الحضاري للأمة المسلمة... والخبرة المترعة خصباً وعطاءً، والتي تنطوي على الخطأ والصواب، والتي يمكن أن نتعلم منها الكثير.

ليس التراث حقلاً لتجارب وأهواء اليمين واليسار، ولكنه فرصة للاستهداء والتعلم وتلقي الإشارة في قرن عشرين أو قرن ثلاثين... والأمة التي لا تتجذر في تراثها تضيع، لأنها تضع نفسها في منطقة انخفاض الضغط وهبوب الرياح والأعاصير... وهو

مجرد افتراض ليس إلّا... ذلك أنه ما من أمة في التاريخ قدرت على الانسلاخ عن جلدها!

**التاريخ:** رفض للصدفة والعشوائية، وتشكل مرسوم وصيرورة هادفة تنطوي على الحكمة والمغزى... وانبثاق عن السنن والنواميس... هكذا أراد القرآن الكريم أن يعلمنا.

ولن يكون بمقدورنا كأمة أن نستعيد دورنا الضائع، وأن نتقدم إلى العالم بالبديل الحضاري المرتجى؛ ما لم نبدأ من ها هنا: فهم قوانين الحركة التاريخية، والتعامل مع حيثيات العالم في ضوء الشروط التاريخية التي تقول لنا هذا «ممكن» وهذا «مستحيل».

**العقل المسلم:** جمرة متألقة من الفاعلية والعطاء لا تكفّ عن التوهج والخفقان، أشعلتها كلمات الله ﷻ وتعاليم رسوله ﷺ ففعلت الأفاعيل.

في عصور تخلفنا اخترنا أن نطفئها... فلو أننا قدرنا على إعادة الوهج إليها كرّةً أخرى، وفق منظومة الشروط التي منحنا إياها كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ... فإننا نستطيع القول بأننا وضعنا خطواتنا على الطريق الصحيح... بدأنا رحلة الألف ميل... ولا بدّ أن نصل إلى خط النهاية إذا جازت التسميات!

**شباب الانتفاضة:** الوعد المؤمن الذي يلغي اليأس، ويكسر السكون أو الرجوع إلى الوراء، ويتحدى حيثيات التنازل أو الاستسلام... إنه رفض في الميدان... تحت الشمس تماماً، وبقوة

العقيدة الإسلامية وقدرتها على الفعل، لكل ما يجري في الخفاء، والظلمة، لذبح القضية وتصفيتها...

كثيرون تصوروا تحت ضغط الوقائع والمعطيات الصعبة، أن المقاومة مضت إلى شيخوختها المحتومة، وأنها تدلف الآن إلى التآكل والفناء، وأن البديل الوحيد الممكن هو المصالحة.

ولكن الانتفاضة بعمقها الشاب... ببراءتها المستمدة من نقاء الطفولة... تقول شيئاً آخر... وهي لا تقول، ولكنها تخطّ كلماتها أفعالاً تشكّل حضوراً مؤكداً في الزمن والمكان... بالحجارة حيناً... بالعصي والسكاكين حيناً آخر... وبالرصاص حيناً ثالثاً...

إنها تخرق المعادلة الخاطئة، التي يراد لها أن تمرّ على العقل العربي والفلسطيني، وأن تتموضع هناك في واحدة من أخطر وأكثر عمليات غسيل المخ اتساعاً وضراوة وكيداً في التاريخ الحديث.

ترى من هو الذي يعكس بصدق روح فلسطين الضائعة المذبوحة منذ خمسين عاماً: «الشيوخ» الذين يتصالحون قبل أن يدلفوا إلى قبورهم... أم «الأطفال» و«الشباب» المنبعثون من ظهر الغيب لكي ينتفضوا ويقاوموا، ويمنحوا «فلسطين» بالتالي القدرة على الديمومة والبقاء؟

❁ ❁ ❁

**ـ ما آخر ما صدر وما سيصدر للدكتور عماد؟**

= في السنوات الثلاث الأخيرة صدر لي كتاب (قالوا عن الإسلام)، وهو عمل توثيقي يرصد المعطيات الإيجابية للعقل

الغربي في دائرة الإسلام في السياقات السبعة التالية: القرآن الكريم، محمد ﷺ، الإسلام، انتشار الإسلام والتعامل مع الغير، الحضارة الإسلامية، المرأة والأسرة، الحاضر والمستقبل.

وثمّة كتاب آخر بعنوان (قراءات في دائرة الأدب الإسلامي) تنصبّ معظم صفحاته على النقد التطبيقي باعتبارها إحدى الحلقات الضعيفة في حركة الأدب الإسلامي المعاصر، والتي تتطلب جهداً مضاعفاً.

ولست أدري إن كان الكتاب قد صدر أم لا... ولستُ أكتمك القول، فقد تمضي ـ أحياناً ـ السنة والسنتان قبل أن أعرف شيئاً عن مصير مؤلفاتي التي دفعت بأصولها للناشرين.

وهناك ـ أخيراً ـ كتاب «مدخل إلى إسلامية المعرفة» الذي صدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي قبل سنتين في طبعتين متتاليتين.

على مدى السنوات القادمة أرجو أن أوفق بإذن الله في إصدار كتاب بعنوان «القرآن الكريم من منظور غربي»، وكتاب آخر يتناول بالتحليل والنقد المعطيات الغربية بصدد «حاضر الإسلام ومستقبله».

❁ ❁ ❁

**ـ شيء تبوح به لأوّل مرة؟**

**= إذا أعانتني الظروف الصحية والوظيفية فلسوف أتفرّغ بعون الله ﷻ عبر السنوات القادمة لإنجاز الجزء الأول من «السيرة الذاتية» والذي يتناول السنوات (١٩٦٩ ـ ١٩٣٩م). لقد**

اختمرت لدي التصورات التفصيلية للعمل، واجتمعت بين يدي مادته الأولية... راجياً أن يكون واحداً من أكثر أعمالي أهمية بسبب من تأسيساته التاريخية وعمقه الانطباعي، فضلاً عن كونه محاولة لإغناء هذا النوع الأدبي بعمل يتجاوز المنهج السردي للسيرة إلى الإفادة من الخبرة الغربية الأكثر حيوية وخصباً في هذا المجال، وتوظيفها إسلامياً... سأحاول ـ بإذن الله ـ أن أرمي بكل ثقلي في هذا المشروع. وأن أتعامل معه بعشق، فلعل ذلك يجعله أكثر إقناعاً بالنسبة لي على الأقل.

❁ ❁ ❁

**ـ كلمة أخيرة لقراء «التضامن» وعشاق الأدب الإسلامي؟**

= ليست الكلمة الأخيرة، ولكنها الكلمة الأولى التي تنزلت على رسول الله ﷺ في غار حراء: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

هذا كل ما يمكن أن يقال لقراء (التضامن) وعشاق الأدب الإسلامي، والمثقفين عموماً... بل لكل أولئك الذين يطمحون لأن يقدموا شيئاً ذا قيمة لهذا الدين المتجذر في العالم، والذي ينتظر الزراع لكي يستوي نبته الواعد على سوقه ـ بإرادة الله ـ فيغيظ به الخصوم والكفار.

«اقرأ»... هي التأسيس والمنطلق والرؤية ومنهج العمل... وما لم تصبح خبزنا اليومي... طعامنا وشرابنا... نومنا ويقظتنا... همّنا الذي يشعل فتيل القلق والتطلع في عقولنا صباح مساء... فلن نستطيع أن نكون أكفّاء لما يتطلبه هذا الدين وسط دوامة

التحديات وصخب التحولات الكبرى بين قرن يمضي إلى نهايته وقرن يطلّ على العالم منتظراً إشارة الخلاص.

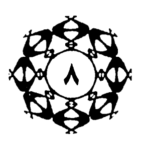
والأدب الإسلامي على وجه الخصوص، ينتظر وقوده الذي يجعله أكثر اشتعالاً وأشدّ تألقاً... إننا لن نستطيع أن نلفت أنظار العالم إلى هذا الخطاب المتميز، الواعد بالتبديل والتغيير ما لم نصبّ المزيد من الزيت على الحطب المشتعل... ما لم نصعّد نار الإبداع حتى تصير فناراً عالياً يراه ويستضيء به القاصي والداني...

والزيت هو القراءة... هو المتابعة الموصولة لكل ما تشهده ساحات الأدب من معطيات في حلقاتها كافة... هو الحمّى التي تجعل المرء لا يرتاح إلّا بأن يدفن رأسه في بحر الكلمة لكي يتعلم الكثير.

إنها الكلمة الأولى والثانية والثالثة... وليست الأخيرة... لأن الأفق سيظل مفتوحاً للمشروع الكبير الذي نحلم به جميعاً: أن نصير أمة من القراء والأدباء والمثقفين كما أراد لنا كتاب الله ﷻ أن نكون.

بهذا وحده يمكن أن نجابه تحديات العصر ومتغيراته، وأن نجعل «كلمتنا» الجميلة المؤثرة، ورؤيتنا للحياة والوجود، حاضرتين في قلب العالم... قديرتين على اكتساح كل ما لا ينسجم ويتواءم مع مطالب الإنسان... متجذرتين في الدنيا التي تتناوشها الأعاصير: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].





**أجرى الحوار بالمراسلة مندوب عن مجلة (العالم) التي تصدر في لندن، ونشر في العدد ٥٣٩ (نيسان ١٩٩٥م).**

ـ يبدو أن مشكلة ما يسمى بالأدب الإسلامي لم تعد مشكلة تنظير، فقد كتب حتى الآن الكثير الكثير في هذا السياق، ولكن المشكلة تبدو في قلة الإبداعات التي تستحق أن توصف بأنها أدب إسلامي، والتي يمكن أن تجلب الاحترام لهذه التسمية. **في ضوء متابعتكم لما يصدر وينشر من إبداعات إسلامية، كيف تنظرون إلى هذه الإشكالية؟**

= ابتداءً، وحتى لا ننزلق باتجاه ما يسميه البير كامو «سوء التفاهم»... أو عجز الكلمات عن تحقيق التواصل بيننا والتعبير ـ فعلاً ـ عما نريد أن نقوله، أعترض على عبارتك «ما يسمى بالأدب الإسلامي» لأنها تنطوي على قدر من التنكير. فالأدب الإسلامي عبر ربع القرن الأخير ـ على وجه الخصوص ـ تمكّن من تحقيق حضوره في العديد من الساحات التنظيرية والنقدية والإبداعية، ومضى يشق طريقه في دوائر الأكاديمية، التي منحت ولا تزال العديد من الشهادات العليا لموضوعات من الأدب

الإسلامي. إن الوعي بالأدب الإسلامي والاعتراف به ـ إذا صح التعبير ـ يتأكدان أكثر فأكثر بأذرع أدباء الإسلامية وكفاحهم المتواصل.

على أية حال، فإن الإشكالية قائمة فعلاً، ليس في قلة الإبداعات التي يمكن أن توصف بالإسلامية، بل بالهبوط الفني للعديد من هذه الإبداعات التي ترمي بثقلها صوب المضمون، على حساب التقنيات والمطالب الأسلوبية والجمالية. فإذا قدرنا على تحقيق التوازن المطلوب، وهو مسألة ضرورية وبديهية في الجهد الأدبي، استطعنا أن نتجاوز الإشكالية التي أشرت إليها... وأعتقد أن المسألة مسألة وقت فحسب.

❁ ❁ ❁

**ـ لماذا، برأيكم، تتركز أكثر الإبداعات على صعيد الأدب الإسلامي في الشعر الذي يحتاج أكثره إلى مراجعة، كما يبدو، فيما تقل الإبداعات على صعيد القصة والرواية والمسرح... هل هو المركب السهل، أم ثمة أسباب أخرى؟**

= على خلاف المنظور السارتري، فإن الشعر ـ كما يبدو ـ يقبل الالتزام بسهولة، فمعظم ـ الشعراء بدؤوا قصائدهم بالتعامل مع هموم الأمة... كلنا ـ على سبيل المثال ـ رسمنا كلماتنا الأولى عن فلسطين، التي كانت وستظل القضية المحورية في تاريخنا المعاصر.

وأدباء الإسلامية، وبخاصة الشبان منهم، يندفعون، بردّ فعل

عنيف في مواجهة المذاهب والتيارات المضادة، للتعبير عن رؤيتهم للتجارب والأشياء وفق أسرع الطرق وأكثرها سهولة، كأنهم مطالبون بتعويض سريع عن زمن الصمت قبالة التحديات... وهم في أغلب الأحيان يجدون في القصيدة ذات الصوت المرتفع والتنفيذ الذي لا يتطلب زمناً طويلاً... فرصتهم لتحقيق هدفهم هذا.

المسرحية والقصة القصيرة والرواية تتطلب صبراً أكثر ووقتاً أطول، كما أن شروطها الفنية لا تتأتى بسهولة، ولهذا قلّ الإبداع هنا وكثر هناك.

من جهة أخرى، فأنت إذا أردت أن تكون شاعراً قد تكفيك الموهبة، مع قراءات في الشعر هنا وهناك... لكن أن تصير روائياً أو كاتباً مسرحياً؛ فلا بدّ أن تقرأ وتتعامل مع عشرات النصوص ومئاتها... إن خبراتها التقنية ضرورية جداً؛ إذا أردنا أن نقدم إبداعات مقنعة في دائرة النوع الأدبي.

❁ ❁ ❁

**ـ يطرح البعض إشكالية مفتعلة بين الالتزام الفني والالتزام الفكري والأخلاقي، فبينما يذهب بعض دعاة الحداثة إلى رفض محاكمة الفن بالقيم والأخلاق، يذهب بعض الإسلاميين إلى النقيض بالتركيز على الجانب القيمي والأخلاقي ومحاكمة الأدب على أساسه دون النظر إلى الجانب الفني... كيف تنظرون إلى هذه الإشكالية؟**

= هذه قضية موغلة في العمق الزمني... بل إنها بدأت ـ إذا

أردنا الحق ـ مع الجهد الإبداعي منذ لحظات تشكُّله الأولى في التاريخ، ومضت لكي تزامن عصر ما يسمى بالحداثة، ولسوف تمضي إلى ما بعده بكل تأكيد...

ثمّة اختلال في الميزان بلغ أقصى درجات حدّته وتكشُّفه في التقابل المعروف بين مذهبين، كالبرناسية التي تؤكد على الأسلوب، والواقعية الاشتراكية التي تؤكد على المضمون، وبينهما ضاع ما يسميه النقاد «النسبة الذهبية»، التي يصير فيها الشكل والمعنى شيئاً واحداً متعاشقاً بقوة الأداء الفني في لحمته وسداه... أن يصير الشكل صوتاً إنسانياً، وأن يتحدث المضمون بلغة الألوان.

على أية حال إننا نتفق ابتداء على أن الأدب إذا ما أراد أن يؤدي وظيفته في حدودها المطلوبة، يجب أن يتعامل مع الإنسان... أي أن يطوي جناحيه على منظومة من القيم... من النذر والبشريات... أن يحمل همّاً كبيراً، ليس برفع عقيرته إلى أعلى وتائرها... ليس بالصراخ والضجيج، ولكن بلمسات قد تكون على درجة من الخفاء والهمس اللذين لا يصلان إلى حافات الحسّ، لكنهما مع ذلك يقولان شيئاً كثيراً، لأنهما يغوصان في عمق الوجدان البشري... يوغلان بعيداً في الهمّ الإنساني الذي يخفق بأشياء كبيرة... بالأحلام والأماني التي لا يحتملها قلب إنسان فيجاهد من أجل أن يتخفف من عبئها المبهظ، بأن يرسمها بالكلمات.

أدباء الإسلامية ليسوا بدعاً من الأمر... إنهم يجدون أنفسهم قبالة عالم يسوده الدمار... إزاء الإنسان الممزق الذي يبحث عمن

يضيء إزاءه الطريق ويلمّ شتاته... وهم يملكون القدرة على الاستجابة، لأنهم يملكون ـ بكل تأكيد ـ أكثر الأصوات نقاءً وفرادة وقدرة على الاستجابة للتحديات... لكن الكثيرين منهم ـ وهنا تكمن المشكلة ـ يتصورون أن التبشير وحده يكفي. وهو قد يكفي فعلاً في كل ساحة إلا في ساحات الإبداع، حيث يصير«الشكل» شرطاً أساسياً، وبدونه لن يكون هناك أدب إسلامي بالمعنى الحرفي الذي نطمح إليه، والذي يمكننا عن طريقه تحقيق حضورنا على مستوى العالم.

❁ ❁ ❁

**ـ في مرحلة التطبيع مع العدو الصهيوني وهيمنته المفترضة على المنطقة تبدو الثقافة الإسلامية هي العنصر الأهم في المواجهة، كيف يمكن أن ترتقي هذه الثقافة برأيكم إلى مستوى هذه المواجهة الحضارية؟**

= دائماً كانت الثقافة الإسلامية هي العنصر الأهم في المواجهة، لأنها الثقافة الوحيدة التي تعبر عن «الذات» وتحصّنها وتحميها من التفكك والضياع إزاء تحديات التآكل والفناء. وكلنا نتذكر، وبوضوح، ما فعلته هذه الثقافة ـ على سبيل المثال ـ في مواجهة سياسات الفرنسة في الشمال الإفريقي أيام الاستعمار.

لقد كانت حاضرة دائماً، بمستوى أو آخر، قبالة كل صنوف الاستعمار والغزو الفكري، وها هي اليوم تمثل خط المواجهة الأول والملاذ الأخير، في الوقت نفسه، في مواجهة محاولات الاحتواء

الصهيوني... ولن يكون «التطبيع» في نهاية الأمر، وبدئه، سوى محاولة للاحتواء... إن الإعلاميين والمثقفين المهزومين في ديارنا يحاولون وضع الديكورات على وجهه الدميم لتزيينه وتجميله ومنحه ـ بالتالي ـ جواز السفر إلى عقلنا ووجداننا.

أيُّ تطبيع هذا وسكّين الغالب تغوص في لحمنا؟ كان العربي يوماً لا ينام على الثأر... لا يرقأ له جفن وهو يجد نفسه في موقع المهزوم... واليوم يطلب من ثوابت اللغة وأبجديات القواميس أن تتخلى عن وظيفتها وأن يصير الرضا بالهزيمة تجاوزاً للانكسار.

الصوت الإسلامي، منذ المدفع الأول الذي حمله نابليون بونابارت لاقتحام شطآن مصر، كان الصوت الوحيد القدير على المجابهة، رغم ما كان ينطوي عليه من ثغرات.

فيما بعد... تآكلت كل الأصوات الأخرى، ثم ما لبثت أن خفتت، وظل الصوت الإسلامي ـ الذي ينبض بعشق العروبة ـ عميقاً واضحاً صارماً قاطعاً كالسكين... وحده الذي أعلن النذير قبالة كل ما يتهدد هذه الأمة، ولا يزال.

من ثم، فإن لنا أن نتصور الدور الحقيقي الذي ينتظره في تحدٍّ مركّب هذه المرة لأنه يبني معماره من حصيلة كل أنماط الصراع التي شهدها عالم الإسلام... من خبرات كل القوى التي سعت عبر القرون إلى تقويضه.

إنهم يريدون ـ مثلاً ـ تحييد التاريخ... تعويمه بعبارة أخرى... فكّ الارتباط بينه وبين المؤثرات العقدية التي نسجت حبكته.

في المنظور الإسلامي هذا مستحيل... والثقافة الإسلامية تزداد تألقاً إزاء المستحيل... لقد كانت وستظل الأقدر على حماية ذاتنا من الضياع.

إن أحد أبعاد النظام العالمي الجديد هو فك الارتباط بين الشعوب وبين عقيدتها وتاريخها... وضع الأمم كلها في حالة تساوٍ مطلق قبالة الصنمية الاقتصادية وآلياتها التي تمسك أمريكا والصهيونية بمحركاتها وأزرارها...

المسلم يعي هذا جيداً، أو أنه سيعيه في يوم قريب، وحينذاك سيرفض المحاولة ويتأبى عليها متحصناً بعقيدته وبالثقافة التي تعكس قيمها وتصوراتها.

فقط ربما يكون المطلوب الآن هو المزيد من الوعي بالفقه الحضاري، بما يسمى بقوانين الحركة التاريخية، التي طالما تحدث القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ عن ثوابتها ومعطياتها... لأن هذا سيعطينا قدرة أكبر على المجابهة، ويمكّننا من ممارسة دورنا بفاعلية أشدّ قبالة كل الصيغ الثقافية الجديدة التي تغطيها ديكورات الصناع المهرة... ويتلقاها المهزومون حيناً باسم «التطبيع»، وحيناً تحت شعارات النظام العالمي أو الموحد أو الجديد، وحيناً ثالثاً بنظرية فرانسيس فوكوياما عن «نهاية التاريخ»!.



**ـ يقول دعاة التطبيع مع العدو الصهيوني أن من واجبنا خوض المعركة ما دمنا أصحاب ثقافة محترمة، وعدم الخوف من**

**الذوبان في الثقافة الصهيونية. بينما يرى الرافضون أن شروط المباراة النزيهة غير متوفرة بسبب الهيمنة السياسية للصهاينة، كيف تنظرون إلى هذه القضية؟**

= قد يكون سؤالك هذا امتداداً لسؤالك السابق عليه، ولكنه ـ مع ذلك ـ يومئ بملاحظة قيمة... أننا فعلاً ندخل عبر لحظاتنا الراهنة هذه مباراة غير نزيهة بالمرة... مباراة محكوم علينا سلفاً أن نخرج منها مهزومين... فلا ساحة اللعب، ولا اللاعبون، ولا الحكام، ولا ـ حتى ـ اتجاه الريح... معنا... إن الشروط جميعها ضدّنا، فكيف نأمل بالفوز؟ بل حتى بالتعادل؟ إنني أتذكر هنا عبارة الديبلوماسي الأمريكي المعروف (مايلز كوبلاند) في (لعبة الأمم): «إذا لم تربح اللعبة فغيِّر اللاعبين».

لقد نزل اللحظة إلى الساحة لاعبون وظفت لهم عالمياً كل أسباب الفوز، ولسوف تكون (مباراة التطبيع) واحدة من أكثر المباريات في التاريخ «انحيازاً»، لأنه قد حكم علينا فيها سلفاً بأن نخرج مهزومين!.

إن المسألة ـ باختصار ـ ليست حواراً بين ثقافتين، ولا حتى صراعاً متكافئاً... إن قوة الثقافة هنا لا تعني شيئاً، لأننا ـ إذا صح التعبير ـ إزاء توظيف لا أخلاقي مذهل لكل قوى ما وراء الثقافة لاحتواء الطرف الآخر وتضييعه.



**ـ هناك نغمة سائدة في الغرب تروِّجها دوائر الإعلام**

**الصهيونية ضد ما تسميه المدّ الأصولي، بسبب اعتقاد الصهاينة بأن الإسلاميين هم النقيض لمشروعهم في المنطقة، كيف يمكن برأيكم الرد على هذه الحملة، والعمل على تقويض أهداف الصهاينة من هذه اللعبة؟**

= إن الدم الغربي منذ زمن بعيد قد يمتد إلى حلقة الحروب الصليبية، وقد يكون قبل هذا، أيام المحاولات الإسلامية المبكرة لاختراق أوربا من الغرب، فيما يسميه المفكر الفرنسي المعاصر (برنار سيشير): «عقدة بواتيه»، مشيراً إلى هزيمة المسلمين في معركة بلاط الشهداء على يد شارل مارتل عام (١١٤هـ)، وقد يكون بعد ذلك زمن المحاولات الإسلامية لاختراق أوربا من بوابتها الشرقية في القسطنطينية، والاندفاع إلى عمق القارة، ودق أبواب فيينا أيام السلطان العثماني سليمان القانوني. المهم أن الدم الغربي أصبح محمَّلاً بجرثومة الكراهية للإسلام وعالمه، ومستعداً لتقبُّل كل المؤثرات المرضية التي ترفع من درجة حرارته إلى حدّ الحمى...

في بيئة كهذه تجد الحركة الصهيونية فرصتها لتأكيد حالة الحمى، والمضي من خلالها لتحقيق المزيد من الأهداف وعلى رأسها بطبيعة الحال إيقاف الظاهرة الإسلامية وتدمير حصونها.

إذا استطعنا أن نفكّ الارتباط، في العقل والوجدان الغربي، بين رفضنا المشروع للأهداف الصهيونية، وبين إمكان إقامة جسور الحوار بيننا وبين الحياة الغربية... إمكان التحقق بمصالح مشتركة وفق ألف صيغة وصيغة بيننا وبينهم... إمكان تجاوز عقدة (بواتيه)

وتحقيق قدر من التعايش السلمي في ظل أنماط حضارية شتى وليس حضارة متفردة غالبة... إذا استطعنا أن نعمّق ملامح مشروعنا الحضاري الأكثر ملاءمة للإنسان وهو يستقبل القرن الحادي والعشرين... إذا استطعنا أن نصوغ خطاباً إعلامياً رصيناً صادقاً، قديراً إلى إيصال الصوت الإسلامي الذي يرفض الإكراه والقسر والأحادية والكبت الفكري، ويسمح كما تشهد معطيات التاريخ بالتغاير والتنوع والحوار... إذا استطعنا أن نتحقق بهذا... وبما يوازيه أو ينبثق عنه في سياق ما يسمى بحوار الثقافات... فإننا نكون قد وضعنا خطواتنا على الطريق الصحيح، واستطعنا ـ رغم صعوبة المحاولة ـ فك الارتباط بين العقل الغربي وبين الجراثيم الصهيونية التي تسربت منذ أكثر من قرن في حجيراته وشرايينه، بحكم المؤثرات التاريخية حيناً، والمصالح المشتركة حيناً آخر.

ليس الأمر مستحيلاً، إذا أردتَ الحق، شرط أن نكون «نحن» «نحن» وليس مجرد ظل «للآخر» يجعل همّه الأساس الدفاع عن الذات والتوسل إلى الخصم وتأكيد التهمة بالتالي.

وها أنت ترى أن الذي لا يحترم نفسه لا يحترمه الآخرون، والذين لا يملكون وجهاً أو هوية متميزة، لا مكان لهم في جغرافية العالم... وإننا كلما ازددنا اكتشافاً لذاتنا أرغمنا خصمنا على الاعتراف بنا... وأن السيف كان عبر تاريخ الإسلام كله الخيار الثالث، حيث تركت للآخر دائماً خيارات غيره... وأن هذا التاريخ هو الوحيد، من بين تواريخ الأمم والجماعات الأخرى، لم يشهد كما

يؤكد المستشرق البريطاني السير توماس أرنولد في (الدعوة إلى الإسلام) حالة واحدة أُكره فيها غير المسلم على اعتناق الإسلام.

معذرةً إذا كنتُ قد أطلتُ الحديث وأنا أحاول أن أجيبك على سؤالك هذا... إنه إحدى موضوعات الساعة وهو يحتمل المزيد من القول... وأظن أن هذا يكفي وأن النغمة السائدة في الغرب ضد (الإسلامية) والتي تروِّجها الدوائر الصهيونية ليست قدراً نهائياً بيننا وبين الغرب... ليست طريقاً مسدوداً...

❁ ❁ ❁

**ـ بعض المشتغلين بموضوع الأدب الإسلامي يرون أن عدم وجود متابعات نقدية للإبداع الإسلامي يساهم في تراجعه الفني... هل هذا هو السبب الحقيقي أم أن القضية تتعلق بأسس التعامل مع مفهوم الأدب الإسلامي؟**

= الاثنان معاً... أي ضعف المتابعة النقدية وأسلوب التعامل مع مفهوم الأدب الإسلامي... لنتجاوز ـ أولاً ـ عبارة «التراجع الفني»، فالذي يحدث ليس تراجعاً ولكن تباطؤ في الحركة... يمكن تجاوزه بمجرد تحقق تغطية نقدية تملك أدواتها جياداً، فضلاً عن ضرورة التخلي عن الانزلاق باتجاه المضمونية، وعدم إعطاء «الشكلانية» القدر نفسه من الاهتمام.

يوم أن يتوافر في ساحات الأدب الإسلامي ـ الذي يزداد تجذراً وانتشاراً بمرور الوقت ـ عدد كاف من النقاد قدير على التعامل مع النص بتقنيات نقدية عالية... يوم أن يدرك أدباء

الإسلامية أن الأدب هو منذ لحظات تشكُّله الأولى ليس مجرد كلام يقال، وإنما تلاحم عميق الوشائج متشابك الخيوط بين الشكل والمضمون، أو المبنى والمعنى ـ بالمصطلح القديم ـ يومذاك يمكن لهذا الأدب أن يفرض حضوره في ساحات الأدب العربي والإسلامي والعالمي ويمضي قدماً إلى الأمام... وسيكون من فضول القول التأكيد على أن هناك انعداماً في التوازن بين طبقات الجهد الأدبي لدى الإسلاميين، فبينما نجد تدفقاً في المعطيات الإبداعية، وإلى حدّ ما الدراسية والتنظيرية؛ نجد بخلاً في النشاط النقدي، يجعل الممارسة النقدية مسألة عرضية مجتزأة قبالة تيار الإبداع الذي ينتظر أصحابه من يأخذ بأيديهم... من يقوِّم أعمالهم ويدلّهم على الطريق... من يعرِّفهم على بعضهم، ويعينهم على إيصال خطابهم إلى أهدافه المرتجاة، فلا يكادون يجدون سوى محاولات مبعثرة هنا وهناك، تتخللها فجوات ممتدة من العزلة والصمت، تجعل الأدباء، وبخاصة الشباب منهم، في حيرة من أمرهم، وربما تقودهم في نهاية الأمر إلى الكفّ عن العطاء.



**ـ تميَّز الدكتور عماد الدين خليل بثقافته الموسوعية، حيث كتب في الفكر والدراسات التاريخية، وكتب الإبداع من رواية وشعر ومسرح... هل ترى أن هذا التعدد مفيد للكاتب أم أن التخصص أفضل؟**

= هذا وذاك... فليس قدرنا أن نقول هذا أو ذاك... فالظواهر

في بعض الأحيان لا تتخاصم وينفي بعضها بعضاً، وإنما تلتقي وتتصالح ويعطي كل منها للحلقات الأخرى الفرصة الكاملة للتحقق.

إن الجدل الهيكلي الذي يرغم الأفكار على أن تصطرع وينفي بعضها بعضاً، والديالكتيك المادي الذي تزيح الشرائح الاجتماعية وصيغ الإنتاج خلاله بعضها البعض الآخر، فيطرده من الحضرة ويستأثر بالسلطان... جدل أو اصطراع كهذا ليس قدراً محتوماً كما يخيل للكثيرين... فهناك دائماً، مع وجود الاصطراع والنفي: الوفاق والتصالح والتوازي في هذا الجانب أو ذاك من جوانب الفكر أو الحياة.

ما أريد أن أقوله هو أن الموسوعية ـ إذا صحّت الكلمة ـ لا تتعارض مع التخصص سواء في دائرة المفكر الواحد، أو في سياق النشاط الفكري والثقافي في بيئة ما أو عصر من العصور.

القطبان يكمل أحدهما الآخر... هذا يتحرك في فضاء واسع أعطاه الله ﷻ القدرة على خوض غماره... وذاك يوغل في أعماق الظواهر والخبرات، ويتمركز في حيّز محدد، حيث يجد نفسه مؤهلاً لأداء مهمته الفكرية في دوائر التخصص... والحياة الثقافية التي يغيب فيها الموسوعيون ولا يتحرك سوى أصحاب التخصص في هذا الفرع المعرفي أو ذاك... حياة لا تستحق أن تعاش... أرخبيل من الجزر المنعزلة التي لا تجمعها لغة واحدة... تصوَّرْ لو أن قرننا هذا لم يشهد مثقفين كالعقاد أو طه حسين أو سيد قطب أو توفيق الحكيم، بغضّ النظر عن توجُّهاتهم الفكرية... مثقفين

كتبوا في الفكر والتاريخ والترجمة والسيرة الذاتية والتنظير الأدبي وأبدعوا قصصاً وروايات وشعراً... كيف يمكن أن يكون؟ تصور لو أن رسائل الماجستير والدكتوراه التي طالما مارست خطابها بلغة سقيمة مكسرة، هي وحدها التي تستأثر بالساحة... كيف يكون الحال؟

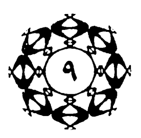
إن التخصص هو بالتأكيد من ضرورات التقدم العلمي، وفي المقابل فإن الموسوعية هي ضرورة ثقافية... إذا كنت تملك أن تقدم شيئاً ذا قيمة في أكثر من ساحة فلماذا تتردد؟ وإذا كان غيرك، بمجرد أن يمدَّ رجله خطوة واحدة خارج نطاق تخصصه تعرض للضياع فما ذنبك أنت؟ ومع ذلك فإن هذا لا يمنعك من أن تصير متخصصاً ناجحاً، بل ربما أكثر قدرةً على الإبداع والعطاء في مجال تخصصك نفسه من الكثيرين ممن اعتقلوا أنفسهم في زنزانات ما يسمى بالتخصص الدقيق ففقدوا الرؤية الشمولية واللغة القديرة على الأداء، بل، أصيبوا بسبب جمودهم في البؤر الضيقة بعمى الألوان، وغدوا ـ بتعبير اشبنكلر ـ مجرد منظفي أتربة أكاديميين!

في الغرب والشرق على السواء رحل مئات الأكاديميين المتخصصين، بل ألوفهم، دون أن يسمع بهم أحد ودون أن يتركوا في الحياة الثقافية أثراً يذكر... بعضهم ـ إذا أردنا الحق ـ مضى بالخبرة العلمية صوب آفاق بعيدة، لكن أغلبهم ـ والحديث عن جماعة الإنسانيات! ـ ما فعلوا سوى أن تمرّسوا في مجال تخصصهم

وأصبحوا أساتذة جامعيين ناجحين، وليس ثمة شيء وراء ذلك... لكن موسوعيين كهيكل واشبنكلر وتوينبي وإريك فروم وكارودي وروم لاندو... وغيرهم كثيرون، هم الذين أعطوا الحياة الثقافية في الغرب، وربما في العالم كله، طعمها وملحها... وهل ننسى جيد ومالرو وكوستلر وبرناردشو وفتكنشتاين وبرتراند رسل... و... و...؟؟.

لنترك هؤلاء وهؤلاء كل يعمل في مجال قدراته التي منحه الله ﷻ إياها... فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له، كما يقول رسول الله ﷺ... وليس ثمّة مبرّر على الإطلاق لأن ينفي أحدهما الآخر ويستأثر بالميدان...





**أجرى الحوار في الدوحة الأخوان الصحفيان عبد العزيز آل محمود وأحمد مفتاح (آذار ١٩٩٥م)، ونشر في مجلة (المرايا) القطرية في (خريف ١٩٩٥م).**

**ـ نظرية الدوائر الثلاث والتي وردت في الصفحات الأولى من كتابكم «تحليل للتاريخ الإسلامي: إطار عام» هل هي خاصة بالتاريخ الإسلامي؟... حبذا لو تلقي الضوء عليها.**

= في البدء أحب أن أعرب عن ترحيبي بهذه الفرصة الطيبة، التي أتاحها ملتقى الأدباء والكتاب في مركز شباب الدوحة، واعتزازي بمجلة (المرايا) التي يصدرها المركز، والتي أتيح لي أن أطلع على بعض أعدادها، فرأيتها ترغم على متابعتها بشغف واهتمام... إنها واحدة من الدوريات القليلة التي تتعامل بإخلاص مع قضايا الأمة وتحمل ـ بصدق ـ اسمها كمرآة تنعكس عليها هموم المسلم المعاصر ومطامحه.

بالنسبة للدوائر الثلاث التي تشير إليها في سؤالك، أحب أن أؤكد أنها ليست نظرية بالمفهوم الاصطلاحي، بقدر ما هي حقيقة

واقعة شهدها تاريخنا الإسلامي في مرحلة تأسيساتها الأولى على عهد رسول الله ﷺ وصحابته الكرام (رضوان الله عليهم).

ولقد عكس القرآن الكريم بوضوح وحسم قضية التحول من دائرة إلى أخرى، فيما يلحظه المرء وهو يقارن بين الآيات والسور المكية والمدنية. إنها في الأولى كانت تعنى ببناء الإنسان بالعقيدة، وفي الثانية كانت تبني الدولة الناشئة بالمفردات التشريعية، وتقدم في الوقت نفسه شبكة خصبة من الشروط والتأسيسات الحضارية.

هذه الرحلة من الإنسان إلى الدولة إلى الحضارة قد نشهدها في تجارب وخبرات تاريخية ودينية أخرى، لكنها لم تكن ـ ولن تكون ـ بهذا القدر من الإحكام والتدرج المرسوم والانتقال المبرمج كالذي شهده عصر الرسالة. إنها في نهاية التحليل وبدايته صنع الله الذي أتقن كل شيء وقيادة رسوله الكريم ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

❁ ❁ ❁

**ـ ما هي منهجية تحليل التاريخ؟ وهل توجد لكل أمة منهجية خاصة بها؟**

= التعامل مع التاريخ يتطلب منهجاً... هذه مسألة تكاد تكون من البديهيات... لكن ما يجب التذكير به هو أن المنهج ليس قالباً جامداً ولا معياراً ثابتاً يصلح للتعامل مع تواريخ الأمم والشعوب كلها على تغاير الأماكن والأزمان... هناك بالتأكيد بعض الثوابت المنهجية التي تمثل قاسماً مشتركاً للدراسات التاريخية أياً كان

الموضوع الذي تتعامل معه، فيما يعرفه طلبة الدراسات الجامعية في مرحلتيها الأولية والعليا، وفيما هو متفق عليه على مستوى العالم كله... إننا هنا بإزاء آليات أو تقنيات للبحث في التاريخ لا بدّ من اعتمادها إذا أردنا الوصول إلى مقاربة الحقيقة التاريخية. إلّا أن هناك فيما وراء هذه الثوابت «المحايدة» إذا صحّ التعبير، هامشاً واسعاً للمتغيرات المنهجية، حيث إن ما يصلح لدراسة التاريخ الأوربي أو الأمريكي ـ مثلاً ـ لا يصلح لدراسة تاريخ الإسلام.

والحديث عن هذه المسألة قد يطول، وقد ألمحتُ إلى جوانب منه في كتابي الذي نشرته في الدوحة منذ سنوات بعيدة بعنوان «حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي». ولكني أحب أن أشير هنا، مجرد إشارة، إلى أن تاريخنا يتجذر منذ بداياته الأولى في «الغيب»، وتنطوي خبراته في الوقت نفسه على تقدير بالغ وتعامل جاد مع «الوجود»، وأي منهج في البحث التاريخي لا يضع هذين القطبين في حسبانه سيلتوي بالحقائق التاريخية ويمارس إزاءها قدراً من التزييف المتعمد أو غير المتعمد... لكنه في الحالتين لا يحقق المقاربة التاريخية المرجوة.

إنه حتى بعض المستشرقين الذين أعلنوا عن «حياديتهم» ورغبتهم الأكيدة في احترام الثوابت الإسلامية (مونتكمري وات مثلاً في كتابيه: محمد في مكة، ومحمد في المدينة) لم يقدر على تنفيذ الوعد والوصول إلى نتائج صحيحة... بصورة عامة، لأن

العقل الغربي مشبع حتى آخر خلية فيه بالرؤية المادية التي ترفض الاعتراف بالغيب... بل أن تقبله في منهجها وتعلل به الظواهر والخبرات.

۞ ۞ ۞

**ـ هناك من يشكك في حقائق تاريخية ثابتة مثل العداء اليهودي للإسلام والمسلمين. فهل هناك مسلّمات تاريخية يتوجب علينا الإيمان بها من دون أن تقبل أي تشكيك فيها؟**

= ينطوي تاريخ أية أمة من الأمم على نمطين من الخبرات والوقائع التاريخية. نمط أصبح من قبيل المسلّمات بعد إذ تأكدت مصداقيته في ضوء الدراسة والنقد والاستدلال وقوة القرينة وتوافق المرويات، ونمط آخر يظل في دائرة الاحتمال والترجيح ما لم تؤكده أو تنفيه الدراسة التاريخية الجادة.

والعداء اليهودي للإسلام والمسلمين هو من النمط الأول، رغم أن هناك مساحات واسعة عبر تاريخنا للألفة والمودة والعمل المشترك... وهذه تحسب للمسلمين أنفسهم بشهادة خصومهم فيما أصبح من قبيل البديهيات.

المسألة إذن ذات وجهين، ونحن إذا أردنا أن نحترم التاريخ كان علينا أن نسلّم بهما معاً، وأن نرفض ما يراد لنا اليوم في سياق مكيدة التطبيع من التشبث بالرؤية أحادية القطب التي هي نقيض التعامل العلمي الجاد... أن ننسى جانب الكيد والمكر

والخصومة، بل أن نلغيه من ذاكرتنا التاريخية ابتداء... وهذه مسألة مرفوضة علمياً.

على المستوى العقدي، وهو في منظورنا كمسلمين أكثر أهمية بكثير من المستوى التاريخي الصرف، تتأكد الخصومة والعداء بشهادة كتاب الله ومعطيات رسوله ﷺ، وهي خصومة متوجهة ليس إلى الإسلام وحده وإنما إلى (الحق) ابتداء... ومعنى هذا أن تجاوزها أو القفز فوقها هو تجاوز للحقائق القرآنية والنبوية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. من هذه الزاوية بالذات يشعر المسلم اليوم أنه محمي بكلمات الله وأحاديث رسوله ﷺ قبالة أية محاولة لتزوير التاريخ يراد من خلالها تمرير مكيدة التطبيع... ها هنا يصير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تاريخاً يروى صباح مساء... حقائق تحفظ عن ظهر قلب، يتناقلها الكبار والصغار... ولن يكون بمقدور ألف محاولة ماكرة لتغيير مناهجنا التربوية، أن تجتاز هذا السدّ الصلب وتمضي إلى هدفها.

وأسألك: هل بمقدور قوة في العالم أن تلغي سورة «البقرة» مثلاً من ذاكرة المسلمين؟ هل بمقدور ألف لجنة يشكلها الكيد اليهودي والاستخذاء العربي أو الإسلامي، أن تنسي أبناء هذه الأمة آية كريمة من مثل: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠] ومن مثل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ

كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]؟.

❁ ❁ ❁

**ـ التجزيئية في دراسة التاريخ، ما أثرها على فهم التاريخ أو التلبيس عليه؟**

= بقدر تعلق الأمر بدراسة التاريخ الحضاري للمسلمين؛ فإن المنهج التجزيئي أو التفكيكي يقود في أغلب الأحيان إلى تضييع الملامح الإسلامية المؤكدة لهذه الحضارة في عقل الطالب الجامعي. وعلى العكس، فإن المنهج الشمولي الذي يتابع شخصية الحضارة باعتبارها كياناً متميزاً، يملك قدرة أشد فاعلية على مقاربة هذه الحقيقة، وبالتالي إدراك العامل الإسلامي في نشوء هذه الحضارة، وطبيعة المعطيات والوظائف والخصائص التي تميزت بها عبر مرحلة نموها وازدهارها، ودوافع الإعاقة والانحلال التي قادتها إلى التدهور في مرحلة الانهيار... ثم قدرة هذه الحضارة على الاستعادة والتجدد في اللحظات الراهنة أو المستقبل بقوة العامل الإسلامي نفسه.

لا أريد أن أطيل في إجابتي على سؤالك هذا، لأنه كان موضوع محاضرتي (نحو منهج جديد في دراسة وتدريس حضارة الإسلام) التي ألقيتها هنا في الدوحة قبل أيام قلائل.

❁ ❁ ❁

**ـ ما رأيك في تأصيل التاريخ الإسلامي من خلال الأدب كما فعل الكاتب (علي أحمد باكثير) في رواياته ومسرحياته التاريخية؟**

= ليس تأصيلاً للتاريخ إذا أردتَ الدقة... وإنما هو توظيف التاريخ أو الإفادة من خبراته الخصبة في مجال الإبداع الأدبي على اختلاف أنواعه شعراً أم قصة أم رواية أم عملاً مسرحياً... وهذه جميعاً إذا تعاملت مع التاريخ الإسلامي بإخلاص كالذي مارسه (علي أحمد باكثير) و(نجيب الكيلاني) رحمهما الله، وغيرهما كثيرون؛ فإنها ستحقق بالضرورة أكثر من مجرد المتعة الفنية أو الجمالية. فهنالك، فضلاً عن هذه، تأكيد الحلقات المضيئة من الوقائع التاريخية في عقل ووجدان المسلم، وبالتالي تنفيذ مهمة تربوية أو دعوية أكثر قدرة على التأثير والبناء من البحث التاريخي الصرف.

إن الخطاب الفني والأدبي يملك من التقنيات الجمالية ما يمكّنه من اختراق الوجدان المسلم وغير المسلم، كذلك، لتقديم القناعات الإيمانية والإنسانية لمعطياتنا التاريخية. ويكفي أن نتذكر ـ على سبيل المثال ـ ما فعله فيلما (الرسالة) و(عمر المختار)، اللذين أخرجهما مصطفى العقاد، داخل عالم الإسلام وخارجه على السواء.



**ـ يوجد بعض المنادين من أبناء جلدتنا بما يعرف بأدب**

**التطبيع. هل تتوقع له مستقبلاً وتأثيراً؟ وما هو الدور المنوط بالأدباء الإسلاميين للوقوف بوجهه؟**

= قبل أدب التطبيع كانت الأرض العربية والإسلامية قد تلقت موجات متعاقبة من آداب الانحلال الفكري والديني والأخلاقي، في سياق غزو فكري أريد له احتواء عالم الإسلام وثقافته وأدبه على السواء... ولا تزال تتموضع في ساحاتنا حتى اليوم ذيول الموجات المنحسرة لأدب التنصير الغربي والإلحاد الشيوعي والوجودية المنحلّة... لكنها ـ على أية حال ـ انحسرت جميعاً، وسيلحقها بالتأكيد أدب التطبيع.

إن أمتنا على هزائمها وانكساراتها تملك حصانة ذاتية في دائرة الفكر والثقافة، وكما أنها على المستوى السياسي ـ العسكري ردَّتْ الصليبيين واحتوت المغول وطهَّرت الأرض الإسلامية من الاستعمار، فإنها على المستوى الثقافي تملك القدرة نفسها على ملاحقة الأجسام الغريبة ونفيها، وفي النهاية ـ وكما يقول المثل ـ لا يصح إلا الصحيح...

والأدباء الإسلاميون مسؤولون عن تعميق الوعي بأبعاد التحدي وخطورته، وبصيغ الرد المناسب لتحجيمه وتقليل فاعليته ووقف التداعيات النفسية والفكرية للمهزومين من الأدباء والمثقفين.



**ـ ماذا تقول فيما يسمى بتيار الحداثة في الأدب؟**

= ليس كل ما يجيئنا من الغرب شرّاً... هذه رؤية خاطئة

وقع في دائرتها الكثيرون عبر القرنين الأخيرين، فقادتهم إلى المزيد من العزلة، وتضييع الفرص المناسبة للتوظيف.

والحداثة ليست جهداً مبسّطاً، وإنما هي معمار ذو طبقات وأدوار... من بين هذه الأدوار ما يرتبط برؤية الحداثيين وتصورهم للكون والحياة والإنسان... للوجود والمصير... ولمغزى الظاهرة البشرية في العالم، وهو تصور ينحرف في معظم الأحيان عن سويته باتجاه ما أطلق عليه (والاس فاولي) وهو يتحدث عن السرياليين في كتابه (عصر السيريالية): الجنون والظلام والدجنّة...

لقد وقفتُ عند هذه المسألة طويلاً في العديد من مؤلفاتي وبخاصة (فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر) فلا أريد أن أعيد القول فيها.

إن الحداثيين يندفعون، كعادة العقل الغربي، إلى المدى، ثم ما يلبثون، كعادة هذا العقل أيضاً، أن يتراجعوا ويعلنوا تبرؤهم مما كانوا فيه... إنها إذا استخدمنا المفردات القرآنية: الأهواء والظنون والأسماء التي لا سلطان لها: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

**واللهاث وراء الحداثيين في هذه اللعبة سيجعلنا كمسلمين نخسر مرتين: مرة بتجاوز مطالب رؤيتنا السامقة المتميزة للكون والحياة والإنسان، وتصوُّرنا العالي المتفرد للوجود والمصير**

ولمغزى الوضع البشري في العالم... ومرةً أخرى بقبولنا لترَّهات الخصم وأباطيله وأوهامه وظنونه.

ثمّة دور آخر لتيار الحداثة، أقرب إلى التقنيات المحايدة التي يمكن توظيفها وبخاصة في مجال النقد التطبيقي. إنها ـ والحق يقال ـ بمثابة كشف في غاية الأهمية، يمكن إذا أُحسن التعامل معه التحقق بإضاءة أشد نفاذاً للمعطيات الإبداعية... شرط أن نكون حذرين لأن هذا الجانب نفسه قد يتجذر في التصوُّر أو الرؤية... فاذا استطعنا أن نحقق قدراً من فك الارتباط بين القطبين كان التوظيف أكثر جدوى.

❁ ❁ ❁

**ـ ما زال الخطاب الأدبي الإسلامي منغلقاً على جمهور الإسلاميين، فمتى وكيف يمكنه أن ينطلق إلى آفاق أرحب؟**

= عندما يحترم الأديب الإسلامي المطالب والتقنيات الجمالية لنوعه الأدبي... إن معظم أدباء الإسلامية يميلون صوب المضمونية، وبالتالي فإنهم كثيراً ما يضحون بالقيم الجمالية، ولن يكون الأدب أدباً إلّا بتلبُّسه بمنظومة من المطالب الجمالية، وإلّا أصبح ـ كما يقول الجاحظ ـ معانٍ ملقاة على قارعة الطريق...

إن المضمون مهما كان عالياً لن يقدر على التأثير في الآخر وكسب احترامه في دائرة الأدب والفن ما لم يحترم شروط الخطاب الأدبي والفني.

ثمّة محاولات جادة نفذت تلاحماً أكثر بين الشكل

والمضمون... مقاربة أشد لما يسميه النقاد (النسبة الذهبية) بين القطبين... وكلما ازداد هذا التيار عطاءً واتساعاً في دائرة الإسلامية قدر على كسر الحواجز والانطلاق إلى آفاق أرحب...

❁ ❁ ❁

**ـ لكل شاعر فلسفة خاصة، فما هي فلسفة الدكتور عماد الدين خليل الشعرية؟**

= سأجيبك أيها الأخ الكريم على سؤالك هذا بمفردات محددة، لا يمكن بأية حال تسميتها فلسفة شعرية... وإنما هي مجرد وجهات نظر في دائرة هذا النوع الأدبي قد تُقبل وقد لا تُقبل...

الشعر العمودي، بجلاله وجماله ومعماره المتناظر، يظلّ حجر الزاوية ونقطة الجذب في القصيدة العربية... إنه الإرث العظيم... والخصوصية المتميزة... والفرادة... وهوية الإبداع التي يمكن أن نتقدم بها للعالم في كل زمن ومكان...

الشعر العمودي لا ينفي الشعر الحر (أو شعر التفعيلة)، لأن هذا، هو الآخر، يبني وحدته الأساسية من التفعيلة التي تنتمي لبحر محدد لا بحور شتى... والفارق بين الاثنين هو في توظيف أو ترتيب التفعيلات وفق هذا النسق أو ذاك...

شعراء التفعيلة الكبار كانوا يعرفون هذا جيداً، ولذا ظلوا على احترامهم لهذا الشرط الفني.

الشعراء الصغار، بسبب من عجزهم الفني، وضعف قدراتهم،

كسروا القانون وخرجوا عليه، وأعطوا ـ بذلك ـ الإشارة لاتهام هذا النمط من الأداء.

على ذلك، فإن شاعر التفعيلة لن يكون جديراً بالاحترام ما لم يقنع قارئه بقدرته على إبداع القصائد العمودية، قبل أو بموازاة أدائه الحر... وإلّا ـ والاستثناء لا يقاس عليه ـ كان متهماً بالعجز، بشكل أو آخر، وكان خياره الجمالي محسوباً عليه وليس له.

وهكذا فإن فئة من الشعراء لم يكتفوا بكسر العمود، ولكنهم يكسرون البحر أيضاً، فإذا بالقصيدة الواحدة ـ إذا جازت التسمية ـ ترحل عبر أكثر من بحر، فتتغاير الأوزان والأصوات، وتسود الفوضى بنية المقطوعة، فتخرج عن ثوابتها وتفقد أي قدر من الاحترام.

وفئة أخرى أباحت لنفسها أن تتجاوز كل مطالب الشعر فتكتب مقاطع نثرية صرفة تخترقها بين الحين والآخر تفعيلة تنتمي إلى هذا البحر أو ذاك. وسواء كانت هذه الفوضى متعمدة لغرض التنويع الفني، أم كانت ثمرة لعجز الشاعر عن الإمساك بموسيقى الشعر؛ فإنها في الحالتين تقود إلى القرف والاشمئزاز.

وما يسمى بالشعر المنثور ليس في حقيقته شعراً، وإنما هو مقطوعات من النثر ذي النبض الشعري، فلا يجوز حسبانه على النوع الشعري، لأنه يفتقد شرطه الأساس متمثلاً بالتفعيلة التي تنتمي إلى هذا البحر أو ذاك.

**قوة الخيال وعنفوان التجربة ودفق الصور الشعرية قد تدفع الشاعر بين الحين والحين إلى كسر العمود واعتماد التوزيع الحر**

للتفعيلات من أجل استيعاب الخبرة أو التجربة الشعرية... لكن ما كلٌّ من كسر العمود يمتلك بالضرورة قوة خيال أو غنى في قدرته على تشكيل الصور...

إن العجز في أحيان كثيرة يختبئ وراء اللجوء إلى كسر العمود... لقد كانت القصيدة العمودية لدى الشعراء الكبار فرصة فنية مواتية لحمل التجربة وهي في أقصى حالات التوهج والعنفوان... ولم يقل أحد يوماً أن المتنبي أو المعري أو البحتري أو شوقي أو الجواهري ما كانوا يملكون خيالاً قوياً ولا قدرة على رسم الصور الشعرية بالكلمات...

في مهرجانات الشعر ذات الجمهور الواسع من المستمعين كانت القصيدة العمودية التي تنطوي على صدقها وتألقها الفني، أكثر تأثيراً وحضوراً بما لا يقاس من قصيدة التفعيلة... وكانت هذه تجد فرصتها الأكثر مواتاة في الإلقاء الانفرادي عبر الأجهزة السمعية أو البصرية وربما في الأداء الدرامي.

النثر في معظم الحالات أكثر قدرة من الشعر على تنفيذ مطالب الحوار المسرحي، شرط أن ينطوي على بطانته أو نبضه الشعري.

إذا كانت الدراما محاكاة أو تعبيراً عما يجري في داخل النفس البشرية أو في نسيج الحياة الاجتماعية، فإنها تتطلب بالضرورة قدراً من الواقعية... والشعر ينزاح بها، بشكل أو آخر، عن صدقها الفني، يجرّها بعيداً عن عفويتها التعبيرية في الذات أو المجتمع.

صحيح أن عملاقاً مسرحياً كشكسبير قدم نصوصه وفق مطالب الشعر، لكنه يبقى ابن عصره الاليزابيثي، حيث كانت آذان الجمهور مهيأة تماماً لسماع الأسلوب الخطابي الذي تجلجل فيه موسيقى الشعر.

نحن في القرن العشرين أكثر استجابة لشجن النثر الذي ينبض بالشعر... يومئ من وراء الأصوات المباشرة بموسيقاه العذبة التي تنقل الشحنة الدرامية بصدق أكثر وتأثيرية أعمق إلى وجدان الإنسان المعاصر... إن جان آنوي أو كاسونا أو تنسي وليامز أو كامو أكثر حضوراً درامياً في هذا القرن من شكسبير.

الشعر العالي، أو القصيدة الكبيرة، هي تلك التي تنطوي على معانٍ كبيرة... على خبرة حياة مصوغة في أبيات من الشعر... على الحكمة التي هي جماع التجارب والخبرات... التي تنطوي أيضاً على ما يمكن تسميته بالشجن الكوني والإنساني... الحزن الهادئ العميق المترع بوهج العقل وخفقان الفؤاد... إنها ـ مرةً أخرى ـ النسبة الذهبية بين قوة الكلمة والمعنى الذي تحمله، فتتجاوز به حافات اللحظة الراهنة والمكان المحدود صوب التخوم البعيدة، لكي تظل تشتعل هناك على تغير الأماكن والأزمان.

ثمة قناعات وخبرات ووجهات نظر و(تذوقات) أخرى تدور في ذهني اللحظة... ولكن هذا يكفي للإجابة على سؤالك...

❁ ❁ ❁

**ـ مُني الأدب الإسلامي برحيل مجدد الرواية الإسلامية الكاتب الدكتور نجيب الكيلاني، فهل هناك من كلمة للفقيد بعد رحيله؟**

= ها هنا في الدوحة سمعت نبأ رحيله... قبل يومين فقط... كان مفاجأة لي... وكان الحزن مضاعفاً... لأنه في هذا المكان بالذات التقيته أوّل مرة وتحدثت معه طويلاً عن هموم الأدب الإسلامي التي كان واحداً من روّادها المبكرين...

قبلها ببضعة عشر عاماً كنتُ قد التقيته في سيال رواياته المتدفق بسخاء، والذي بلغ ـ فيما بعد ـ قمّته، وهو يلاحق هموم المسلمين في العالم: في تركستان... في إندونيسيا... في نيجريا... في الحبشة... في مصر... في فلسطين وفي كل مكان من دنيا الإسلام، أو قصعته التي يولم عليها المولمون!.

بعدها بسنتين أو ثلاث التقيته كرّةً أخرى في مدينة رسول الله ﷺ في ندوة للحوار قدّمت الوعد للمعنيين بالأدب الإسلامي بأنه قد جاء اليوم الذي يملك فيه هذا الأدب حضوره المؤكد ويفرض على الآخر احترامه وقبوله.

كان منذ وقت مبكر قد شارك في وضع حجر الزاوية ثم ما لبث عبر خمسين أو ستين قصة ورواية أن أعان على الارتفاع بالبناء...

اخترق خطوط الطول والعرض عبر جغرافية عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه... أوغل في التاريخ حتى أشرف على بداياته النبوية الأولى... مضى لكي يتحدث، بقوة الأداء الفني

وتقنياته الجمالية، عن كل ما يهمّ واقع الإنسان المسلم في هذا العالم ومستقبله... عن هزائمه وانتصاراته... عن محبته وخوفه... عن حزنه ورجائه... وكانت كلماته النبض الذي يومئ ليس إلى صاحبه فقط، وإنما إلى الطرف الآخر أيضاً... والطرف الآخر هو المسلم وعالمه على السواء بكل ما ينطويان عليه من آمال وآلام وأحزان وبشريات وتشبث... وسعي مكافح من أجل يوم لا يجلد فيه الإنسان المسلم، ولا يشرد، ولا ينفى من الأرض... ولا تقطع أيديه وأرجله من خلاف... اليوم الآمن السعيد الذي يتوحد فيه كل شيء في هذه الدنيا وتتصالح كل الأضداد... ويقف الجميع على سواء قبالة الله ذي الجلال والإكرام.

كلماته كانت تعكس دائماً وجهي القضية: تعاسة المارقين وبؤسهم... وسعادة المؤمنين وأمنهم وفرحهم العميق.

ليس ثمة منطقة وسط... أو مكان محايد... إما هذا أو ذاك... فما بعد الحق إلّا الضلال، وليس وراء الصراط إلا الطرق المعوجّة التي تقود إلى النار.

يرحمك الله أيها الأديب الذي لم يسلم نفسه للراحة لحظة واحدة على مدى خمسين عاماً... وآن لك وأنت تغادر لحظات الفناء المترعة بالكدح والمعاناة... أن ترتاح...

❁ ❁ ❁

**ـ ماذا تعني لك هذه الكلمات:**

= **التاريخ:** هو الماضي والحاضر والمستقبل... فالتاريخ كله كما يقول كروتشة «تاريخ معاصر».

ومن قبل كسر القرآن الكريم حاجز الزمن بين المراحل الثلاث من أجل أن يضع الإنسان قبالة بانوراما الفناء، التي تذوب فيها الأزمان، وتتلاشى ويغيب كل شيء... يصفرّ ويتيبّس ويصير حطاماً... لكي لا يتبقى سوى وجه الله ذي الجلال والإكرام...

= **الفن:** في القرن العشرين يصير أكثر إلزاماً... لأن صوت الميكانيك الذي لا يرحم يحاصرنا من كل مكان.

= **الطفولة:** مشروع الاكتشاف اليومي... والرحلة العذبة المترعة بالدهشة والبراءة والفرح...

= **النور:** لحظات الدفق الإلهي المدهش على رسول الله ﷺ وهو يتلقى التعاليم... ماذا لو كانت الحياة الدنيا دهليزاً مظلماً بدون قرآن منير يهدي الحيارى ويمسح على قلوب المحزونين، ويهب الصراط وسط عالم مزقته الطرق المعوجّة، واستعبدته شرائع كسرى وقيصر... أكانت الحياة تستحق أن تعاش؟

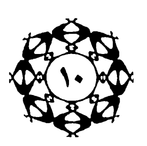
= **الشباب:** الحلم باليوم الذي يصير فيه الطموح واقعاً مشهوداً... والسؤال الذي يتصادى صباح مساء: أتراه يكون؟

= **الدكتوراه:** مجرد محطة متواضعة للوصول إلى محطات أخرى أغزر عطاء...

= **الحياة:** مشروع مفتوح للتحقق والاقتراب أكثر من الله ﷻ.

= **الحب:** هو التحرر من الحب... من التعلق بالأشياء الصغيرة... من عشق كل ما لا يدوم... والتشبث بالمحبوب الذي لا يزول... الحب هو جوهر التوحيد... وجواز السفر إلى الله جلّ في علاه...





**أجرى الحوار في عمان الأستاذ محمد صالح حمزة (آذار ١٩٩٥م)، ونشر في جريدة (اللواء) الأردنية العدد (١١٧٨) (٦ كانون الأول ١٩٩٥م).**

**ـ الإنتاج الذي تعتزون به أكثر من غيره... ولماذا؟**

= هناك جواب تقليدي معروف مستمد من عبارة «كلهم أبنائي»، وبالتالي فإن المؤلف لا يكاد يفرق بين نتاج وآخر، لأنه أنجزها ـ ابتداء ـ بنفس الدافع الملحّ الذي يجعله يحرص على أن يقول ما عنده في هذا السياق المعرفي أو ذاك.

ومع ذلك فثمة كتب ـ بالذات ـ لها في نفسي اعتزاز متميز، ربما بسبب موضوعها الذي تعاملتُ معه، وربما بسبب القناعة الشخصية بأنها حققت ـ إلى حد ما ـ مقاربة لما كنت أحلم به قبل الإقدام على تأليفها، وربما للظروف النفسية والفكرية، وحتى الخارجية التي تشكلت فيها فصولها وكلماتها.

على أية حال، فإنني أستطيع أن أشير هنا مجرد إشارة إلى بعض هذه المؤلفات:

**في التاريخ:** دراسة في السيرة، التفسير الإسلامي للتاريخ،

ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، نور الدين محمود: الرجل وتجربته الإسلامية، تحليل للتاريخ الإسلامي.

**في الفكر الإسلامي:** حول إعادة تشكيل العقل المسلم، حوار في المعمار الكوني، قالوا في الإسلام، مدخل إلى إسلامية المعرفة.

**في النقد والدراسة الأدبية:** مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر، الفن والعقيدة.

**في الإبداع:** مسرحية (المغول)، مسرحية (الهم الكبير)، رواية (الإعصار والمئذنة)، مسرحيات (العبور) ذات الفصل الواحد.

ومن بين أعمالي القادمة أجد في روايتي (السيف والكلمة)، واحدة من أكثر أعمالي الإبداعية التي أعتز بها بشكل خاص.

❁ ❁ ❁

**ـ آمال عزمتم على تحقيقها: ماذا تحقق منها، وما الذي لم يتحقق بعد؟**

= أجدني مرغماً على تذكر عبارة لتوفيق الحكيم في «سجن العمر»: «لقد كانت قدرتي ـ دائماً ـ أقل بكثير من حلمي وطموحي... وتلك هي مأساة الإنسان».

إن آمالي في الحياة تمركزت في شيء واحد: الكتاب الذي يلحّ موضوعه عليَّ السنين الطوال، فلا يدعني أرتاح إلّا بعد إنجازه... ولله الحمد أوّلاً وأخيراً، فلقد أعانني ـ جلّت قدرته ـ على تحقيق الكثير مما كنت أوّد إنجازه عبر رحلة طويلة، تبدأ في أواخر الخمسينيات وتمضي لكي تطلّ ـ بمشيئة الله ـ على نهاية القرن.

لقد أنجزت عبر هذه الرحلة حوالي الستين مؤلفاً، نُشر معظمها... ومع ذلك فقد ظل هناك الكثير. وثمة من بين هذا الكثير إغراءات أشدّ إلحاحاً، من بينها كتابة «سيرتي الذاتية» التي تجمّعت بين يديَّ معظم موادها الأوّلية، وكذلك إنجاز عدد من الأعمال المسرحية والروائية، فضلاً عن الدخول إلى عالم القصة القصيرة، حيث أتممت إنجاز المجموعة الأولى. هذا إلى مشاريع كثيرة أخرى، أسأل الله ﷻ أن يعينني على تنفيذها فيما تبقى من عمر محدود وعافية لا تكاد تلبي المطلوب.

❁ ❁ ❁

**ـ الساحة الأدبية تعج بأدعياء الأدب ورافعي راية الحداثة، كيف تنظرون إلى هذا الواقع... وماذا تقولون لهؤلاء؟**

= في كل زمن ومكان تبرز في الساحة الأدبية هذه النتوءات السرطانية المنتفخة من أدعياء الأدب، فهي ليست أمراً جديداً، ولكن تقارب العالم وتزايد فاعلية الخطاب الإعلامي أعطاهم فرصة مضافة لرفع أصواتهم. ولكنها فقاعات وتؤول إلى انطفاء، وفي النهاية لا يصح إلا الصحيح.

ورافعوا راية الحداثة ليسوا بالضرورة من الأدعياء، وإن كان التيار يحمل في دفقه الكثيرين منهم، لاسيما إذا تذكرنا أنه يعطيهم الفرصة للركوب بنزوعه إلى تدمير الثوابت الفنية واللغوية للأنواع الأدبية، وإلى تفكيك منظومة القيم الدينية والخلقية والحضارية

المشتركة، لكي ما يلبث الإبداع أن يصير مركباً سهلاً للقادرين وغير القادرين، للبنائين والهدامين... وللكبار والصغار معاً.

فقط يجب أن نتذكر أن في تيار الحداثة عناصرَ وقيماً إيجابية يجب ألّا نهملها أو نغضَّ الطرف عنها، لأنها تمثل إضافة قيمة وإضاءة ضرورية للنشاط الأدبي في سياقي النقد والدراسة من جهة، والنوع الأدبي من جهة أخرى.

وعلى ما في بعض هذه التيارات من جموح، فإنها انطوت على فرصة جيدة لإضاءة الأعمال الإبداعية وضبط النشاط النقدي، وجعله أكثر موضوعية ولنتذكر ـ على سبيل المثال ـ بعض جوانب البنيوية وإسهامها المؤكد في هذا المجال.

على مستوى الإبداع ليس من المعقول أن تظل الأنواع على قوالبها القديمة المنحدرة عبر القرون... صحيح أن هذه القوالب والتقاليد الجمالية هي حصيلة خبرة خصبة ومحاولات متواصلة للتحسين والإنضاج، إلّا أنها ـ في نهاية الأمر ـ ليست قدراً نهائياً، وتجديد آلياتها وأنساقها وبنيتها الجمالية بين الحين والحين قد يمنحها إثارة ما، ويعطي المبدع فرصة أوسع للاكتشاف والتجريب، شرط ألّا تنجرف به شهية التغيير صوب تدمير الثوابت والمرتكزات، وتمييع المطالب الأساسية للنوع الأدبي.



**ـ أعداء الإسلام يتهمون الإسلاميين باحتكار الحقيقة،**

**وبالتالي نفي الآخر... كيف تردّون على هذه الفرية، وما هو حكم الإسلام تجاه الرأي الآخر؟**

= أعداء الإسلام اتهموا الإسلام ولا يزالون بألف تهمة وتهمة، ومن بينها هذه التي تحكي عنها، وهم قد ازدادوا شراسة تحت مظلة النظام العالمي الجديد، وويلات التطبيع القادم مع العدو، والتي تجد في «الإسلاميين» الترسانة الصلبة، التي تقف قبالة أهدافها، وتلوي أذرعها لكي لا تمضي للإمساك برقبة الإنسان المسلم في كل مكان.

الظاهرة ليست جديدة، إنها قديمة موغلة تمتد إلى البدايات الأولى لظهور هذا الدين، الذي قُدِّر له أن يظهر على الدين كله بإرادة الله جل في علاه وجهود أجيال الدعاة والعاملين في كل زمن ومكان.

فليقولوا في الإسلام والإسلاميين ما يشاؤون أن يقولوا ـ ومرةً أخرى ـ فإنه لا يصح إلا الصحيح... ولطالما تساقطت مئات الشبهات الباطلة وألوفها، وطاشت سهامها ذات اليمين وذات الشمال، دون أن تصيب من الحقيقة الإسلامية مقتلاً، بل على العكس ما زادتها إلا صلابة وتفوقاً. وبمجرد نظرة سريعة على جغرافية العالم عبر اللحظات الراهنة؛ فإننا سنجد، رأي العين، ما الذي تفعله هذه الحقيقة قبالة كل تصورات الآخرين ونظمهم ومذاهبهم، التي راحت تتعرض للتداعي والانهيار الواحدة تلو الأخرى. ولن يكون بمقدور النظام العالمي الجديد أن يمسكها عن السقوط، لأنه هو

نفسه ـ بقوة قوانين الحركة التاريخية وسنن الله في العالم ـ لن يقدر على مواصلة البقاء بصيغته الشاذة أحادية القطب.

أيُّ احتكار للحقيقة هذا؟ وكيف ينفي الإسلامُ الآخرَ وتاريخه الطويل وتقاليده المؤكدة تقود إلى شيء واحد: إنه ما من عقيدة في تاريخ البشرية أتاحت الفرصة للآخر، على مستوى الحرية والتحقق، كعقيدة الإسلام؟

يكفي أن نتذكر ـ والمجال لا يتسع للإفاضة ـ كيف أن باحثاً متمرساً كالسير توماس أرنولد، المستشرق البريطاني المعروف، سهر لمدى أربعين عاماً على إنجاز كتابه المعروف «الدعوة إلى الإسلام»، الذي يتحدث فيه عن سبل انتشار الإسلام وتعامل المسلمين مع الآخر. ولم يكد يدع وثيقة أو مصدراً إلّا وضع يده عليها لكي يصل إلى جملة من الاستنتاجات القيمة حول الموضوع، كان من بينها قوله: إنه على مدى ثلاثة عشر قرناً من الزمان لم يعثر على حالة واحدة أُكره فيه غير المسلمين على اعتناق الإسلام!.

نتذكر، قبالة هذا، ما الذي فعلته الكنيسة الكاثوليكية في إسبانيا لحظة انتصار فرديناند وايزابيلا على آخر المعاقل الإسلامية هناك: غرناطة.

لقد ذبحوا أمة بكاملها، وأتوا على دينها وتقاليدها وثقافتها وتراثها ووجودها المادي من القواعد، لم يعد لها أي وجود عبر عقود معدودة من الزمن.

لنتذكر أيضاً ما الذي فعله الأمريكي بالهنود الحمر، والصهيوني بالفلسطينيين، والفاشستي الإيطالي بالليبيين؟!.

الشواهد كثيرة والبقع السوداء تملأ ساحات الآخرين... أما في تاريخ الإسلام وواقعه، فتكاد تكون استثناء لقاعدة أوسع بكثير.

❁ ❁ ❁

**ـ الأمة العربية الإسلامية تمر بمرحلة غاية في الدقة والخطورة... كيف تنظرون إلى ذلك... وما هو في رأيكم الداء... وما هو الدواء؟**

= ليس ثمة غير التشبث بكلمة الله ﷻ وحبله المتين... كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، الذي علمنا كيف أن علينا التمسك بهما إذا أردنا ألّا نضلّ أبداً...

واليوم، قبالة فتنة التطبيع والانكسارات الدرامية أمام إسرائيل المغتصِبة، قبالة التفرُّد الأمريكي الصليبي المبطن بالمشروع الصهيوني والمتلفع بالنظام الجديد ونهاية التاريخ... اليوم يجد العرب المسلمون أنفسهم بحاجة أشد إلحاحاً للتشبث بمشروعهم الإسلامي... لحماية ذاتهم من محاولات التدمير والافناء...

إن العدوّ لا يرحم... وها هو ذا يرفع الصليب والنجمة السداسية مرةً أخرى قبالة كل ما هو إسلامي أصيل في هذا العالم...

والتحقق بالمصير الموعود لا يستجدى من الآخر... وإنما ينتزع انتزاعاً... يرغم الآخر على قبوله والاعتراف به من خلال المزيد من التحصن في خنادقنا، وتأصيل ممارساتنا الإسلامية،

وتوظيف جغرافيتنا على مستوى الأرض والإنسان والطاقات... وتعميق ملامح المشروع البديل، الذي سينقذ ليس المسلم وحده من الفناء... ولكن الإنسان نفسه.

وإلّا فإن المعادلة لن تكون في صالحنا على الإطلاق.

❁ ❁ ❁

**ـ ماذا يجول في الخاطر وتودّون أن تقولوه للقارئ؟**

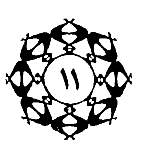
= ليس ثمة سوى الكلمة الأولى التي تنزلت على رسول الله ﷺ في غار حراء: **اقرأ!**.

إنها البداية الصحيحة، وهي فعل إيجابي وليست أمراً بالنفي، وكما قادت المسلم أوّل مرة إلى تشكيل فعله الحضاري المتميز، فإنها قديرة على أن تقودنا كرّةً أخرى إلى استئناف الدور.

إنها ليست نصيحة تقليدية تزجى للقراء ولكنها أمر إلهي إلى كل مسلم في هذا العالم الذي يضيع فيه من لا يحاول أن يبذل جهداً استثنائياً في قراءة الأشياء والسنن والنواميس والظواهر والموجودات، والتعرف عليها.

إن كل قارئ، وكل مسلم، بشكل عام، مدعوٌّ اليوم لأن يمضي في درب المعرفة الإيمانية، وأشدّد على الكلمة، معرفة الذات... معرفة الآخر... ومعرفة العالم من أجل أن يتبيّن خرائطه جيداً، ويرى بوضوح موضع قدميه في عالم تصطرع فيه القوى، والويل لمن لا يحمل رايته المستقلة في خضم هذا الصراع.





**أجرى الحوار في صنعاء سكرتير مجلة (النور) اليمنية (كانون الأوّل ١٩٩٥م)، ونشر في العدد ٦٣ السنة السابعة (آب ١٩٩٦م).**

**ـ في مطلع القرن الواحد والعشرين أين موقع المسلمين في الخارطة الحضارية في نظركم؟**

= ابتداء يجب تجاوز فكرة أن ذهاب قرن ومجيء قرن جديد ينطوي بالضرورة على تغيرات نوعية حاسمة... نعم، هذا ممكن، بل هو مؤكد في المديات الزمنية المتطاولة نسبياً، والتي قد تستغرق العقود العديدة، ولكن ليس بالضرورة في لحظات الانتقال الفاصلة بين قرن وقرن.

ثمّة مسألة أخرى يفضل تجاوزها في التعامل مع سؤال كهذا: التفاؤل الزائد أو التشاؤم الزائد... بمعنى الرؤية الأحادية التي لا تتعامل سوى مع جانب محدد من المنظور. ذلك أن الخبرة التاريخية التي تنطوي على بعدها الحضاري، إنما هي خبرة حياة، وهي تتضمن بالتالي الصواب والخطأ، الأبيض والأسود، السلب والإيجاب، .والمطلوب ـ إذن ـ بعد تفحُّص الجانبين، هو تضييق

الخناق على المساحات الداكنة، وبذل جهد استثنائي لفتح الطريق أمام المعطيات المضيئة، إذا أردنا أن يكون لنا عبر الزمن القادم مكان متميز على الخارطة الحضارية.

مهما يكن من أمر، فإن مما يبعث على الأمل تزايد الوعي بالدور الحضاري، الذي يفترض أن تمارسه الشعوب الإسلامية عبر العقود القادمة، ما يسميه البعض بالمشروع الحضاري أو البديل الحضاري الذي ازدادت أهميته وضرورته إزاء تساقط المشاريع والمذاهب والخبرات الوضعية والدينية المحرّفة في العالم المعاصر.

والنُّخَب الإسلامية لا تألو اليوم جهداً في تعميق خطوط هذا المشروع، والتحاور بصدده، ووضع ركائزه الأساسية، ورسم تنظيراته ومنطلقاته التصورية وتحديد أهدافه. وثمة مؤسسات ومعاهد تساهم في العمل، ويكاد بعضها يتخصص فيه. وينتج عن هذا قدر طيب من المعطيات الفكرية التي لم تكن إلى وقت قريب بهذا القدر من الخصب والوضوح.

ولكن يخشى ـ في موازاة هذا ـ من جملة أمور: كأن يكون هناك ميل في الميزان لصالح التنظيرات على حساب التنفيذ العملي، أو المبالغة في الاستسلام للآمال التي نجمت عن سقوط جلّ البدائل المضادة للمشروع الإسلامي، وتهافتها وعجزها عن تقديم ما يناسب حجم «الإنسان»، الذي ضيّعه الوضّاعون منذ أن قبل بخرافة الانفصال عن كلمة الله ﷻ ومنهجه في صياغة الحياة.

إذا استطعنا أن نشمر عن ساعد الجد، كلٌّ لما يسّره الله له،

وفي الدائرة التي يتفوق فيها... إذا قدرنا على أن نضع قبالة وعينا باللحظة التاريخية الآية الكريمة التي تقول: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣] وجهدنا من أجل تحويل الأُمنية إلى فعل متحقق في الزمن والمكان، أي في التاريخ، جاز لنا أن نخطو باتجاه عالم يكون لنا في خرائطه الحضارية مكان.

وبغضّ النظر عما يقوله حشد كبير من المفكرين الغربيين من مثل ليوبولد فايس وكويلر يونغ وكارودي ومارسيل وسيكريد هونكه وفاكليري وسارتون وتوينبي ومونتكمري وات وروم لاندو وغيرهم، بخصوص المشاركة الإسلامية المؤكدة في المستقبل، ودور الإسلام في صياغة أو إعادة صياغة المصير؛ فإن مما لا ريب فيه أن الجهد الإسلامي نفسه سيمنح الجواب وسيؤكد أو ينفي تلك الاستنتاجات القيمة التي خلص إليها المفكرون الغربيون المشار إليهم. ودائماً كان العثور على الدور وتأكيد الذات، ليس هدية أو منحة يقدمها الآخر، بل هي فعل دؤوب وجهد قاسٍ على كل الجبهات، يمارسهما أولئك الذين يريدون أن يكون لهم حضور على خرائط العالم.

❁ ❁ ❁

**ـ في كتاباتكم في التاريخ الإسلامي: ما المنطلقات والأسس التي اعتمدتم عليها؟**

= المنطلقات عديدة، والمجال لا يتسع حتى لاستعراضها،

ولكن يمكن التأشير على بعضها بإيجاز شديد. فهناك ضرورة اختيار الموضوع البكر الذي لم يستهلك بعد، تجاوزاً للتكرار والتبذير في الطاقة، أو معالجة الموضوع الذي سبق القول فيه ولكن وفق أسلوب يغني المعالجة ويضيف جديداً. وهناك اعتماد منهج أكثر أصالة من خلال احترام الثوابت والمرتكزات الإسلامية والتعامل الجاد معها باعتبارها المنطلقات الأساسية لتشكل وصيرورة التاريخ والحضارة الإسلامية بوقائعهما ومعطياتهما.

هناك أيضاً ضرورة اعتماد سلّم للأولويات، يقدّم الموضوع الأكثر أهمية على المهم على الأقل أهمية، ويسعى في الوقت نفسه إلى تقديم أعمال بنائية بدلاً من ملاحقة الخصوم واستنفاد الجهد في تفنيد مقولاتهم الخاطئة، سواء كانوا مستشرقين أو من أبناء الجغرافية الإسلامية أنفسهم.

ثمّة ضرورة لا تقل أهمية في اختيار الموضوع والتعامل معه، وهو أن يقدم خدمة ما للنشاط الدعوي الإسلامي، في إطار العلم والمنهج وليس خارجهما بطبيعة الحال.

وكان اعتماد «لغة» مناسبة للأداء ضرورة أخرى... لغة تتجاوز موات الأكاديمية وتيبُّسها، ولا تنجرف ـ في الوقت نفسه ـ باتجاه الإنشائية التي لا رصيد لها من العلم. وهي في الحقيقة معادلة صعبة، ولكن لا بدّ مما ليس منه بدّ.

ثمّة ـ أخيراً ـ تلك الشبكة من الشروط، التي عرضتُ لها

في كتابي المتواضع (حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي) يمكن أن تضيف شيئاً على جوابي هذا، وليس ثمة مبرّر لإعادة القول فيها.

❁ ❁ ❁

**ـ تحدثتم في بعض إصداراتكم عن الأدب الإسلامي، ما ردّكم على من ينكر وجود هذا الأدب؟**

= فات الأوان على منكري الأدب الإسلامي وما أكثرهم!! وسُحب البساط، كما يقول المثل، من تحت أقدامهم بعد إذ أصبحت لهذا الأدب مكتبة غنية ببحوثها ودراساتها ومؤلفاتها وأعمالها الإبداعية والنقدية والتنظيرية، وبعد إذ أصبحت له دوريات وصحف متخصصة تنطق باسمه، ومؤسسات تتابع همومه، تقف على رأسها ولا ريب «رابطة الأدب الإسلامية العالمية»، وبعد إذ اخترق هذا الأدب جدران الأكاديمية ونسج في أروقتها عشرات، وربما مئات، من رسائل الليسانس والدبلوم والماجستير والدكتوراه، وعقدت حوله الندوات والمؤتمرات.

ولا يقل عن هذا الإنكار تهافتاً ذلك الجدل العقيم حول المصطلح، وحول ضرورة ألّا يسمى الأدب الذي يحمل الهم الإسلامي أدباً إسلامياً لأنه تحصيل حاصل!! وأن يعتبر الموروث الأدبي العربي بجملته أدباً إسلامياً ما دام قد كتب بأيدي أشخاص ينتمون إلى تاريخ هذا الدين وجغرافيته وحضارته. ويقول بعض هؤلاء ـ أيضاً ـ أن فرض الرؤية الإسلامية على الإبداع هي نوع من القسر أو الإقحام الذي يلحق به الضرر. وهم ينفون ـ بذلك ـ

فكرة أن يكون الأدب ملتزماً، أو هم يقبلون بها إزاء كل المذاهب إلّا مع «الإسلامية»، التي قد لا يرتاحون لأن يكون لها معطياتها الأدبية المتميزة في ساحات الآداب والفنون.

الدوافع كثيرة، بعضها جاد يبحث عن الحق، ولعله يفيء إليه بعد أن يجد نفسه قبالة الوقائع المؤكدة. وأكثرها عابث خبيث بهذه الحجة أو تلك لتأكيد الانفصال بين الإسلام والحياة، حيناً عن طريق التشكيك بارتباطه بالعلم، وحيناً عن طريق فك الارتباط بينه وبين الإبداع... وهكذا والمهم أن قطار الأدب الإسلامي ماضٍ إلى هدفه، وقد اجتاز عبر العقود الثلاثة الأخيرة محطات عديدة، وما سيتحقق في المستقبل القريب ـ بإذن الله ـ أكثر مما تحقق فعلاً.

❁ ❁ ❁

**ـ إلى أين وصلت محاولة تأصيل النقد الإسلامي في الأدب؟**

= لا ريب أنها قطعت شوطاً طيباً على مستويي التنظير والتطبيق. وبنظرة سريعة على حشود المحاولات في المجلات المتخصصة، أو الكتب والدراسات، أو في سياق الدراسات العليا في الجامعات، تتبين للمرء مساحة الجهد النقدي هذا، رغم أنه لا يزال، بخلاف الطبقات الأخرى للنشاط الأدبي الإسلامي، بحاجة إلى المزيد في الكمّ والنوع، وذلك مرهون باثنتين: تزايد المعطيات الإبداعية في مجالات الشعر والقصة والرواية والمسرحية والسيرة الذاتية... الخ، وتنفيذ متابعات نقدية دؤوبة تسعى قدر

الإمكان لتغطية هذه المعطيات. ومن خلال هذا الاحتكاك المباشر بالنص سيجد النقد الإسلامي فرصته للخصب والثراء.

❁ ❁ ❁

**ـ مع تصدع أو زوال الشيوعية، ما رأيكم في مستقبل ما يسمى بالحداثة في ظل تبني الغرب لها؟**

= يطلق مصطلح الحداثة في الأساس على الجهد الأدبي «الغربي» في سياق الإبداع والنقد والتنظير، وهي تنحو في الأعمّ الأغلب إلى كسر الأعراف والتقاليد المتفق عليها في دوائر الأنواع الأدبية، وهذا يقودها إلى تجاوز مبدأ تراكم الخبرة، وإلى التفريط ـ بالتالي ـ بجهود خطوط طويلة من أجيال المبدعين عبر القرون.

أما في مجال النقد والتنظير فتحاول الحداثة اكتشاف صيغ وتقنيات جديدة في التعامل مع النص، في محاولة جادة لتحقيق مقاربة أكثر علمية وموضوعية، وهذا بحدّ ذاته سعي مشروع، بل هو ضروري لإنضاج الممارسة والتقدم بها خطوات واسعة إلى الأمام. ولكنها بإلحاحها على «مطّ» الكشف ومحاولة إرغام كل الجزئيات والخبرات على الخروج من معطفه... بمنح صك «القدسية» للكشف، واعتباره حقاً مطلقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنما تجعله يمارس نوعاً من المصادرة، أو الكهنوتية إذا صح التعبير، إزاء الخبرة الإبداعية التي قد تتأبى على التحديد الصارم باعتبارها خبرة إنسانية تتجاوز المنظور الحسّي إلى عالم الروح والوجدان.

إنها واحدة من الأزمات التي يعاني منها العقل الغربي، والوضعي عموماً، ولذا شهدت الحداثة تيارات شتى راحت تصطرع فيما بينها، كلٌّ يحاول أن يستأثر بالميدان، ثم ما لبثت بعض موجاتها أن تكسرت وتلاشت، وسيجيء الدور على الأخريات.

ومن ثم فإن على أدبائنا ألّا يهرعوا بالكلية لكي يرتموا في تيارها، وأن يكونوا أكثر أصالة وصدقاً مع الذات، ليس برفض خبرة الآخر وكشوفه، التي قد تنطوي على قدر كبير من الأهمية، ولكن باعتماد رؤية انتقائية مدروسة، لا تمرّر إلّا ما ينسجم مع ثوابت المنظور الرؤيوي وشبكته المعقدة.



**ـ الشعر العمودي والشعر الحر... مع أي منهما تقفون، ولماذا؟**

= الشعر العمودي والحرّ كلاهما يعتمدان البحر الواحد وإلّا خرجا عن جلدهما... عن نوعهما الأدبي، فلا يغدوان شعراً. لكن ثانيهما يتجاوز ـ لأسباب فنية ـ هندسة العمود ذي التفعيلات المتناظرة باتجاه قدر من التحرر قد يمنحه الفرصة للتعبير عن مضامين ربما يكون من الصعوبة تنفيذها في القصيدة العمودية.

هكذا يقول أنصار الشعر الحرّ من النقاد والدارسين، ومن الشعراء أنفسهم... قد يكون بعضهم محقّاً، وربما تكون المسألة نوعاً من التساهل قد يأتي على حساب المعمار الشعري الأصيل، ولذا استطاع أنصاف الشعراء وأرباعهم اختراق مملكة الشعر ووضع غثائهم هناك! وقد يكون المحكّ الأخير لشاعرية هؤلاء هو

قدرتهم على صياغة القصيدة العمودية، جنباً إلى جنب مع قصيدة التفعيلة، وهذا ما نفذه بعض كبار الشعراء فنالوا الإعجاب، سواء وهم يكتبون شعراً عمودياً أم حرّاً، لكن أولئك الذين عجزوا عن قبول التحدي ظلّوا في الخط الثاني أو الثالث، محاولين تبرير عجزهم بتنظيرات ما أنزل الله بها من سلطان...

والمشكلة، من جهة أخرى، أن بعض أنصار الشعر العمودي كانوا مثلاً سيئاً للنمط الذي يدعون إليه، فأعطوا بذلك الحجة لخصومهم!.

وتبقى المسألة في قدرة الشاعر على توظيف إمكاناته الفنية العالية في إطار هذا الشكل أو ذاك، وليس في الشكل نفسه، كما تبقى القصيدة العمودية، بمعمارها السامق المتناظر الجليل هي المدرسة الأم التي خرّجت الشعراء الكبار، وهي الواجهة المتميزة للشعر العربي قبالة معطيات الأمم والشعوب الأخرى... ويبقى الحكم، قبل هذا وذاك، للجمهور الذي تلتهب أكفه تصفيقاً في المنتديات العامة للقصدة العمودية، ويكاد يتثاءب وينام وهو يستمع لشعر التفعيلة، الذي قد تكون صفحات الديوان المقروء ساحته الأكثر ملاءمة...

أعتقد أن زمن الجدل المتطاول بين أنصار هذا الشكل الشعري أو ذاك قد انتهى، وآن الأوان لجعل الحكم النهائي ليس بصيغة انحياز إلى هذا الجانب أو ذاك، وإنما قبول «المتألق» و«المؤثر» والقدير على نقل «التجربة» وكهربة الآخرين، بغضّ النظر

عن الشكل الذي ينتمي إليه، ما دام أن الإبداع هو خطاب مرفوع قبالة المتلقي ناقداً كان أم مستمعاً اعتيادياً!.

❁ ❁ ❁

**ـ مصطلح «صراع الحضارات» من المصطلحات التي ظهرت حديثاً. ماذا يعني المصطلح، وما رأيكم فيه؟**

= المصطلح هو بشكل من الأشكال تركيز لكشف ما في هذا الجانب أو ذاك من جوانب الفكر أو التاريخ أو الحياة. وقد لا يكون هذا الكشف جديداً بكليته، وإنما في بعض جزئياته ومفرداته، ولكن «الهوى» البشري يميل دائماً إلى التعميم، ومنح الكشف الصفة الشمولية، وادّعاء القدرة على العثور على الحقائق النهائية.

إن المصطلح ـ عموماً ـ بهذا المعنى يمارس نوعاً من التضليل، وما يقوله مفكر كهنتنغتن في «صراع الحضارات» ليس شيئاً جديداً... فعلى مدار التاريخ كان هناك احتكاك بين الحضارات، يتدرج بين قطبي «الحوار» و«الصراع»، وطالما أتاح هذا الاحتكاك الفرصة للتلاقح الحضاري، لقبول بعض معطيات الآخر وتبنّيها. وبالمقابل كان هناك الرفض الذي قد يصل حدّ الخصومة والعزلة والاصطراع.

وها نحن نشهد منذ البدايات المبكرة للصدمة الاستعمارية وحتى اللحظات الراهنة أنماطاً شتى من التعامل مع حضارة الغرب الغالبة، تدرجت عموماً بين التقبُّل والاستسلام الكامل من جهة، وبين التمحيص والانتقاء من جهة أخرى، وبين الرفض وإعلان

الحرب ضدّ قيمها ورموزها من جهة ثالثة، وللأسف كان هامش التمحيص والانتقاء محدوداً جداً لفترات طويلة، ولذا قدّر لهذه الأمة أن تضيع حيناً في كيان الحضارة الغربية وتفقد هويتها وخصوصياتها، أو أن تدخل نفق العزلة والتخلّف فتفقد الفرصة لمواكبة الحياة والتقدم والتعصير حيناً آخر.

والآن ينهض المسلمون كرّةً أخرى، لكي ينسجوا بقوة هذا الدين وقدرته على الاستمرار والعطاء وانسجامه الباهر مع هموم الإنسان، مشروعهم الحضاري البديل، بعد تساقط جلّ النظم والأنساق الفكرية التي أفرزتها الحضارة الغربية وبلوغها الطرق المسدودة.

هذا المشروع الذي يستمد حيثياته من معطيات الإسلام، وثوابته ورؤيته المتميزة للكون والعالم والوجود، ولكنه لا يغفل البتة عن الإفادة من الحلقات المتفوقة في حضارات الآخرين، وليست الحضارة الغربية وحدها. فلم يكن المسلمون عبر تاريخهم المبكر منقفلين إزاء الآخر، بل إنهم منذ لحظات تشكُّل دولتهم العالمية الأولى في عصر الراشدين قبلوا خبرات الآخر وأفادوا منها.

فالمسألة في نهاية التحليل وبدئه، بالنسبة للأمة المسلمة على الأقل، أكبر من تحجيمها بهذا المصطلح أو ذاك... إنها خارج التنظيرات الصارمة، والرؤية أحادية الجانب، وهي تنطوي على الحوار والصراع معاً... نعم... إلّا أن هدفها الأساس هو صياغة مشروعها الخاص بها ابتداء، وليس كردّ فعل لأية حضارة أخرى.

❁ ❁ ❁

**ـ قتل «رابين» هل يحمل منعطفاً جديداً في حياة اليهود؟**

= يمكن أن يكون حدث كهذا تعبيراً عن رفض قطاع كبير من اليهود المتدينين لسياسات السلام التي تبناها حزب العمل الإسرائيلي، رغم أن هذه السياسات تخدم إسرائيل، بخلاف ما يدعيه الانهزاميون العرب.

والمسألة ـ باختصار ـ تنصبّ على الهامش الضيِّق من الأرض والحرية، المعطى للمستسلم...

(الليكود) لا يريد أن يعطي شيئاً على الإطلاق استناداً إلى رؤيته التوراتية المدّعاة... و (العمل)، بعلمانيته التي تقبل بدرجة أو أخرى التنازل عن بعض المسلّمات اليهودية، يعتمد سياسة: أعطِهِ لقمة أو لقمتين وشغِّله لحسابك!.

ودولة إسرائيل المغتصبة تظلّ في الحالتين الهدف الذي يسعى الطرفان لتأكيده وضمان مستقبله.

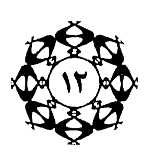
إن تبدُّل الأشخاص في الساحة العربية يعني شيئاً كثيراً، أما لدى الخصم فهو لا يكاد يعني شيئاً، فها هو بيريز الذي يحمل فكر رابين وسياساته، قد جاء مباشرة لكي يحلَّ محلَّه في الفترة المتبقية التي تسبق الانتخابات.

وقد ينعكس الأمر، بدرجة أو أخرى، بالنسبة لتبدُّل الكتل والأحزاب بين الساحتين العربية والإسرائيلية!.

**ويوم أن نجعل استمرارية المبادئ قبل وبعد استمرارية الأشخاص، نكون قد وضعنا خطواتنا في البداية الصحيحة...**

ولما دهش المسلمون لوفاة رسول الله ﷺ وهو ما هو من نبوة ومكانة وتفوق وحضور باهر، أجاب القرآن الكريم بالحسم الإلهي القاطع: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].





**في سنة (١٩٨٧م) أصدرت دار الساقي بلندن كتاباً عنوانه (آراؤهم في الإسلام)، تضمّن حواراً مع أربع وعشرين شخصية من الأدباء العرب، المعروف معظمهم باتجاهاتهم الماركسية أو العلمانية الحادة، بل إن معظمهم يجمع بين الماركسية والمسيحية مثلاً.**

وقد وجهت الدار المذكورة إلى كل واحد من هؤلاء الأسئلة الخمسة التالية وطلبت منهم الإجابة عليها:

**السؤال الأول: هل يحافظ الإسلام حتى يومنا هذا على دعوته الشاملة؟**

**السؤال الثاني: هل يمكن لدولة عصرية اعتماد الإسلام نظام حكم؟**

**السؤال الثالث: هل النظام الإسلامي للحكم مرحلة حتمية على الشعوب العربية أن تمر بها في معرض تطورها؟!.**

**السؤال الرابع: هل تأخذ ظاهرة اليقظة الدينية التي برزت في السنوات العشر الماضية منحىً إيجابياً؟**

**السؤال الخامس: من هو العدو الأول للإسلام حالياً؟**

وقد أجاب الأدباء المذكورون على هذه الأسئلة كل من زاوية رؤيته، وبإيجاز بالغ. وقد جاءت إجاباتهم في معظمها تفتقد الموضوعية والأمانة، وبعضها يفتقد الحدَّ الأدنى من المعرفة بفلسفة الإسلام وجوهره ونظرته للكون والإنسان والحياة، فضلاً عن أصوله التعبدية والتشريعية والأخلاقية وخصائصه العامة التي تجعله ديناً ربانياً متوازناً شمولياً في سياق واحد.

ولقد قام الأخ الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس مدير دار الصحوة للنشر في القاهرة بتوجيه الأسئلة نفسها إلى عدد من الأدباء والمفكرين الإسلاميين، في محاولة مخلصة لإعداد كتاب يقدِّم الإسلام من مصادره، ويبرز حقائقه، ويعرف الناس به وبخاصة المثقفين وطالبي الحق... فبعثتُ إليه بالصفحات التالية في (آب ١٩٩٦م) إثر تسلُّم الأسئلة المذكورة.

سأحاول الإجابة ـ بالإيجاز المطلوب ـ على السؤال الأول والرابع والخامس بسبب الترابط الملحوظ بينها، ولكونها تعنى بالبعد الحضاري الأشدّ إلحاحاً في لحظاتنا الراهنة.

١ ـ الإسلام ـ ابتداء ـ دعوة شمولية وهو غير قابل للتجزئة، لأنه في هذه الحالة سيفقد خصائصه المميزة ويتحول إلى شيء آخر. ومنذ لحظات الدعوة الإسلامية الأولى وإلى أن يشاء الله مضى الإسلام بقرآنه الكريم وسنة نبيه ﷺ يشقّ طريقه في العالم، ويتعامل مع المتغيرات، ويستجيب للتحديات، ويلاحق المستجدات، ويغير الخرائط، ويبني عالمه الجديد برؤية انقلابية

تنطلق من شعار واضح محدد هو شعار **(لا إله إلا الله)**، الذي ينطوي بالضرورة على بُعد شمولي يستهدف التحقق بالتجربة قبالة كل الصنميات والحتميات والرؤى المجزوءة أو القاصرة، في سياقاتها العرقية أو الطبقية أو الاقتصادية أو الجغرافية أو السياسية أو الفكرية أو الثقافية أو الحضارية عموماً...

واليوم، وبنتيجة ما يمكن تسميته بتراكم الخبرة ورصيد التجربة، يزداد تأكُّد الدعوة الشمولية للإسلام، التي تتلقى أكثر فأكثر سيلاً من الممارسات والمعطيات الفكرية، التي تعمق هذا المحتوى الشمولي، فضلاً عن سقوط النظم والأنساق المذهبية الوضعية أو الدينية المحرفة كافة، سواء كانت جزئية أو شمولية، الأمر الذي يؤكد قدرة هذا الدين على الاستمرارية والتغطية المحكمة لمطالب البشرية، فيما عجزت عنه كل المحاولات الأخرى. وهي الظاهرة التي يلحظها ويتحدث عنها العديد من قادة الفكر والثقافة في ديار الغرب من مثل: مارسيل بوازار وروجيه كارودي وأرنولد توينبي وكولن ولسون وجورج سارتون وروم لاندو وموريس بوكاي وكويلر يونغ واتيين دينيه ومونتغمري وات وغيرهم ممن لا يتسع المجال حتى لاستعراض أسمائهم.

إن هذا الدين سيعود كما يقول المفكر القانوني الفرنسي (مارسيل بوازار) «إلى الظهور في العالم المعاصر بوصفه أحد الحلول للمشكلات التي يطرحها مصير الإنسان والمجتمع»، وحينذاك ـ أيضاً ـ سيكون «في وسع العالم الإسلامي ـ من بين

عوالم أخرى ـ أن يقدم مشاركة أساسية في تكوين المجتمع الدولي المرتقب». إن التقدم العلمي المادي، كما يلحظ الرجل في كتابه (إنسانية الإسلام) لا يكفي وحده ما لم تضبطه القيم الخلقية فتوجهه لصالح الإنسان، ومن خلال هذه الرؤية الأخلاقية للنشاط المادي يمكن للإسلام أن يمارس «دوراً حقيقياً في تنظيم العالم المعاصر».

وتبدو أهمية المشاركة الإسلامية أيضاً ـ في نظر بوازار ـ في التوازن الذي يمنحه الإسلام، بما أنه تعبير عن روح ديني، لمسيرة المجتمع البشري بين التقدم المادي والتقني، وبين المطامح الروحية والإنسانية، خاصةً وأن «الانخراط في المجتمع التكنولوجي والمواجهة بين الإسلام والثورة التقنية، لا تدفع المسلم إلى إنكار موقفه الديني بل إلى تعميقه أمام العالم وأمام الله، متوجباً عليه محاولة إدراك الإمكانيات بشكل أفضل في إطار إسلامي شامل».

ويحذِّر الباحث الأمريكي المعاصر كويلر يونغ من أن «عالمنا هذا الذي مزقته الجماعات المحتربة، والذي لا يعرف حكماً أعلى بيده مصير الإنسانية، ليجدر به تصور الوحدة الجوهرية للحياة كما أسسها الإسلام. ولاشك في أن هذه الوحدة في أحسن صورها، سيكون لها أثرها في الحاجات الروحية للناس في أيامنا الحاضرة»، وثمة «نصيب آخر من الفضل للإسلام قد يكون متفرعاً عن سابقه، ذلك هو ما حققه من التسامح بين أجناس

البشر... إن الإسلام ـ في إطار الأخوة الإسلامية ـ يستطيع أن يُري المسيحية نجاحاً حقيقياً فعلياً في ميادين التسامح البشري».

ويقدم روجيه كارودي، المفكر الفرنسي المعروف، في كتابه «وعود الإسلام» ملاحظات خصبة عن احتمالات المشاركة العالمية لهذا الدين. إن عنوان الكتاب يحمل بُعداً مستقبلياً، وإن ملاحظات صاحبه حول مشاركة الإسلام تتحرك على عدد من المحاور أهمها ولا ريب: توازن الإسلام ووسطيته... قيمه الأخلاقية... ثم رؤيته الشمولية وقدرته المتميزة على منح المغزى لمسيرة الحياة البشرية في هذا العالم. ولن يتسع المجال لتقديم الشهادات على هذه المحاور، ولكننا نجد من الضروري تذكُّر السؤال الذي طرحه كارودي في كتابه هذا: «ماذا يستطيع الإسلام أن يقدم لنا ليعدَّنا للإجابة على المسؤوليات التي تفرضها قدرة العلم والتقنية على جميع البشر اليوم؟» وأن نتذكر جوابه: «إن المشكلة كونية، ولا يمكن للجواب إلّا أن يكون على المستوى الكوني».

وهكذا تصير مشاركة الإسلام أكثر من ضرورية، لأنها لن تدخل الساحة لكي تعالج هذه الجزئية أو تلك، ولا لكي تمنح العلاج لهذه المشكلة المحدودة أو تلك، وإنما لكي تعيد تصميم الحياة البشرية بما يردّ إليها قيمتها الحقّة، ويمنحها هدفاً ومغزى، ويربطها بالإنسان نفسه، محققاً التناغم والانسجام بين أقطاب الكون، بعد إذ أقام الفكر الوضعي بينها الأسلاك الشائكة، وكهربها بالكراهية والبغضاء... وهكذا يغدو «بعث الإسلام كبعث

الإنسانية بأكملها» إنها إذن «قضية مستقبلنا، قضية مستقبل جميع البشر». وثمّة ما يستوقفنا في «وعود الإسلام»... شهادة على غاية الأهمية، لأنها تتضمن قاعدة الدور الإسلامي المنتظر، ومنطلقه، ورؤيته للعالم: «**لا إله إلا الله**... هذا الإثبات الأساسي للإيمان الإسلامي، وهو يعني أوّل ما يعني إعلان الحرب على الوثنية وإقصاءها. هذه الوثنية التي تفرخ وتتكاثر في مجتمعاتنا. وإننا لنعرف بالتأكيد ما لشعار (**لا إله إلا الله**) من قوة هدم وتحرير. فالحوار مع الإسلام يمكنه أن يساعدنا على ابتعاث خميرة عقيدتنا الحية فينا، تلك التي تستطيع نقل الجبال من مواضعها» حقاً: «إن الإسلام يحمل بذور تغيير جذري على مستوى الإنسانية».

❁ ❁ ❁

٢ ـ نعم... وبكل تأكيد، وهو أمر يفرض حضوره وثقله المنظور قبالة كل ذي عينين، فهو ليس من قبيل الأماني والأحلام... لقد كان الشيوعيون يوماً يدّعون أنهم «أوسع الجماهير»، ثم ما لبثت قوانين الحركة التاريخية التي حاولوا امتطاءها أن انقلبت عليهم بسبب خطأ موقفهم من الحياة والإنسان والوجود والتاريخ، وبدأت عملية التآكل تعمل عملها،فتضيق الخناق عليهم، لكي ما تلبث الساحة أن تنفتح على مصراعيها للجماهير الأكثر صدقاً مع ذاتها ومع قوانين التاريخ نفسه... إنها جماهير الإيمان والالتزام الأصيل بمطالب هذا الدين، والاستجابة

الواعية لخبرة موغلة في الزمن، ووعد يضع الإنسان قبالة مستقبل أكثر توافقاً وانسجاماً مع مطالبه.

واليقظة الدينية، أو الإسلامية بعبارة أدق، لم تبرز عبر السنوات الأخيرة على حين غفلة، إنما هي وليدة كفاح متطاول يمتد لعشرات العقود كما أنها وليدة حاجة ملحّة وقناعة موغلة حتى النخاع بقدرة هذا الدين على إعادة صياغة الحياة بما يجعلها أكثر انسجاماً وتوافقاً مع مطالب الإنسان. وإذا حدث وأن ظهرت بعض الشقوق أو البثور على جلد الظاهرة، فهذا لا يعني سلبيتها بحال من الأحوال، لأن الاستثناء كما هو معروف يعزز القاعدة ولا ينفيها، والقاعدة هي إيجابية اليقظة المعاصرة وتسلّحها برصيد الخبرة، وبعمق معرفي يزداد حضوراً يوماً بعد يوم.

ويكفي أن ننظر إلى الخارطة الراهنة لعالم الإسلام، لكي يتأكد لنا كيف أن الظاهرة أخذت تشق طريقها بقوة متزايدة في حسابات النوع والكمّ، وتدخل طرفاً فاعلاً في صياغة المصير.

ويجب التذكير بأن اليقظة الدينية لا تنطوي على مجرد برنامج عمل روحي أو تعبدي أو شعائري، كما هو الحال بالنسبة للعديد من الأديان والمذاهب الأخرى، وإنما هي تنسج وتبشر بالمشروع الحضاري البديل، بعد إذ أثبتت كل المحاولات والمشاريع الأخرى عجزها وفشلها.

وأريد أن أقف لحظات عند بعض حيثيات هذا المشروع، لكونه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بظاهرة اليقظة الدينية الإسلامية في

السنوات الأخيرة، ويمثل أحد ركائزها ومبشراتها الأساسية، ويمنحها القدرة على الفاعلية والأداء.

إن هذا المشروع يستهدف مستوى حضارياً على وجه التحديد، فهو ـ من ثم ـ ليس مجرد محاولة روحية أو تعبدية أو سلوكية أو تربوية أو فكرية أو ثقافية أو دعوية أو حركية أو سياسية صرفة، وإنما هو هذا كله... قد تغذي حلقات كهذه بنية المشروع وتزيده قدرةً على التحقق هنا وهناك، ولكنها إذا عملت بمعزل عن بعضها البعض فإنها قد لا تأتي بشيء، (كما حدث بالنسبة للعديد من التجارب عبر القرن ونصف القرن الأخير).

إن المخاطب هنا هو «الأمة» الإسلامية، والمشروع يعني إعادة صياغة أمة بكاملها... تعديل وقفتها الجانحة، وبث روح الإبداع والحركة في مواتها، لكي تمضي على الطريق الصحيح: «الصراط» الذي أراده لها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وممارسات الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان.

المخاطَب هو الأمة التي يراد لها التحقق بمقاصد الشريعة، وتحويل حياتها إلى تعبير أكثر مقاربة لما يريده الله ورسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام)... وهي بالضرورة مهمة شمولية تنطوي على بعد حضاري. بل إن المشروع الإسلامي منذ لحظات تأسيسه الأولى زمن رسول الله ﷺ كان مشروعاً حضارياً، يستهدف الخروج بالناس من الظلمات إلى النور، وابتعاثهم من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد

إلى عبادة الله وحده، ويضع بين أيديهم، بمبادئ كالاستخلاف والتسخير والاستعمار وتحفيز آليات العمل العقلية والحسية والروحية، مفاتيح الإبداع والقوة والفاعلية الحضارية في نهاية الأمر.

على ذلك، فإن المشروع الحضاري يتوجه صوب فضاء واسع، هو فضاء الأمة الإسلامية على امتدادها في الزمن والمكان، ويضع نصب عينيه أنه ليس مجرد سعي مرحلي أو حركة متموضعة في بيئة محددة أو لحظة زمنية، وإنما هو نشاط موصول لتحقيق هدف قد يستغرق أجيالاً بكاملها، لاسيما إذا تذكرنا أن إصلاح حالة خاطئة شديدة التعقيد أشدّ استعصاء بكثير من التأسيس ابتداءً.

إننا هنا إزاء ركام القرون الطوال، وفي الوقت نفسه إزاء الفراغ المفاجئ والانكسارات الدرامية، التي شهدتها عبر نصف القرن الأخير جلً المذاهب والمحاولات الوضعية أو الدينية المحرّفة في الساحة الإسلامية والعالم على السواء. ولن يكون بمقدورنا أن نقنع الآخر بمصداقيتنا الحضارية، بله أن نفلت من جاذبيته القاهرة، ما لم نصنع لأنفسنا النسق الحضاري الذي يستمد مقوماته من الأسس الإسلامية، ويستجيب لمطالب اللحظة التاريخية.

❁ ❁ ❁

**٣ ـ من يكون غير الصهيونية التي تجد في الزعامة الغربية الصليبية للعالم بقيادة أمريكا، الحليف الاستراتيجي ورفيق الرحلة الدينية (المحرّفة)، التي يراد لها أن تلتقي في تياراتها المعلنة**

والخفية: نبوءات التوراة والتلمود ومعطيات الإنجيل؟ من يكون غير المصلحة المشتركة لكلا الخصمين في تدمير عالم الإسلام وحصار الظاهرة الإسلامية التي تقف اليوم، كما يستنتج الخصم، في الخط الأول قبالة عرّابي النظام العالمي الجديد؟

وتحت مظلة هذا النظام ووعوده المضلِّلة تنفذ في اللحظات الراهنة واحدة من أكثر المحاولات المضادة للإسلامية خبثاً ومكراً. ودائماً يكون الوجود الصهيوني في فلسطين هو المحكّ... الثرمومتر الذي تقاس به درجات الحرارة، التي ترتفع وتنخفض وفق ما يريده لها الخصم. ومن ثم فلنا أن نتوقع كيف سيصير هذا النظام الجديد (حصان طروادة)، الذي يتسلل بواسطته حكماء صهيون وساستهم إلى مفاصلنا الحساسة، لكي يتمركزوا هناك ويحيلوا خططهم ومشاريعهم إلى واقع منظور يملك ثقله ويجعل من مدافعته وتضييق الخناق عليه أمراً يكاد يكون مستحيلاً.

❁ ❁ ❁

أخيراً... ثمّة ما يجب أن يقال في ختام هذه التأشيرات السريعة...

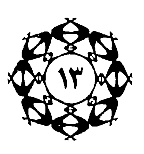
إن معظم المفكرين والمثقفين والأدباء الذين توجهت إليهم (دار الساقي) في لندن بأسئلتها لا يملكون إدراكاً حقيقياً للإسلام ولو في حدوده الدنيا، ومن ثم فإن إجاباتهم ـ بغضّ النظر عن الدوافع الشخصية وشبكة التأثيرات الفكرية والثقافية، وضغط المصالح والارتباطات ـ ستجيء ناقصة مبتورة، وسيكون عرض هذه

الإجابات على العقل الغربي الذي لا يكاد يعرف هو الآخر عن الإسلام شيئاً ذا بال... عملاً منقوصاً لا يعكس بالصدق المطلوب، أو لا يقدم ـ بعبارة أدق ـ إجابات ذات قيمة علمية تستحق الاحترام.

هذا إذا افترضنا حسن النية (!!) التي تكمن وراءها الرغبة الجادة في البحث عن الحق. أما إذا افترضنا سوء النية بالنسبة لبعض الذين أدلوا بإجاباتهم؛ فإن المحاولة ستكون فرصة للتعبير عن المقت والكراهية التي تتآكل قلوب الكثيرين في هذا العالم، لهذا السبب أو ذاك، تجاه كل ما هو إسلامي أصيل. هذا المقت الذي يزداد طردياً مع تزايد انتشار الظاهرة الإسلامية في العالم وتجذرها في الإنسان. ومن ثم فإن إحالة الاستفتاء على المعايير الموضوعية، سوف تكون مستحيلة، وسوف تجعل الإجابات تفقد مصداقيتها مرةً أخرى.

فليس من المعقول بأي شكل من الأشكال أن أستدعي حشداً من الخصوم لكي يدلوا بشهاداتهم تجاه الظاهرة الفذة التي وضعوها ـ ابتداءً ـ في قفص الاتهام، وراحوا يكيلون لها التهم والافتراءات: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].





**أجرى الحوار في الموصل الأخ الصحفي أحمد المعمري (حزيران ١٩٩٦م)، ونشر على حلقات في جريدة (الصحوة) اليمنية (بدءاً من خريف ١٩٩٦م). ومجلة (النور) اليمنية عبر عامي (١٩٩٧ ـ ١٩٩٨م).**

**ـ التطبيع مع اليهود... قلتم عنه أنه نهاية التاريخ... كيف يفهم القرّاء هذه المقولة؟ وكيف تفسرونها من الناحية التاريخية؟**

= لم أقل أن التطبيع هو نهاية التاريخ، بل قلت أن نظرية (نهاية التاريخ) توظف في اللحظات الراهنة لما يسمى بالتطبيع، بما أن النظرية تدعو إلى فكّ الارتباط بين الأمم والشعوب وبين تاريخها... وإلى نوع من التعويم يضع هذه الأمم كافة قبالة تحديات النموذج المادي للحضارة الغربية، وهو نموذج ذرائعي (براغماتي) يرفض القيم ويقوم على معايير التكاثر بالأشياء والتنمية الاجتماعية بمفهومها الضيق.

لقد انتهى التاريخ إلى أن يسلم زمامه للقيادة الغربية بزعامة أمريكا، ولنموذجها التنموي المادي الصرف، وأن علينا نحن شعوب العالم الثالث، إذا أردنا أن يكون لنا على الخرائط الجديدة مكان،

أن ننسلخ عن جلدنا... عن ماضينا... أن نكفّ عن التشبث بخصوصياتنا التي يشكّل التاريخ، جنباً إلى جنب مع العقيدة، نسغها وملامحها... وأن ننخرط، بتعبير غارودي، في سياق حياة يتساوى فيها الجميع قبالة الصنمية الاقتصادية... صنمية التكاثر والتنمية والرفاه الاجتماعي في دائرته المحدودة بالحاجات والضرورات.

وإذا كان الأمر كذلك، فعلام الصراع مع اليهود؟ وهل ثمّة مبرّر لاستدعاء التاريخ المحكوم عليه بالإعدام، لاستجاشة عناصر الكره والبغضاء بين شعوب يتحتم عليها أن تقف معاً قبالة مطالب الحياة الجديدة... الحياة المتسطحة التي تتشكل في مدى الطول والعرض، وتفقد أيما ارتباط بعمقها الزمني... أي بتاريخها؟.



**ـ في كتابك (التفسير الإسلامي للتاريخ) تحدثت عن التفسيرات الآتية: التفسير المثالي، المادي، الحضاري... كيف أغفلت التيار الذي يذهب إلى أن سبب سقوط الحضارات هو سبب أخلاقي، ويدلل بنماذج حضارية كبرى سقطت لأسباب أخلاقية مثل الحضارة اليونانية والحضارة العربية الإسلامية في أواخر العصور العباسية؟**

= لا توجد، حسب علمي، نظرية مستقلة للتفسير الأخلاقي للتاريخ... وكتابي المذكور حاول أن يتعامل مع النظريات الوضعية الأساسية التي أشرت إليها... ومع ذلك فثمّة تأكيد على العامل الأخلاقي يرد في تضاعيف النظريات المذكورة، ومن زاوية رؤية المنظّرين أنفسهم بطبيعة الحال، والتي قد يصعب التسليم بها،

لأنها تُخضع القيم الخلقية لمؤثرات نسبية، فتفقد بذلك موضوعيتها وديمومتها، كما هو الحال على سبيل المثال في سلوكيات البطل في المثالية والطبقة في التفسير المادي.

التفسير الإسلامي يمنح مساحة أوسع للعامل الأخلاقي، سواء في قيام الحضارات ونموِّها، أم في تدهورها وسقوطها، لأنه يرتبط بالإنسان والجماعة البشرية، اللذين هما حجر الزاوية في هذا التفسير... ليس هذا فحسب بل إن العامل المذكور يكسب في التفسير الإسلامي عمقاً أكبر وموضوعية تستعصي على النسبيات والمتغيرات، وبالتالي ديمومة تمكّنه من أداء دوره ومنحه المساحة الكبيرة التي يستحقها في حركة التاريخ؛ بما أنه في الإسلام يتجذر في العقيدة، ويستمد مقوماته من مقاصد الشريعة، والمنهج الإلهي في نهاية الأمر.

❁ ❁ ❁

**ـ يُعدّ المفكر الجزائري (مالك بن نبي) من أشهر المفكرين البارزين في التاريخ المعاصر للأمة، ولكن أفكاره لم تجد الدراسة العميقة والإنصاف الكافي... هل يستطيع الباحث أن يذهب إلى أن ذلك من علامات القصور والخلل في دراستنا الأكاديمية، وعدم مساهمة النخبة في التعريف بالمفكرين الجادين؟**

= لستُ معك في هذا، على الأقل بالنسبة لمالك بن نبي (رحمه الله)، فلقد كتب عن فكره الكثير، داخل الأكاديمية وخارجها، وهنالك العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه التي تعاملت مع

معطياته الخصبة. بل إنه ما من جدل أو حوار في قضايا الحضارة والثقافة التي أفنى عمره في التقعيد لها؛ إلّا ونجد في تضاعيفها صوت مالك بن نبي.

على مستوى الواقع، أو الميدان، كان للرجل دور بارز في الساحة الجزائرية على وجه الخصوص. ولعله يكون أحد كبار صانعي الصحوة الإسلامية الراهنة هناك، تماماً كما كان ابن باديس والإبراهيمي من بعده صنّاع الصحوة الأولى، التي قارعت الاستعمار الفرنسي متمثلة بنهضة العلماء أولاً، وجبهة التحرير ثانياً... فمالك بن نبي حاضر بفكره ـ إذن ـ في قلب الساحة، يصنع الحدث، ويهندسه، ويمنحه النسغ.

لا ينكر أن الرجل لم يأخذ حتى الآن ما يستحقه، لكنه مع ذلك حقق حضوراً مدهشاً في الدوائر الفكرية الإسلامية، وآخر كتاب صدر عن فكره هو ذلك الذي نشره المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن بعنوان: «فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي» للدكتور سليمان الخطيب، وقد نشر قبل ثلاث سنوات.

على أية حال، فإن مفكرين إسلاميين آخرين قد تنطبق عليهم مقولتك، ولا تزال معطياتهم في الظلّ لم تدرّس أو توظّف بما فيه الكفاية... ويحدث أحياناً أن يتحرك الدارسون باتجاههم بعد أن يكون هؤلاء قد غادروا الحياة!! ولكن لا بأس ما دام موتهم قد ألقى في البحيرة الراكدة حجراً وآثار بعض التصاديات حول أفكار قد تكون ذات غناء كبير للفكر الإسلامي المعاصر.

من هنا يدرك المرء القيمة الأدبية والفكرية لمحاولة دار الصحوة في القاهرة إصدار كتاب تكريمي عن الشيخ الغزالي (رَحِمَهُ اللهُ) قبل وفاته بعقد من الزمن، بمناسبة بلوغه السبعين، وقد أتيح لي أن أكتب إحدى حلقاته بفضل الله... وكذلك محاولة كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية في جامعة قطر إخراج كتاب تكريمي عن حياة الشيخ القرضاوي وفكره وأدبه (أمدّ الله في عمره)، والذي كُلِّفت بكتابة أحد فصوله فلبيتُ الدعوة بغبطة بالغة... أما نجيب الكيلاني (رَحِمَهُ اللهُ)، فلم يتلق التكريم إلّا بعد وفاته.

ومرةً أخرى... لا بأس... ما دامت محاولات كهذه تمنح الفرصة للإيغال في دراسة المعطيات الإسلامية المعاصرة، وتوظيفها من أجل المزيد من التقويم والترشيد. ولكن تبقى المحاولات مجرد بقع محدودة على خارطة واسعة... بينما في الغرب، وحتى خارج دائرة الإسلاميين في ديارنا، يحدث العكس، حيث تتم التغطية بأبعادها كافة لجلّ المساحات.

❁ ❁ ❁

**ـ هناك الكثير من الباحثين والدارسين يذهبون إلى أن إطلاق وصف علم التاريخ هو من باب المجاز أو التمنّي ليس إلّا... الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل كمؤرخ، كيف يرى الأمر؟ هل هو مع علمية التاريخ أم مع الرؤية الذاهبة إلى أن التاريخ لمّا يصبح علماً بعد؟ أم أنه في منزلة بين المنزلتين؟**

= ربما يكون التعبير الأخير مناسباً، فهو بالفعل في منزلة

بين المنزلتين! ذلك أن التاريخ علم «إنساني» وليس علماً صرفاً أو تطبيقياً، وبالتالي فهو علم احتمالي غير منضبط كالعلوم المذكورة. وهذا لا يقتصر على التاريخ وحده، وإنما على جلّ المعارف والعلوم الإنسانية كالنفس والاجتماع والسياسة والإدارة والاقتصاد... الخ. حيث يصعب ضبط الظواهر الخاضعة للدراسة والوصول إلى نتائج نهائية قاطعة.

والذين تصوروا ذلك من كهنة العقل الغربي ووضّاعيه، وقعوا في الخطأ، وتعرضت كشوفهم وادّعاءاتهم للاهتزاز والتغيير وربما السقوط.

ثمّة هامش واسع للاحتمال في دائرة البحث التاريخي، كما هو في الدوائر الإنسانية قاطبة. وكما قلت فإن الإنسان فرداً وجماعة هما موضوع هذه العلوم ونقطة الاستقطاب فيها. والإنسان ليس طبقة ثنائية الأبعاد، ولكنه شبكة معقدة يصعب إخضاعها للاختبار النهائي. وإذا كان العلم الصرف قد قطع خطوات واسعة في إدراك أسرار الطبيعة والكشف عن ظواهرها، فإن العلم الإنساني لم يقطع سوى مسافات محدودة... محدودة إلى حدّ كبير... ولذا يتحتم ألّا يأخذنا الغرور إلى الحدّ الذي نتصور معه أننا قد أحطنا بالتاريخ علماً... ولسوف تظل هناك مساحات واسعة جداً من تاريخ البشرية بحاجة إلى الكشف والتحقيق... وجلّ البحوث التاريخية ـ إذا أردتَ الحق ـ لم تفعل بأكثر من تنفيذ مقاربة ما للواقعة التاريخية، أما الاحاطة بها علماً فأمر يكاد يكون

مستحيلاً إذا أردنا أن نتواضع قليلاً. ولست أدري كيف تحضرني الآن لجاجة أحد أساتذة علم الآثار في محاولة محاكمة المعطيات القرآنية التاريخية على الكشوف الآثارية، والوصول بالتالي إلى نوع من التشكيك الساذج ببعض تلك المعطيات!.

كثيرون ممن أصيبوا بنوع من الورم السرطاني في حلقات المعارف الإنسانية وقعوا في الخطأ نفسه، ووصلوا ـ بالضرورة ـ إلى نتائج خاطئة، ورحم الله المتنبي القائل مخاطباً سيف الدولة الحمداني:

**أعيذها نظرات منك خاطئة    أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم!**

وعلى سبيل المثال، فإن ماركس وأنغلز بنيا مساحات واسعة من بحوثهما على دراسات مورغان عن قبائل أروكوي وكتاب جورج لودفيغ فون ماورد عن التقاليد البلدية وعادات الأراضي الزراعية عند قدامى الألمان. في تلك المرحلة السحيقة من الزمن، حيث يبدو كل شيء غامضاً ومغطى بالضباب، فالمرء يمكن أن يثبت أي شيء ويبرهن على أي شيء بواسطة المادة المعطاة فيهما، فهي يمكن أن تحرف بسهولة لأجل الوصول إلى نتائج كانت في الذهن بادئ الأمر.

وعلى سبيل المثال أيضاً، فإن بمقدور المرء أن يتذكر العبارة المعروفة للاقتصادي البولندي أوسكار لانكه، أحد أكبر أخصائيي الدول النامية، وهو يستعرض جهود الكتّاب الذين اهتموا بدراسة اقتصاد مجتمعات ما قبل الرأسمالية منذ عصر ماركس وحتى

عصور بورشييف، حيث يقول: «لكن هذه الدراسات جميعها مفككة، لذلك فإن الاقتصاد السياسي للنظم الاجتماعية ما قبل الرأسمالية لمّا يخرج بعد إلى حيّز الوجود؛ باعتباره فرعاً منظماً من فروع الاقتصاد السياسي».

لا ينكر أن هناك وقائع ومساحات من التاريخ البشري يمكن التوصل بصددها إلى يقين قاطع بسبب توفر المادة والشروط وأدوات العمل المنهجي، لكن التاريخ بعامة لن يكون بأكثر من علم احتمالي يصعب عليه الوصول إلى اليقين في كل الميادين.

❁ ❁ ❁

ـ الأستاذ الفاضل عمر عبيد حسنة في تقديمه لكتابكم (رؤية إسلامية في قضايا معاصرة) (١٩٩٥) يذهب إلى **الاعتراض على التصدي للقول والإفتاء دون علم بأصول الفتوى والفقه**، وبالمقابل يذهب بعض العلماء والباحثين العرب في علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الإنسان (الأنثروبولوجي) إلى **الاعتراض على كثير من الطروحات والرؤى النقدية الصادرة من الناقدين للفكر الغربي والفلسفة الغربية.** وحجة هؤلاء أن الناقدين يصدرون أحكاماً ولا يناقشون أفكاراً، أي أنهم قضاة وليسوا باحثين، كما أن الكثير من النقد لا يستند على علم بمجال ومحيط الأفكار والطروحات التي ينتمي إليها العلم، (كعلم النفس ونقد فرويد وعلم الاجتماع ونقد دركايم على سبيل المثال). هذا إلى أن الكثير من الناقدين الذين ينطلقون من الرؤية الإسلامية يعممون ولا يخصصون.

= لا أعتقد أن أحداً يجادل في اعتراض الأخ الأستاذ عمر عبيد حسنة بخصوص الإفتاء بدون علم بأصول الفتوى والفقه. أما التصدي للقول في هذا الجانب أو ذاك من الفكر الإسلامي فلا يقتضي ـ بالضرورة ـ إلماماً بهذه الأصول. بمعنى أن الباحث في التاريخ الإسلامي أو الفن الإسلامي أو الثقافة الإسلامية أو الحضارة الإسلامية عموماً، أو مقارنة الحضارات... إلى آخره ليس ملزماً أن يكون فقيهاً بالمفهوم الاصطلاحي، وإلّا حكمنا بالإعدام على أربعة أخماس المكتبة الإسلامية المعاصرة. وبالمقابل فإنه يتحتم عليه أن يكون فقيهاً ـ بالمعنى اللغوي ـ بمقاصد الشريعة وثوابتها، إذا أراد أن يجعل جهده البحثي في دائرة الإسلامية لا خارجها أو في تضاد معها.

ومع ذلك، فإن هذه الإشكالية بحاجة إلى وقفة، بل وقفات طويلة متأنية، لتحديد خرائط العمل من أجل تجاوز المنزلقات والوقوع في الخطأ.

أما اعتراض الباحثين الذين أشرت إليهم بخصوص التعامل مع نتائج ومعطيات العلوم الإنسانية التي قدمها العقل الغربي، فإن هناك الكثير مما يمكن أن يقال. ولكن من أجل ألّا ينفسح مجال الحديث بأكثر مما يجب فأضطر إلى الإيجاز.

ابتداءً فإنني أرفض القول بأن ناقدي الفكر الغربي يصدرون أحكاماً ولا يناقشون أفكاراً، وأنهم قضاة وليسوا باحثين، وأن الكثير من نقدهم لا يستند على علم بمجال معطيات العلم الغربي، وأنهم يعممون ولا يخصصون.

كيف؟ ونحن نجد قبالتنا سيلاً من المؤلفات التي كُتبت بأيدي متخصصين، أفنوا أعمارهم في الفروع التي تخصصوا فيها، وأوغلوا في دروبها ومنحنياتها، وأصبحت كشوفها بالنسبة لهم أمراً واضحاً محدداً، ومن ثم تجيء استنتاجاتهم بخصوصها وفق ضوابط وشروط المنهج العلمي لا خارجهما. وبمقدورك ـ على سبيل المثال ـ أن ترجع إلى تلك المجموعة الرصينة من الدراسات والبحوث التي قدمها أساتذة اجتماع متخصصون في مؤتمر عُقد في الخرطوم قبل سنوات قلائل حول التأصيل الإسلامي لعلم الاجتماع.

وما يقال عن دائرة علم الاجتماع يمكن أن يقال عن دوائر أخرى كعلم النفس والسياسة والإدارة... إلى آخره. ومن الضروري أن نتذكر ها هنا الجهود القيمة، التي بذلتها ولا تزال مؤسسة فكرية كالمعهد العالمي للفكر الإسلامي بخصوص إسلامية المعرفة في دائرة المعارف والعلوم الإنسانية (الاحتمالية)، التي اجتهد فيها العقل الغربي فوصل إلى نتائج بعضها صحيح وبعضها خاطئ، ونحن لسنا ملزمين بقبول الخطأ، لسنا ملزمين بإضفاء حالة القداسة على الكشف الغربي في المعارف الإنسانية، وهو كشف احتمالي، وعلينا أن نتذكر كذلك أن الأسس التصورية التي انبثق عنها الكثير من تلك الكشوف تتناقض ـ ابتداء ـ مع ثوابت الإسلام ومرتكزاته الأساسية.

وقد عفى التاريخ ولا يزال على حلقات كثيرة من تلك

الكشوف، التي ادعى أصحابها وتلامذتهم أول مرة أنها علمية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها (ولنتذكر على سبيل المثال اشتراكية ماركس وانغلز العلمية، وبعض استنتاجات فرويد في تحليلاته النفسية، ووجودية سارتر، ومثالية هيغل... الخ). والمهم أن الذين يدرسون العلم الغربي وينقدونه، أو بعبارة أدق ينقدون بعض حلقاته ليسوا مجموعة من الصحفيين أو أنصاف المثقفين، وليسوا مجرد وعاظ أو خطباء جمعة، كما قد يخيَّل للبعض، وإنما علماء متخصصون ـ وأشدد على الكلمة ـ التي يمكن أن تجد مصداقيتها فيما تشهده الساحات الإسلامية داخل المؤسسات والأكاديميات والمؤتمرات من أنشطة ينفذها علماء وباحثون، وليسوا قضاة، وهم يملكون رؤية نافذة وإلماماً علمياً دقيقاً بالفرع الذي يتعاملون معه.

وإذا كان قد حدث وأن مارس بعض الكتاب الإسلاميين نوعاً من المصادرة بحق الفكر الغربي، فإنهم على أية حال لا يمثلون التيار كله، وإن كان حتى هؤلاء لا يصدرون مقولاتهم من عند أنفسهم، وإنما بالاستناد إلى مناط الحكم وهو في أغلب الأحيان يتعامل بمنطق العلم مع الظواهر والكشوف والاستنتاجات ولا يقوم على الظن والتخمين والهوى.

وثمّة فارق كبير بين الكشف الغربي في دائرة العلوم الصرفة أو التطبيقية شبه المؤكدة، وبين هذا الكشف في دائرة العلوم الإنسانية (الاحتمالية). ويكفي أن نتذكر أن العقل الغربي نفسه،

وهذه إحدى نقاط تألقه، طالما مارس النقد فغيّر وبدّل في نتائج الكشوف المعرفية الإنسانية، بل إنه مضى إلى ما هو أبعد من هذا، فأسقط من الحساب أنساقاً من الكشوف، وأحلّ أخرى محلّها... فلماذا لا ينصبُّ عليهم الاتهام هم كذلك بأنهم يتحولون من دائرة العلم إلى ساحة القضاء؟

❁ ❁ ❁

**ـ بم توحي إليك هذه المنظومة من المفردات: قيمة الوقت، احترام العمل، الإنجاز، الإبداع والابتكار، النظام، التخطيط، الصدق، الجدية، الدقة، الإتقان؟!.**

= إننا مغلوبون حضارياً، ما في هذا شك، ولعل أحد أسباب تفوّق الغربيين علينا أنهم عرفوا كيف يوظفون المفردات المذكورة في أقصى وتائرها، بينما فرّطنا بها نحن أو تعاملنا معها في مستوياتها الدنيا منذ زمن أفولنا الحضاري قبل عدة قرون. وكان رسول الله ﷺ قد علّمنا شيئاً آخر غير هذا وتقاليد أخرى غير هذه، وأعطى عبر سنيِّ رسالته مثلاً منظوراً على القدرة المذهلة على الإنجاز!.

إن الفارق بيننا وبين الغرب المتفوّق يزداد بحسابات الكمّ والنوع سنة بعد أخرى وعقداً بعد عقد... واللحاق بالآخر، أو مقاربته في الأقل، ليس أمانيَّ وأحلاماً، وإنما هو في جوهره جهد مكثف وإنجاز متواصل وسعي جاد، يعرف كيف يتعامل مع الزمن وكيف يمزج الليل بالنهار...

وما لم نتحقق بهذه الوتائر العالية من الإنجاز الذي ينطوي على الاحسان والإتقان والإبداع، فإن ألف سنة من التعبّد المنفصل عن الحياة... المجرد عن الفاعلية والدفع والإنجاز؛ لن تتقدم بنا خطوة واحدة باتجاه تقليص المسافة بيننا وبين الخصوم: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ [الرعد: ١١].

ولقد علّمنا رسول الله ﷺ كيف يكون عمر الإنسان المحدود فرصة للإنجاز والإبداع، وكيف يجعل من الثلاثة والعشرين عاماً التي أمضاها في دائرة النبوة مجالاً حيوياً لواحدة من أكثر التجارب البشرية في التاريخ فاعلية وعطاءً... بل أكثرها على الإطلاق!.

إن مايكل هارث، العالم والباحث الأمريكي المعروف، والذي أمضى السنوات الطوال في دراسة أكثر مائة شخصية عالمية تأثيراً في التاريخ، أي فاعليةً وإنجازاً، خلص من خلال اعتماده منظومة من الشروط والمعايير إلى أن محمداً بن عبد الله ﷺ يقف في قمة هؤلاء المائة، ويحتل المركز الأول دون منافس على الإطلاق. ذلك أنه إذا كان التسعة والتسعون الآخرون قد حققوا إنجازاً كبيراً، فإنما كان محصوراً في جانب محدد من جوانب الحياة...

أما رسول الله ﷺ، فقد مضى لكي يجعل إنجازه يغطي مساحات الحياة جميعاً، فيما لم يقدر عليه ولن يقدر إنسان ما في هذا العالم.

وقال هارث: «إن اختياري ليكون في رأس القائمة التي تضم

الأشخاص الذين كان لهم أعظم تأثير عالمي في مختلف المجالات، ربما أدهش كثيراً من القراء... ولكن في اعتقادي أن محمداً ﷺ كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي».

وقال: «لقد أسس محمد ﷺ ونشر أعظم الأديان في العالم، وأصبح أحد الزعماء العالميين السياسيين العظام... ولقد كان يختلف عن المسيح بأنه كان زعيماً دنيوياً فضلاً عن أنه زعيم ديني، وفي الحقيقة إذا أخذنا بعين الاعتبار القواعد الدافعة وراء الفتوحات الإسلامية، فإن محمداً ﷺ يصبح أعظم قائد سياسي على مدى الأجيال». ويخلص هارث إلى القول «بأن هذا الاتحاد الفريد الذي لا نظير له للتأثير الديني والدنيوي معاً، يخوّل محمداً أن يُعتبر أعظم شخصية مفردة ذات تأثير في تاريخ البشرية».

إن دارسي السيرة يعرفون جيداً كيف أنه ﷺ كان يخطف النومة واللقمة لكي ما يلبث أن يستأنف جهده الموصول من أجل مزيد من العطاء أليس هو القائل: «من تساوى يوماه فهو مغبون؟»... إنه لا يريد لأي من أتباعه أن يظل يومين متتاليين على ما هو عليه... بل أن يتحرك ويتغيَّر ويوظف عامل الزمن من أجل المزيد من الإنجاز... أو ليس هو الذي علّمنا أن نواصل السعي في الأرض، وإعمارها، حتى ونحن نستمع إلى نفير الصور يوم القيامة: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألّا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها فله بذلك أجر»!.

العمل والإنجاز حتى اللحظة الأخيرة... وكتاب الله يصف المؤمنين الجادّين بأنهم: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٦١]، وأنهم ﴿لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]... إننا هنا بصدد مفردتين تحملان دلالتيهما الزمنيتين، المسارعة والسبق... والخيرات ليست فقط صدقات تدفع أو صلوات تؤدى، ولكنها كل عمل يُراد به وجه الله.

ألم يحدثنا كتاب الله ﷻ في أكثر من سورة كيف أن الأرض والسماء سُخِّرت بنواميسها وكنوزها وطاقاتها الظاهرة والمخبوءة لكي يتعامل معها الإنسان فيزيد الحياة رفاهية وتطوراً وعمراناً؟ ألم تحدِّثنا آية كريمة في سورة الحديد كيف أن الله ﷻ أنزل الحديد ليكون طاقة للبناء السلمي والإعداد العسكري على السواء، أي لتنمية الحياة وحمايتها من التخريب والإفساد في الوقت نفسه: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [الحديد: ٢٥].

الحديث يطول والوقت لا يتسع للمزيد، ويكفي أن نتذكر كيف أن رسول الله ﷺ حتى وهو يتهيأ للرحيل عن الدنيا كان يجهز جيش أسامة ويبعث به إلى فلسطين... أتراه كان يريد أن يقول بأن على أتباعه أن يواصلوا المسيرة الصعبة دونما أي توقف وبمواجهة كل التحديات، وأنهم ـ بدون ذلك ـ لن يكونوا أو يكون لهم موطئ قدم في هذا العالم؟.

فلنكفَّ إذن عن التباكي على حظوظنا وتخلُّفنا... لنكفَّ عن تعليق أخطائنا وهزائمنا على مشاجب الآخرين، ولنتذكر كيف أن

المسلمين الرواد من صحابة رسول الله ﷺ لما هزموا في (أحد) وتساءلوا: لماذا ونحن جند رسول الله ﷺ؟ كان جواب القرآن قاطعاً حاسماً لا مهادنة فيه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

❀ ❀ ❀

ـ يلاحظ أن كثيراً من النتاج الفكري بل وبرامج بعض الأحزاب والجمعيات التي تنطلق من الإسلام تلجأ إلى التبرير وإلى التاريخ في الأغلب رغم أن التاريخ يحمل الغث والسمين ولنأخذ نماذج على ذلك:

نظام الحكم في بلاد المسلمين على مدار التاريخ الإسلامي بعد زوال الخلافة.

التعامل مع المعارضة للحكم والسلطة.

المذهبية والحزبية...

العلاقة بين السلطة والعلماء...

**يا ترى هل نحن بحاجة إلى أسلوب جديد في التعامل مع واقعنا، ومستقبلنا؟.**

= قبل أن نرجع إلى التاريخ لإضاءة بعض تساؤلاتك، أعتقد أننا نتفق على أن التاريخ ليس هو الحكم الفصل في التعامل مع الواقع وصياغة المستقبل.

نعم... إن التاريخ هو خبرة مترعة بالقيم والتعاليم، ولا بدّ من الاستهداء بها لاختزال الكثير من الجهد والوقت وتجاوز مأساة

التجربة والخطأ... كما أن الإنسان لا يستطيع أن ينسلخ عن جلده، عن ماضيه الذي يمارس دوراً كبيراً في تشكيل شخصانية الأمم والشعوب... لكن هذا كله يتحتم ألّا يمنح التاريخ سلطة قسرية ترغم الأمة على الخضوع لمطالبها...

ومنذ عصر الرسالة كان القرآن الكريم قد دعانا إلى التحرّر من سلطة التاريخ ونادانا مرّتين: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١]. كما أنه أدان المشركين بتشبثهم الأعمى بتقاليد الآباء والأجداد: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] ويتحداهم القرآن بلسان الرسول ﷺ: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤] فما يكون منهم إلّا أن يزدادوا التصاقاً بالتاريخ واحتماءً به من رياح التغيير الشامل الذي أرهص به الدين الجديد: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١].

أعتقد أننا نتفق على هذا كله خاصةً وأننا نملك عقيدة ليست كالعقائد وشريعة حيوية قديرة على التحرّر من أسر التاريخ والتموضع في أي زمن أو مكان، وإعادة صياغة الواقع والمستقبل دون أن تشلّها عن العمل أوقار الماضي وسلبياته.

لنرجع قليلاً إلى التاريخ لنرى كيف أنه ينطوي ـ إذا استخدمنا تعبيرَكَ ـ على الغث والسمين، وأن السمين يمثل مساحات واسعة منه والحمد لله، وليس كما يتوهم البعض.

هذا إلى أن تاريخ أية أمة ينطوي على السياسي والحضاري

معاً... فإذا كانت بعض الجوانب السياسية في تاريخنا معتمة أو رمادية؛ فإن الجوانب الحضارية تمثل الصفحة البيضاء في هذا التاريخ... الصفحة المترعة بالقيم والدلالات الإنسانية التي ما عرفها تاريخ أمة في الأرض كما عرفها تاريخنا.

ولعلّي أرجع إلى هذه المسألة عبر هذا الحوار. والمهم، ألّا نقع في خطيئة وضع البيض كلّه في سلة واحدة، كما يقول المثل المعروف، وألّا نُخضع التاريخ، وهو خبرة إنسانية حية، للمسطرة والفرجال.

والآن فإنني أريد أن أؤشر على بعض ملامح الخبرة السياسية في تاريخنا بخصوص إشكالية السلطة فحسب، وإلّا فإن الحديث سيتشعب وسيبعُد بنا كثيراً...

فلقد تقلّب تاريخنا بخصوص هذه المسألة بين أنماط شتى، وكانت هناك أقطاب عديدة تمارس دورها قبالة تحديات السلطة وشروطها ومطالبها: أصحاب السلطة أنفسهم، والأحزاب، والجماهير، والظروف التاريخية، والعلماء أو قادة الرأي.

ولا بدّ من وضع هذه الأقطاب جميعاً في الحساب ونحن نتحدث عن الموضوع، لأن أياً منها لم يغب عن الساحة حتى في أشدّ الظروف حلكةً وقسوةً، ولأن بعضها استطاع أن يسجل مواقف تحسب لهذا التاريخ بغضّ النظر عن النتائج المتحققة.

لنرجع إلى البدايات المبكرة لتداول السلطة في العصر الراشدي فماذا سنجد؟

تجربة شورية انتخابية، قدمت صيغة فريدة للتعددية السياسية التي تعتمد الحوار والانتخاب الحر.

وهي تجربة لم تتخلق في الفراغ، ولا بدّ أن نتذكر الدور المؤثر الذي مارسه كتاب الله وتعاليم رسوله ﷺ وممارساته في تكوين ذلك الوعي السياسي، الذي أعان طلائع المسلمين على مجابهة التحديات المبكرة للسلطة وطرائق الحكم، وتنمية الحسّ الشوري في نفوسهم...

إلّا أن التجربة (الراشدة) ما لبثت أن انطوت ـ كما تعلم ـ لأسباب ليس هذا أوان الحديث عنها، وجاء دور النظام الوراثي الذي يتحتم ألّا نعتبره شرّاً كلّه، فلقد تضمَّن العديد من حلقات الايجاب، إلّا أن هذا يجب ألّا يدفعنا إلى الوقوع في مظنّة الوهم الذي طالما صوّر السلطة أو القيادة الإسلامية كما لو كانت أمراً مقدساً أو تفويضاً إلهياً. فإن أية سلطة في مدى عالم الإسلام ما أن تنحرف بهذه الدرجة أو تلك، وما أن تتأبّى على النقد والتقويم والرجوع إلى الجادة، حتى يغدو على المسلمين أن يثوروا لتحقيق ما عجزت الكلمة والحوار عن تحقيقه. ولقد كانت هذه المسألة بمثابة بداهة واضحة في أذهان المسلمين وحسّهم، تماماً كما كانت واضحة في عقل القيادة الراشدة وسياساتها، وأن كلمات الخليفة الأول أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) والتي يعرفها الجميع لتختصر المسألة كلها بالحسم المطلوب.

إن المسلمين كانوا مدعوين دائماً لأن يرفضوا إطاعة السلطة

لحظة اعوجاجها وخروجها عن الطريق، كما أكد ابن الخطاب (رضي الله عنه)، وليس العكس أبداً كما يخيل للكثيرين.

وبموازاة التوجهات الوحدوية في تاريخ الإسلام، تشكلت صيغ شتى للتعددية، على مستوى السلطة، حيث ظهرت بمرور الوقت الدويلات والكيانات المحلية... على مستوى المذهب والمنظور السياسي، حيث قامت الكتل والأحزاب.. على مستوى الفقه، حيث تبلورت المذاهب والمدارس والاتجاهات... وعلى مستوى الأمة، حيث تميزت البيئات والأقاليم والجماعات والأقوام والشعوب بخصوصياتها الثقافية وتراثها... وفي كل الأحوال، وفيما عدا الاستثناءات التي تعزز القاعدة ولا تنفيها؛ كانت التعددية عبر هذه السياقات تتوافق مع التوجهات الوحدوية والثوابت العقدية للأمة الواحدة ومطالبها التاريخية، ولا تعمل بمعزل عنها، أو على النقيض منها.

لقد كانت الدولة تملك سلطتها، وكذلك الفقيه والجماعة أو الجماهير، لكن هذه السلطة ما استعملت ضد التعددية كمبدأ، إنما ضد بعض أنماط التعددية التي أريد لها أن تمضي بالمحاولة إلى أقصى الطرف الآخر، وأن تعزلها في نهاية الأمر عن عقيدة الأمة ووحدتها وهمومها المصيرية.

وإذا كانت الدولة في بعض الأحيان تعتمد سلطتها لمصادرة التعددية إذا شكلت تحدّياً ما لأمنها وسيادتها؛ فإن الفقهاء والجماهير وجدوا في التعددية فرصة طيبة للتحقق بالتنوع

والخصب والعطاء، وللتعبير عن الذات في دائرة الإسلام نفسه، وليس بعيداً عنه.

ويجب أن نتذكر ونحن نتحدث عن السلطة وحرية اختيار الموقف وتنوّعه في تاريخ الإسلام عبر مجراه الطويل؛ أن هذا التاريخ لم يشهد، إلّا في مساحات محدودة منه فحسب، ما اصطلح عليه في العصور الحديثة «بالثقافة الموجهة»، أي تدخُّل السلطة في النشاط الثقافي وإرغامه على التوجه في قنوات محددة. بل كانت القضية في معظم الأحيان اختياراً حرّاً لم تضبطه إلّا المعايير الطوعية للعقيدة الإسلامية نفسها في الأخذ أو الرفض، أو في التبديل والتحوير.

وامتداداً لانحسار دور السلطة أو المؤسسة في تحديد مسار النشاط المعرفي للمفكرين والعلماء المسلمين، إبداعاً أو تقبُّلاً عن الغير، لا بدّ من التأشير على واحدة من أكثر ميزات التاريخ المعرفي للمسلمين أهمية، والتي تنبثق ـ كما هو واضح ـ عن المنظور المعرفي للإسلام وتوجهه الأساسي في الكشف والتنقيب، ودعوته الملحّة للتلاؤم بين العقل والإيمان واعتبار أوّلهما أداة ضرورية لتعزيز الثاني وتأكيده. تلك هي أن تاريخنا المعرفي لم يشهد أيَّما إدانة أو ارتطام بين السلطة والمؤسسة وبين العالم الذي يكشف حقيقة ما، أو يطرح نظرية، أو يصوغ قانوناً أو يبتكر مفردة في سياق نشاطه العلمي.

إن كشفاً ما في الفلك أو الكيمياء أو الرياضيات، أو

الجغرافيا أو الطب أو النبات أو الحيوان... الخ لم يَقُدْ صاحبه يوماً إلى المحاكمة أو رأسَه إلى الجلاد، مما شهدته الساحة الأوربية (غاليلو، كبلر، برونو... الخ)، بل على العكس، كان الكشف في معظم الأحيان فرصة لتأكيد الإيمان لا لنفيه أو إدانته. ولقد كانت هذه الحقائق والممارسات جميعاً فرصة لمزيد من التنوع والخصب الفكري والعلمي لا بدّ من وضعه في الحساب ونحن نتحدث عن العالم والسلطة باعتباره رصيداً مضافاً لحرية الفكر والعلم في تاريخنا.



ـ عندما يتحدث بعض المثقفين والمفكرين العرب والمسلمين عن التطرف الديني والتعصب (أحياناً) ينقلون نقلاً أوتوماتيكياً ما تقوله أجهزة الاستخبارات الغربية (الأمريكية على وجه الخصوص)، والاستخبارات تعتمد على مراكز أبحاث ودعاية وأجهزة إعلامية وامكانيات هائلة، إلى حد أنها تتمكّن من عمل غسل دماغ تمرّر من خلاله مصطلحات تنطبق على مطلقيها. ولنأخذ كمثال حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين المحتلة... إنهما ـ إذا أردنا الحق ـ تقاومان التطرف والعنصرية والاحتلال الإرهابي الصهيوني... **إذن... من هو المتطرف؟ المعتدي أم المدافع عن وجوده وكيانه؟!** لنقف ملياً لكي ندرك إلى أي مدى نحن بحاجة فعلية لنكون على وعي (بنزيف الوعي) الذي يمارس ضد أمتنا المنتهكة... **فكيف**

**السبيل لمقاومة ما يمكن تسميته (بتشريط بافلوف) لقتل المعنويات والذي تمارسه مئات الوسائل الإعلامية القوية؟! وكيف يقاوم العالم والباحث عمليات غسل الدماغ وتزييف الوعي؟**

= هذا سؤال ينطوي على جوابه... ربما تكون نقطة الارتكاز فيه ذلك المبدأ المعروف في علم النفس، والذي أشرت إليه قبل قليل: «تشريط بافلوف»، أو «الاقتران الشرطي»، الذي أكده بافلوف عبر سلسلة طويلة من التجارب.

إن الإنسان المعاصر يجد نفسه قبالة شبكة من المؤثرات المصنوعة بعناية، والتي يتم التأكيد المتواصل عليها إلى حدّ الإلحاح، بغضّ النظر عن موضوعيتها... وبمرور الوقت يصبح ممكناً أن يكون (الواحد + واحد) يساوي (ثلاثة)، ويتم التصديق بالحاصل الجديد، وقد يأخذ ـ أحياناً ـ طابع القداسة.

ليس هذا المهم في اللعبة، لأن الخطأ قد يُكتشف في أية لحظة، إنما المهم هو تغذية النتيجة الموهومة هذه بسلسلة من القرائن الموضوعية، التي تغطي على نقطة الارتكاز الخاطئة تلك، فيصدقها الناس بمجرد أن يُشار إليها... وهكذا تمضي ماكنة الإعلام الغربي (والصهيونية بطبيعة الحال)، تفبرك منظومة من المعطيات تتسلل بقوة الخطاب الإعلامي وإلحاحه إلى مفاصلنا العقلية والروحية والوجدانية... وتتموضع هناك لكي ما تلبث أن تكتسب بمرور الوقت قدرتها على الإقناع.

إن الإنسان المعاصر ـ إذا أردتَ الحق ـ ضحية واحدة ـ من

أكثر الخدع مهارة وذكاء في التاريخ، وإذا كان الناس خارج الجغرافيا الإسلامية يفقدون بهذه الخدعة نقاءهم الأخلاقي وقدرتهم على التمييز؛ فإننا داخل هذه الجغرافيا نخسر قضيتنا، إذا سمحنا للعبة بأن تمرّر علينا، وهي تمرّر بالفعل ـ للأسف الشديد ـ تعينها على ذلك أجهزة إعلام عربية وإسلامية، تهيمن النخب المتغربة على قدراتها، وهي نخب كانت المراكز الغربية قد صنعتها على عينها وزرعتها في ديارنا لكي تقوم بالعمل بالنيابة عنها... إنها المخالب الحادة التي يعتمدها القط ليمزق بها جلود الآخرين.

إنني أتذكر هنا ما سبق وأن تحدثت عنه دائماً في سياق التعامل مع المرويات التاريخية (وإن كان يتحرك باتجاه معاكس تماماً)، ذلك هو مبدأ (كرة الثلج)، حيث يقوم الرواة ـ لتحقيق هوى أو إشباع ميل ـ باعتماد نواة حقيقية للواقعة التاريخية. ولكن، وبمرور الوقت، وتدحرج النواة عبر أيدي الإخباريين والمؤرخين، تلتف حول النواة طبقات من الخرافات والأضاليل وتلتصق بها، فما تلبث وهي تلتفّ أن تكتسي بكمٍّ متزايد من الأكاذيب التي يصدقها القراء والباحثون؛ ما دام أن النواة أو نقطة الارتكاز أمر مؤكد لا يجادل فيه أحد.

أتذكر أيضاً لعبة (الإعلان)، الذي يمثل إحدى الواجهات الأساسية لحضارة الغرب البراغماتية (الذرائعية): إن شركات الإنتاج الكبرى تستطيع بقوة الإيحاء اليومي للإعلان، والتفنن في عرضه، والإلحاح المتزايد عليه، أن تجعل الأبيض أسود وبالعكس.

أتدري ما يقوله المؤلف ي. أ. مووار في كتابه (هذا العالم الأمريكي)؟ إنه يقول: «حيث اقتناء الأشياء عقيدة ودين، يصبح تقديمها للناس فريضة. وللإعلان شريعة كعلم أصول الدين. فإغراقُ الجمهور بسلع لا تفيد، وخلقُ طلب غير طبيعي عليها، والتخلُّصُ من شيء وهو ما يزال بعد صالحاً للاستعمال، وشراء الأكثر جدة وإن كان أقل متانة، وجعل المعدات في حركة دائمة، تلك هي الأهداف التي ينشدها الإعلان بحماس لا يقل عن حماس المبشرين. واستسلاماً منا لضرورات الوسائل العلمية في الإعلان نضحي بغرائزنا الأساسية تمام التضحية، بل وبحواسنا الخلقية في غالب الأحيان»!.

ها هنا بالذات تبدو إحدى الفوارق الجلية بيننا وبينهم، أو بعبارة أخرى، بين حضارتنا وحضارتهم... إنهم يكذبون، ويبيحون لأنفسهم ذلك... يبررونه بألف أسلوب وأسلوب... ونحن لا نستطيع أن نكذب... بعبارة أدق: محرّم علينا الكذب بتعاليم كتاب الله جلّ في علاه وأوامر رسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام)، وبقوة التقاليد السلوكية التي طبعت حياة الخط الأعرض من المسلمين. (ويجب أن نشير هنا إلى أن الاستثناء الذي قد يحدث بين الحين والحين يعزز القاعدة ولا ينفيها). والذي يحدث اليوم أننا نُساق إلى المذبح... تُخترق حياتنا وقيمنا بمفردات السلوك الغربي على أيدي النخب المتسلطة على مقدرات هذه الأمة.

ودائماً لم يكن بمقدور الخصم أن يحقق هذا الاختراق وهو

يعمل من الخارج... إن ألف محطة للبث الإذاعي أو التلفازي في أمريكا وأوربا لا تملك من الفاعلية ما تملكه عشرون أو ثلاثون محطة نُصبت في بلادنا وأديرت بأيدي أبنائها، وعُهد إليها بتزيين الخطاب الغربي وتأكيده وتمريره إلى عقولنا وسلوكنا ومفردات حياتنا اليومية.

❁ ❁ ❁

**ـ بعض الدارسين يقيم صراعاً، قد يكون مصطنعاً، بين الموضوعية والالتزام عند دراسة الإنسان الفرد، والإنسان والمجتمع والتاريخ والحضارة والمستقبل. فكيف ينظر أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية إلى هذا الموضوع؟**

= **بإيجاز** شديد، نحن كمسلمين نؤمن حتى النخاع بمصداقية عقيدتنا الإسلامية في تعاملها مع الإنسان والمجتمع والنشاط الحضاري... أي بموضوعيتها، وإلّا ما غدونا مسلمين: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]. فالإسلام ـ كما هو بديهي ـ كلمة الله الأخيرة إلى الإنسان، ومنهجه الخاتم في الأرض، وما يقوله بصدد الفرد والمجتمع والنشاط الحضاري هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (ويجب أن نفرق هنا بين معطيات كتاب الله جلّ في علاه وسنة رسوله ﷺ وبين اجتهادات المسلمين أنفسهم).

فليس ثمة خط فاصل ـ في الرؤية الإسلامية ـ بين الموضوعية والالتزام. بل على العكس، إن الالتزام بالمفهوم هذا يمنحنا معايير صادقة ومنضبطة للحكم بموضوعية على مفردات التعامل.

والقرآن الكريم يقولها بوضوح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

إنها دعوة صريحة مؤكدة للتعامل العادل مع الجماعات والظواهر والأشياء، بغضّ النظر عن اختلاف المبادئ والمنطلقات.

أحب أن أقول لك شيئاً «مدهشاً» ـ إذا صح التعبير ـ ما عرفه مذهب من المذاهب في التعامل «الموضوعي» العادل مع «الآخر»، ولكنه في تقاليدنا القرآنية والنبوية يصير ظاهرة مؤكدة بل أمراً ملزماً!.

لنسترجع معاً هذه الآيات من سورة النساء، ثم لنتأمل المغزى الذي يتشكل في كل حرف أو كلمة فيها، مما يبدو ـ بحق ـ قمة تتضاءل دونها سائر القمم الأخرى في مجال التعامل الموضوعي العادل كالصراط مع الظواهر والأشياء، ومع الإنسان أيّاً كان موقعه في الزمن أو المكان أو الطبقة أو العرق أو المكانة أو ـ حتى ـ الدين: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ
وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾
هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ
ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا
يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ
يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ
لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا
يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ
تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١١٣].

هذه الآيات، كما يحدثنا الشهيد سيد قطب في (الظلال): «تحكي قصة لا تعرف لها الأرض نظيراً ولا تعرف لها البشرية شبيهاً. وتشهد ـ وحدها ـ بأن هذا القرآن وهذا الدين لا بدّ أن يكون من عند الله، لأن البشر ـ مهما ارتفع تصورهم، ومهما صفت أرواحهم، ومهما استقامت طبائعهم ـ لا يمكن أن يرتفعوا ـ بأنفسهم ـ إلى هذا المستوى الذي تشير إليه هذه الآيات، إلّا بوحي من الله...».

«إنه في الوقت الذي كان اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة التي تحويها جعبتهم اللئيمة على الإسلام والمسلمين... في الوقت الذي كانوا فيه ينشرون الأكاذيب، ويؤلبون المشركين، ويشجعون المنافقين، ويرسمون لهم الطريق، ويطلقون

الإشاعات، ويضللون العقول، ويطعنون في القيادة النبوية، ويشككون في الوحي والرسالة، ويحاولون تفسيخ المجتمع المسلم من الداخل، في الوقت الذي يؤلبون عليه خصومه ليهاجموه من الخارج. والإسلام ناشئ في المدينة، ورواسب الجاهلية ما يزال لها آثارها في النفوس، ووشائج القربى والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم، تمثل خطراً حقيقياً على تماسك الصف المسلم وتناسقه. في هذا الوقت الحرج، الخطر... كانت هذه الآيات كلها تتنزل على رسول الله ﷺ وعلى الجماعة المسلمة لتنصف رجلاً يهودياً اتُّهم ظلماً بسرقة، ولتدين الذين تآمروا على اتهامه، وهم بيت من الأنصار في المدينة. والأنصار يومئذ هم عدّة الرسول ﷺ وجنده، في مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله، ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة!

... إن المسألة لم تكن مجرّد تبرئة بريء، تآمرت عليه عصبة لتوقعه في الاتهام ـ وان كانت تبرئة بريء أمراً هائلاً ثقيل الوزن في ميزان الله ـ إنما كانت أكبر من ذلك. كانت هي إقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى، ولا مع العصبية، ولا يتأرجح مع المودة والشنآن أياً كانت الملابسات والأحوال. وكانت المسألة هي تطهير هذا المجتمع الجديد، وعلاج عناصر الضعف البشري فيه، مع علاج رواسب الجاهلية والعصبية في كل صورها، حتى في صورة العقيدة، إذا تعلق الأمر بإقامة العدل بين الناس وإقامة هذا المجتمع الجديد، الفريد في تاريخ البشرية، على القاعدة الطيبة

النظيفة الصلبة، التي لا تدنِّسها شوائب الهوى والمصلحة والعصبية، والتي لا تترجرج مع الأهواء والميول والشهوات».

«ولقد كان هناك أكثر من سبب للإغضاء عن الحادث، أو عدم التشديد فيه والتنديد به وكشفه هكذا لجميع الأنصار. بل فضحه بين الناس، على هذا النحو العنيف المكشوف. كان هناك أكثر من سبب لو كانت الاعتبارات الأرضية هي التي تتحكم وتحكم، ولو كانت موازين البشر ومقاييسهم هي التي يُرجع إليها هذا المنهج! كان هناك سبب واضح عريض. أن هذا المتهم «يهودي» من «يهود»، يهود التي لا تدع سهماً مسموماً تملكه إلّا أطلقته في حرب الإسلام وأهله، والتي يذوق منها المسلمون الأمرَّين... والتي لا تعرف حقّاً ولا عدلاً ولا نصفة، ولا تقيم اعتباراً لقيمة واحدة من قيم الأخلاق في التعامل مع المسلمين على الإطلاق!».

«وكان هناك سبب آخر، وهو أن الأمر في الأنصار الذين آووا ونصروا. والذين قد يوجد هذا الحادث بين بعض بيوتهم ما يوجد من الضغائن. بينما أن اتجاه الاتهام إلى يهودي يبعد شبح الشقاق! وكان هناك سبب ثالث هو عدم إعطاء اليهود سهماً جديداً يوجهونه إلى الأنصار، وهو أن بعضهم يسرق بعضاً ثم يتهمون اليهود! ولا يدعون هذه الفرصة تفلت للتشهير بها».

«ولكن الأمر كان أكبر من هذا كله... أن يقام ميزان العدل في الجماعة المسلمة، لتحكم به بين الناس مجرّداً من جميع

الاعتبارات الأرضية والمصالح القريبة الظاهرة، والملابسات التي يراها الناس شيئاً كبيراً لا يقدرون على تجاهله!».

«... ومن ثم لم يكن هناك مجال للّياقة! ولا للكياسة ولا للسياسة! ولا للمهارة في إخفاء ما يحرج، وتغطية ما يسوء. ولم يكن هناك لمصلحة الجماعة المسلمة الظاهرية ومراعاة الظروف الوقتية المحيطة بها! هنا كان الأمر جدّاً خالصاً، لا يحتمل الدهان ولا التمويه. وكان هذا الجد هو أمر هذا المنهج الرباني وأصوله، وأمر هذه الأمة التي تعدّ لتنهض بهذا المنهج وتنشره. وأمر العدل بين الناس في هذا المستوى الذي لا يرتفع إليه الناس إلا بوحي من الله جلّ في علاه».

«... وينظر الإنسان من هذه القمة السامقة على السفوح الهابطة في جميع الأمم على مدار الزمان، فيراها هنالك في السفوح، ويرى بين تلك القمة السامقة والسفوح الهابطة صخوراً متردية، هنا وهناك، من الدهاء والمراء والسياسة والكياسة والبراعة والمهارة ومصلحة الدولة ومصلحة الوطن ومصلحة الجماعة، إلى آخر الأسماء والعنوانات، فإذا دقق الإنسان فيها النظر رأى من تحتها الدود...».

دعني أسرد لك ـ في مقابل هذا ـ بعض الشواهد على العلاقة (الحرة!) بين الموضوعية والالتزام في الحياة الغربية.

كلنا يذكر الفيلسوف الألماني (الكبير!) هيغل، صاحب التفسير المثالي للتاريخ، والذي كان من أبرز دعاة العرقية

الألمانية والتفوق الجرماني. فلما غزا نابليون بونابرت ألمانيا، بعد أن اكتسح مساحات واسعة من أوروبا، اعتبره هيغل المعبّر عن العقل الكلي، المهيمن على مقدرات الصيرورة التاريخية، و(البطل) الذي جاء (على حصانه الأشهب) لكي يصنع التاريخ. رغم أن عسكرية نابليون، وما ادعاه من التبشير بمبادئ الثورة الفرنسية في الوقت نفسه، يتناقضان في الأساس مع نمو القومية الألمانية وفلسفتها وأهدافها.

وكلنا يذكر ما فعله فيلسوف الاجتماع (الكبير!) أوغست كومت عندما بعث رسالة بعنوان (رسالة فلسفية في التذكار الاجتماعي) إلى محبوبته (كلو تليد دي فو) يغيِّر رأيه في المرأة ومكانتها الاجتماعية تغييراً تاماً. فقد كان منذ أشهر يكتب إلى تلميذه (ستورات مل) فيرى أنه ليس في المرأة أمل ولا خير، أما الآن فهو يرى المرأة عضواً أساسياً في الإصلاح الاجتماعي الذي وقف نفسه عليه، والسبب في هذا الانقلاب الفجائي من النقيض إلى النقيض، هو أنه كان يحب امرأة قبلت الزواج ولكنها خدعته فدفعته إلى محاولة الانتحار والالتحاق بمستشفى المجانين حيناً من الدهر، وفي الثانية أحب فتاة لم يُتَح له الزواج بها لكنها منحته نفسها وأحبته حباً صادقاً، وهكذا أصبح الحكم على جنس المرأة مستمداً من خبرة الفيلسوف الشخصية ومطارحاته ونزواته.

هناك ـ أيضاً ـ حادثة المدرِّسة الفرنسية الخاصة التي استقدمها ستالين، أيام زعامته للاتحاد السوفياتي المندثر، لتعليم

أبنائه. لقد اكتشفت نسخة من رواية (الحرب والسلام) لتولستوي وعلى هوامشها ملاحظات بخط ستالين تحمل معنى التحامل على تمجيد الأبطال، وتكرار جملة «خطأ اشتراكي».

فهل ثمة في التاريخ المعاصر، بل ربما في مساحات واسعة من التاريخ البشري، غير هتلر وموسوليني، مَنْ مارسَ في سلوكه وسياساته مفهوم البطولة الطاغية وشرب كأسها حتى الثمالة مثل ستالين؟ والمجازر الجماعية التي نفذها؟ وحصاد الملايين من أبناء أمته، ما كانت في جانب من جوانبها سوى تعبير عن هذا التفرّد الطاغي، الذي يصل على يدي ستالين حدّ التألّه وليس مجرد البطولة التي اعتبرها «خطأً اشتراكياً»!.

لنرجع إلى إسلامية المعرفة، أو التأصيل الإسلامي للنشاط العلمي والمعرفي عموماً؛ فإننا سنجده يعكس ـ بشكل من الأشكال ـ هذا التماسك العميق في الإسلام بين الحقائق والتصورات، أي بين الموضوعية والالتزام. بل إن بمقدور المرء أن يمضي خطوة أخرى فيقول بأن إسلامية المعرفة هي وضع للأمور في نصابها الحق. ذلك أن الالتزام بالمعايير الإسلامية يمنح من المحفزات والضوابط (معاً) ما يتطلب التسريع بالكشف والابتكار والتنمية العلمية، وجعلِ هذا كلِّه لصالح الإنسان والجماعات البشرية وليس (ضدّها) كما يحدث في بعض حلقات العلم الغربي.

وهذا لا يعني من قريب أو بعيد دخول التصوّر الإسلامي إلى المختبر للحكم على الظواهر والأشياء، وإرغامها على الدخول من

هذه القناة أو تلك، مما هو نقيض العلم ابتداءً. هذا ما يتصوّره أو يوهم به أعداء المشروع وخصومه أو بعض السذّج من المسلمين أنفسهم. والمقصود شيء آخر تماماً يتمثل في رسم إطارات شاملة ومرنة لحركة العلم وتوظيف نتائجه، لا تخترق على رجال المختبر خلوتهم، ولكنها تعطيهم المؤشرات التصوّرية، التي تمكّنهم من جعل الكشف أكثر موضوعية وأقدر على تأكيد الإيمان في هذا العالم لا نفيه والاصطراع معه. وهذا على وجه التحديد ما تستطيع أن تقرأه في المعطيات الأكثر حداثة للعلماء وفلاسفة العلم المعاصرين رغم أنهم لا ينتمون للإسلام!

❁ ❁ ❁

ـ لنفرض جدلاً أن الحكومات والدول العربية اتفق زعماؤها على أن تتولى الجامعة العربية دراسة كيفية تجاوز العرب لحقبة الضياع والتشتت والتخلّف... والجامعة العربية بدورها قامت بتشكيل لجنة علمية لدراسة السبل الناجعة لمساعدة الأمة على الخروج إلى شواطئ الأمان، وكنتَ ضمن هذه اللجنة. **فكيف تصف أدواء الأمة، وما هو العلاج الفعال لتجاوز التراجع المخيف؟**

= هذا سؤال ذو فضاء واسع، والإجابة عليه تتطلب جهداً مؤسسياً، فليس بمقدور هذا المفكر أو ذاك أن يعطيَه حقَّه.

ومع ذلك فإنه يذكرني بتلك الندوة التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، في الرباط (في حزيران ١٩٨٨م) تحت شعار «من أجل استراتيجية ثقافية إسلامية»،

ودعتني للمشاركة في موضوع: «الهوية الثقافية لعالم الإسلام ودور أجهزة التعليم والإعلام في صياغة وحدتها».

لم يتح لي ـ يومها ـ حضور الندوة، ولكنني أرسلت إليها بالبحث المطلوب... كان مجرد محاولة متواضعة ـ من بين محاولات عديدة شهدتها الندوة، واستهدفت البحث عن مرتكزات وخطط عمل لنقل الأمة من حالة التجزئة والتشتت والتخلّف إلى الوحدة والتقدم ـ وهي المهمة التي أريد لجامعة الدول العربية أن تنفذها يوم أن أُعلن عن تشكيلها، ولكنها عجزت عن ذلك لأسباب لا يتسع المجال للخوض فيها.

تضمّن بحثي المشار إليه تمهيداً حول بعض التنظيرات الأساسية، لكي ما يلبث أن يقدم جانباً من برنامج عمل ثقافي إعلامي لردم الهوة ومقاربة المطلوب، وهي مهمة من صميم اختصاص مؤسسة كجامعة الدول العربية.

أكّد البحث على أن السعي لوضع خارطة استراتيجية ثقافية إسلامية في عالمنا المعاصر، كانت ولا تزال، واحدة من أشد الضرورات أهمية وإلحاحاً لأكثر من سبب: فهناك ـ مثلاً ـ ضرورة تجاوز التفتت والتناقض والارتطام في المعطيات الثقافية لعالم الإسلام، والتحوّل ـ بدلاً عن ذلك ـ إلى اللّم والتنسيق والتناغم لتحقيق بلورة أكثر للذات، وفاعلية أشد في الأداء في زمن المسابقة الحضارية، التي تحتم احترام عامل الوقت والمحاذرة عن الوقوع في مأساة هدر الطاقة.

وهنالك الانفجار المتزايد في المعلومات وتقنيات التواصل المعرفي، والذي يمكن أن يكون سلاحاً ذا حدين، فالذين يملكون استراتيجية عمل ثقافي سيعرفون كيف يفيدون منه وفق أقصى حالاته المتاحة، والذين لا يملكون هذه الاستراتيجية قد ينقلب عليهم وبالاً، فيزيدهم فوضى وتبعثراً واضطراباً، وقد يؤول الأمر إلى ضياع كلي لشخصيتهم الثقافية واندغامهم في بحر الثقافات الأشد فاعلية، والأكثر قدرة على التخطيط والاستشراف والإفادة من هذه التقنيات المتطورة.

وهناك، فيما عدا حالات استثنائية لا تغطي سوى مساحات محدودة فحسب، فراغ مخيف واضح لكل ذي عينين، يعاني منه عالم الإسلام في مجال التخطيط الثقافي رغم كل الظروف الميسرة للتحقق بهذا التخطيط، الأمر الذي قد يؤول إلى مزيد من النتائج العكسية التي توسّع الهوة بين عالم الإسلام والعالم المتقدم، ويجعل من التسارع لوضع ملامح استراتيجية عمل مركزي شامل، ضرورة من الضرورات.

فإذا ما تذكّرنا أن تحدّي الحضارة الغربية المعاصرة لحضارتنا الإسلامية هو في جوهره تحدٍّ ثقافي، وأنه بصدد خلخلة واقتلاع هذه الثقافة من جذورها، لهذا الهدف أو ذاك، أدركنا أن مجابهة هذا التحدي لن تأتي بطائل؛ ما لم تعمل ضمن استراتيجية عمل ثقافي موحد، يضع يديه على الملامح الأساسية لهوية المسلمين الثقافية، مستمداً إياها من عقيدتهم المشتركة

ورصيدهم التراثي، واضعاً نصب عينيه أن يكون للمسلمين مكان متميز على خارطة الثقافات في عالمنا المعاصر، لا بالالتجاء إلى الغير ومقاربته بالتقليد والتكديس، ولكن بالتميُّز والأصالة وتعميق الملامح، مؤكداً على مستقبل يكون المسلمون فيه أكثر قدرة على المشاركة بمعطياتهم العالمية ذات الخصوصية، وبالتالي أكثر قدرة على التأثير في مستقبل العالم، واستعادة موقعهم الأصيل الذي دعا إليه كتاب الله في الوسطية والشهادة على الناس: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. مستفيداً ما وسعته الاستفادة من تقنيات التعامل المعرفي، التي يمكن إذا أُحسن التعامل معها، أن تختزل حيثيات الزمن والمكان، وأن تحقق المقاربة الموعودة من العالم المتقدم، الذي تُباعد بيننا وبينه المسافات الطوال.

عموماً فإن استراتيجية كهذه، تجد نفسها ملزمة بالتحرك في اتجاهين أساسيين، أولهما حركة باتجاه المسلمين أنفسهم، وثانيهما حركة باتجاه الآخر.

**فأما على المستوى الأول،** فإن وحدة الأمة الثقافية لا تستدعي بالضرورة تجاوز أو إلغاء خصوصيات الشعوب والجماعات التي تنتمي إليها، والتي شكّلتها وغذتها مؤثرات البيئة ورصيد التاريخ. ذلك أن الوحدة والتنوع لا تشكّلان في حضارتنا الإسلامية نقيضين متضادين بقدر ما هما عامل دفع وإغناء لهذه الحضارة، ومصدر خصب لإرفادها بالمزيد من المعطيات المتنوعة، التي

تصبّ في نهاية الأمر في بحر شخصيتها فتزيدها تماسكاً ووضوحاً.

إن أية محاولة لتوحيد المسلمين ثقافيا، من خلال وضع خارطة عمل، أو استراتيجية موحدة، يجب أن تضع في حسبانها ثنائية كهذه تنطوي على الوحدة والتنوع، والثابت والمتحوّل، والصلب والمرن، والدائم والمتغير... أي ـ في نهاية الأمر ـ على المرتكزات العقيدية والممارسات الحيوية... معاً...

هذه الثنائية التي يمكن، إذا أسيء تقديرها حق قدرها، أن تكون أداة للفصل والتباعد، والعزلة والقطيعة، وأن تزيد المسلمين تمزُّقاً على تمزقهم، ويمكن ـ كذلك ـ إذا أُحسن توظيفها في استراتيجية العمل أن تكون وسيلة فاعلة للتوحد المرتجى الذي يلّم شتاته المتنوع المتغاير على الأصل العقائدي الثابت الكبير.

**أما على مستوى التحرك باتجاه الغير،** فإنه يكاد أن يخضع للمبدأ نفسه: احترام التغاير، ومحاولة الإفادة منه بتحقيق مزيد من التعارف بين المسلمين وبين ثقافات ومعطيات الأمم الأخرى، وبخاصة الثقافة الغربية المعاصرة.

ومن فضول القول التأكيد على أن تعاملاً كهذا بين المسلمين والغير لن يكون تعاملاً ندّياً أو متكافئاً، لا يؤول إلى الذوبان أو الاندماج أو فقدان الشخصية، ما لم يتحقق المسلمون أنفسهم بالحركة الأولى: وحدتهم الثقافية التي تعطيهم مكاناً متميزاً على خارطة العالم، وتمنحهم ثقلهم النوعي وتجعل من عبورهم للتعامل

مع الآخرين مأمون العواقب، ذا نتائج إيجابية تعزّز شخصيتهم ولا تلغيها.

ومرةً أخرى، فإن الثقافة الإسلامية يمكن أن تمارس ها هنا دوراً مؤثراً في العالم كله، يزيدها ـ في الوقت نفسه ـ قدرةً على التأصُّل والتوحُّد والتميُّز.

ذلك أن هذه الثقافة المستمدة في أساسها من أصولها الإسلامية والمتأثرة، بدرجة أو أخرى، بالمنظور العقيدي لهذا الدين، تختلف عن سائر الثقافات الأخرى بجملة خصائص لا تكاد تجتمع إلّا في إطارها. وأبرز هذه الخصائص ولا ريب قدرتها الفذّة المرنة على لمّ سائر الثنائيات التي بعثرتها المذاهب والثقافات الأخرى، وقدرت هذه الأمة، بقوة عقيدتها؛ أن تجمع بينها وتسوقها في إطار واحد خدمة للإنسان والجماعة.

إننا نجد مثلاً ثنائيات من مثل المادة والروح، والجسد والوجدان، والحسّ والعقل، والظاهر والباطن، والحضور والغيب، والقدر والاختيار، والضرورة والجمال، والطبيعة وما وراءها، والتراب والحركة، والوحدة والتنوع، والمنفعية والأخلاقية، والفردية والجماعية، والعدل والحرية، والوحي والتجريب، والدنيا والآخرة، والنسبي والمطلق، والفناء والخلود... ثنائيات كهذه تتلاءم وتتناغم وتندمج في كيان الثقافة الإسلامية، بينما هي في سائر الثقافات الأخرى في حالة اصطراع وتضاد، وهي في هذه الحالة تشكّل عصب المأساة التي يعاني منها الغير، والتي يجد نفسه مضطراً

أكثر فأكثر للبحث عن بدائل لها؛ قد تكون فرصة الثقافة الإسلامية للتحقق بالتواصل المؤثر مع الآخرين.

والآن يمكن التوقف قليلاً لتقديم بعض الملاحظات الموجزة على الدور الذي يمكن أن تضطلع به أجهزة التعليم والإعلام في صياغة وحدة الاستراتيجية الثقافية الإسلامية؛ بما أن هذه الأجهزة هي الأدوات التنفيذية الأكثر فاعلية في تحقيق الهدف المرتجى، لاسيما وأننا نعيش عصر التقدم التقني المذهل، وتراكم الخبرة، وانفجار المعلومات، وتزايد دور الآلات الحاسبة وأجهزة خزن المعلومات وتنسيقها، والقفزة النوعية في وسائل الاتصال.

**أولاً:** مثّل الإسلام، ولا يزال، كمنظور عقدي وممارسة تشريعية وتعبدية، مرتكزاً من أشد المرتكزات خطورة وتأثيراً على معطيات المسلمين الثقافية، وعلى منح هذه المعطيات خصائصها وسماتها المشتركة. وإنه لأمر بديهي أن ينفذ الإسلام هذا الدور إزاء الجماعات التي عايشها وعايشته أربعة عشر قرناً، وبديهي كذلك، أن يكون الإسلام ـ بالتالي ـ أشد عوامل الاتصال والتوحد الثقافي بين المسلمين فاعلية وتأثيراً، بل أن يكون القاعدة الأساسية التي منحت المسلمين ثقافة متميزة تستمد أسسها وتكوينها من الدين الذي صاغها.

والمطلوب شيء غير مجرّد التأكيد على هذه البديهيات. إنه البحث المتأني الدقيق عن سائر عناصر الانعكاس الإسلامي على النشاط الثقافي المعاصر للمسلمين... بحث ميداني قد تُوظف له

حشود الطاقات لحصر هذا الانعكاس بمفرداته كافة، من أجل وضع اليد على ما الذي تبقى من عناصر الارتباط بين الإسلام وبين ثقافة المسلمين، وما الذي تعرّض للاضمحلال والزوال، وبالتالي تشخيص الأسباب والمؤثرات التي أبقت على عناصر معينة، وأضعفت وأزالت أخرى، الأمر الذي يمكن أن يعين على الإفادة من العناصر المستمرة في تعزيز الوحدة الثقافية من جهة، وإعادة الحياة والفاعلية من جهة أخرى للعناصر الأخرى التي تعرضت للاضمحلال والغياب، من أجل تحقيق أكبر قدر من التغطية بين الإسلام وبين ثقافات المسلمين الواقعة، المتشكّلة، ومن أجل أن يتحقق أكبر قدر ممكن من التشكّل في إطار الرؤية والتجربة الإسلاميتين لا خارجهما. وحينذاك ستجد وحدة الثقافة الإسلامية عناصر دفع وإرفاد جديدة تمكّنها، ليس فقط من مواصلة الطريق، والديمومة، ولكن من التحقق بمزيد من التأصيل والتعبير عن الذات.

إن المؤسسات التعليمية والإسلامية هي الأقدر على تأدية هذه المهمة، وهي التي يتحتم أن تُناط بها مسؤولية كهذه.

**ثانياً**: وتشكّل اللغة العربية، بما أنها لغة القرآن، وعصب التراث التعبيري للمسلمين، مرتكزاً أساسياً، يلي العقيدة الإسلامية في تحقيق المقاربة والتوحُّد الثقافي للجماعات والشعوب الإسلامية. وهذا يوجب جهوداً استثنائية مضاعفة للمؤسسات التعليمية والتربوية والإعلامية بشكل خاص، لتمكين هذه الأداة

الفاعلة من استعادة دورها العالمي والانتشاري، وإغرائها كلغة إسلامية أمّ لمعظم الشعوب المنضوية تحت لواء هذا الدين؛ في أن تستقطب اهتمام هذه الشعوب لاعتمادها كلغة أساسية، أو على الأقل، إيلاءها المكانة التي تليق بها جنباً إلى جنب مع اللغات القومية. فضلاً عن ضرورة حماية رسم الحرف العربي في اللغات غير العربية، من الانحسار والاندثار والتغيير، كما حدث في التجربة الكمالية في تركيا مثلاً، وذلك من أجل الإبقاء على الجسور المفتوحة بين الشعوب الإسلامية وبين لغة كتابهم وعقيدتهم وتاريخهم الطويل. إن هذا يقتضي أيضاً محاولة جادة لمتابعة وتحديد الأسباب التي آلت إلى انحسار العربية من ساحة الثقافات الإسلامية عبر القرون الأخيرة، ومحاولة إيجاد الإغراءات والصيغ التي تعيد الالتحام ثانيةً بين هذه اللغة وبين الشعوب التي تدين بالإسلام.

**ثالثاً**: وتشكِّل الأنشطة والممارسات التعليمية والتربوية واحدة من أهم الوسائل قدرةً على حماية وحدة المسلمين الثقافية، وتعزيزها كذلك، لأنها ـ في حقيقة الأمر ـ الأداة التنفيذية لتحقيق التواصل الثقافي الدائم بين المسلمين وعقيدتهم. ومن ثم يتحتم أن تقوم هذه الأنشطة والممارسات على حد أدنى من الالتزام بالمنظور العقيدي للكون والحياة والوجود والإنسان، وأن تصطبغ مفرداتها المنهجية بالصيغة التي يتطلبها هذا المنظور، قدر الإمكان، من أجل أن تخرج أجيال الطلبة والدارسين، في مدى عالم الإسلام،

وهي تحمل عناصر اللقاء، والتقارب، والتوحُّد على مقتضيات هذه العقيدة، فتكون متميزة الثقافة، أصيلة المعطيات، تملك خصوصياتها التي تمنحها مكانها المستقل على خارطة العالم.

ومعنى ذلك أن أية برمجة لاستراتيجية ثقافية موحدة لن تكون قد فعلت شيئاً، أو قطعت ولو جزءاً يسيراً من الطريق صوب هدفها؛ ما لم تمنح الممارسة التعليمية ـ التربوية الاهتمام المتزايد، وتضمن تحققها ـ على الأقل ـ بالحدّ الأدنى من مطالب الارتباط بين المفردات والعقيدة. (وها هنا يمكن أن يتذكر المرء الدور الفعال الذي يلعبه المعهد العالمي للفكر الإسلامي فيما اصطُلح عليه بأسلمة المعرفة التي هي واحدة من أشد الأنشطة إلحاحاً في مجال التخطيط لاستراتيجية ثقافية موحدة).

**رابعاً**: وتشكِّل الآداب والفنون وسيلة لا تقلّ أهمية عن سابقتها في مجال تحقيق التعارف والمقاربة الثقافية بين الشعوب الإسلامية، لأنها في أساسها تعبير صادق، مؤثر، عن الذات. ورغم أن مساحات كبيرة من المعطيات الأدبية والفنية في عالمنا الإسلامي قد انسلخت عن أصولها العقدية، وغادرت رحم أمها المسلم لكي تتهجن مغرِّبة أو مشرِّقة؛ فإنه يتبقى هناك مساحات أخرى لا تزال تعبِّر بصدق وجدِّية عن الرؤية الإسلامية للحياة، ويمكن أن تمارس دوراً في بناء الاستراتيجية الثقافية إذا أُحسن فرزها ومنحها قدرات أكبر على البقاء والنمو ومواصلة الطريق، (الأمر الذي يذكِّرنا بما تمارسه رابطة الأدب الإسلامي التي

انبثقت في الهند قبل سنوات قلائل لتغطية هذه الحاجة الثقافية الملحّة لعالم الإسلام).

وفي الحق، فإنه لا يكفي أن نعزز فقط المعطيات الأدبية والفنية ذات الارتباط أو التوجُّه الإسلامي، وإنما أن تمضي المحاولة إلى معطيات الآداب والفنون في مساحاتها الشاملة لكي تنفخ فيها، ما وسعها الجهد، روحاً من الأصالة والتشبّث بالذات المسلمة، من أجل أن يجيء التعبير أكثر تميُّزاً وصدقاً، فإن الفرنسي أو الإنكليزي أو الروسي لا يهمُّه أن يقرأ أو يشاهد قصة أو مسرحية أو قصيدة أو لوحة أو معماراً يعكس، أو يستنسخ، ما أبدعه الفرنسيون أو الإنكليز أو الروس، وإنما هو يريد أن يتعرف على المعطيات التي تحمل خصوصياتها الإسلامية وتضيف لرصيد الآداب والفنون في العالم شيئاً متميزاً جديداً.

**خامساً:** ومع العقيدة الإسلامية واللغة العربية والممارسات التعليمية والتربوية، ومعطيات الآداب والفنون، هناك الأجهزة والمؤسسات والوسائل الإعلامية التي يمكن أن تمارس، في عصر التقنية المتقدمة والتواصل السريع، دوراً فاعلاً كبيراً في رسم استراتيجية الإسلام الثقافية، والإعانة على تحقيقها في الوقت نفسه.

إن الإذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح والصحافة ودور النشر، لهي المؤسسات ذات القدرة الهائلة على التأثير الثقافي الفعال على مستوى تحقيق الهوية من جهة، ورسم الاستراتيجية من جهة أخرى. بل إنها تمثل شرايين التواصل بين الشعوب

والجماعات الإسلامية، وجملتها العصبية التي تصوغ التأثير وتكيِّف الحياة مانحة إياها وجهها المتميز وروحها الأصيلة.

ولا يكفي ها هنا أن تخصص ساعات أو مساحات محددة لتقديم البرَامج والمعطيات الدينية في هذه الوسائل الإعلامية، ولكن أن تتحول إلى قنوات فاعلة للتحقق بفهم أعمق للإسلام من جهة، ولتعزيز وتوسيع إطارات التعارف والتقارب بين الشعوب الإسلامية ذاتها، وبينها وبين العالم من جهة أخرى.

وكذلك فإن من الضروري أن يسعى المشرفون على هذه الأجهزة إلى تنفيذ أكبر قدر ممكن من التبادل البرامجي، والتعاون الإنتاجي، والنشر المشترك، وأن يكون لإعلام كل دولة من الدول الإسلامية حضور مؤثر فاعل في الجهاز الإعلامي لشقيقاتها المسلمات، من أجل تحقيق مزيد من التعرف على الذات، والتقارب على المطالب والأهداف الحيوية المشتركة، ومن أجل التحقق بقدر معقول من استغلال الشخصية عبر الخطاب الإعلامي للغير... أي للشعوب والأمم غير الإسلامية.

إن الكتاب الذي تسهم في نشره أكثر من دولة مسلمة، والفيلم الذي تنتجه كوادر عربية وتركية وإندونيسية، والبرنامج الإذاعي أو التلفزيوني الذي يبث على مدى عالم الإسلام كله، هموم هذا العالم ومطامحه ونبضه المشترك... والصحيفة، أو الصحف الأم التي تصدر في وقت معاً في بغداد والقاهرة والخرطوم والجزائر والرباط والرياض وأنقرة وكراتشي

وكوالالامبور... الخ... لهي التي ستعين بلا شك، إلى جانب العوامل آنفة الذكر، على صياغة الاستراتيجية الثقافية الإسلامية، التي عقدت هذه الندوة من أجل اختبارها وتحديد أبعادها وملامحها.

❁ ❁ ❁

ـ في وصف شاعر لخليفة عباسي في عصور الانحطاط والتراجع، قال الشاعر:

**هذا الخليفة تائه بين وصيف وبغا**

**يقول ما قالا له كما تقول البَبغا**

كانت هناك جلسة حوار استشهد فيها بهذين البيتين، فالتقطهما أحد الحضور قائلاً: «إن هذا الوصف ينطبق الآن على الباحثين العرب في العلوم الإنسانية».

**نقلت هذه الحادثة لأنها تعبّر عن وجهة نظر كثير من الداعين إلى ضرورة التأصيل لعلم نفس أو علم اجتماع... إلى آخره من العلوم الإنسانية... ولكن مع تجاوز مطلق التبعية، ومع الاستفادة من الآخرين. هل إلى ذلك من سبيل؟**

= بكل تأكيد... فالعلوم الإنسانية ـ بخلاف الصرفة والتطبيقية ـ علوم احتمالية لكونها تتعامل مع الإنسان فرداً وجماعة. كل ما تطمح إليه هو أن تكون نتائجها مقاربة للحقائق أو مضيئة لها. وهذا لا يعني بطبيعة الحال أنها تخلو من الحقائق النهائية أو القاطعة، أو تفتقد نقاط الارتكاز الموضوعية.

ورغم أن عدداً من علماء النفس والاجتماع وغيرهما من العلوم

الإنسانية «ادّعوا» اكتشافهم للحقيقة، ومضوا أبعد من ذلك، فقالوا بأن كشوفهم هي الحق الوحيد وأن ما دونه الباطل، مدفوعين في ذلك وراء إغراءات ذاتية وليست موضوعية في معظم الأحيان؛ فإن مما يكاد يُجمع عليه الباحثون الجادون الأكثر تجرداً في دوائر العلوم الإنسانية أنه ليس بمقدور أحد كائناً من كان أن يضع يديه على الحقائق النهائية التي لا تتعرض للتبديل أو التحوير.

وعلى مدى عقود محدودة فحسب من هذا القرن، رأينا تساقط العديد من النظريات والكشوف «الإنسانية»، أو تعرُّضها للتآكل والانكسارات في أقل تقدير، لكي ما تلبث أن تُخلي الطريق لمعطيات جديدة قابلة هي الأخرى للتعديل والتبديل، أو الإلغاء والانسحاب من مجرى التسلّط العلمي... ورغم أن بعض هذه الكشوف حقق انتشاراً كبيراً وأنشأ أجيالاً من الناس، وأقام دولاً وأنساقاً فكرية شمولية؛ فإن المصير الذي آلت إليه في نهاية الأمر هو التدهور والسقوط.

والعبرة بالنتائج كما يقول المثل... ومن ثم فإن التسليم المطلق بالعلم الغربي «الإنساني» من قبل العلماء العرب أو المسلمين بعامة، والاعتماد عليه، ونقله نقلاً اتباعياً أو استسلامياً، انما هو خطأ علمي قبل أن يكون خطيئة عقدية، لكون هذه العلوم في الأعم الأغلب، تنبثق حيناً، أو تتمخض حيناً آخر، عن منظومة من التصورات والأفكار التي تتعارض ابتداءً مع التصور الديني ـ عموماً ـ للكون والحياة والإنسان، ومع التصور الإسلامي بوجه

الخصوص، هذا التصور الذي يملك من الحيوية ما يمكّنه من منح علماء الإنسانية فرصاً أفضل للتوصل إلى نتائج موضوعية.

وهذا ـ بإيجاز شديد ـ هو أساس الدعوة إلى أسلمة المعرفة، أو التأصيل الإسلامي للعلوم الإنسانية، وهي دعوة اضطلعَتْ بها مؤسسة كالمعهد العالمي للفكر الإسلامي، وتبنّاها ـ بشكل عام ـ حشد من العلماء والدارسين، بعد إذ رأوا فيها تعديلاً للوقفة الجانحة وعودة بالوضع الشاذ إلى سويته. فإن النشاط العلمي في مجال الإنسانيات لن يستكمل أسبابه؛ ما لم يستهدِ بمعطيات الوحي ومعاييره جنباً إلى جنب مع معطيات الوجود. إنه في هذه الحالة سيتحرك وفق ضوابط تقيه الانحراف والزلل وتقوده إلى نتائج أكثر دقة وانضباطاً.

ولن يتحقق ذلك ـ بطبيعة الحال ـ ما لم تشهد الجغرافيا العربية الإسلامية حشوداً من العلماء المتخصصين في هذا الحقل أو ذاك من حقول المعرفة الإنسانية، وما لم تتهيأ لهم المختبرات ووسائل العمل الملائمة والتقنيات المتقدمة التي تعينهم في عملهم.

وحينذاك قد تُستدعى كشوف «الآخر» للإفادة من حلقاتها الإيجابية، وتنميتها والبناء عليها. ولكن هذا الجهد ليس هو نهاية المطاف، كما كان يحدث في الماضي، وإنما هو طبقة من عدة طبقات يصير فيها العالم المسلم أكثر استقلالية وأقدر على الكشف والإبداع.

**وأظنك تتفق معي على أن المعرفة الإنسانية هي في نهاية الأمر**

فرصة لتأكيد الذات لا لنفيها. ولقد مضى إلى غير رجعة ذلك الزمن البائس الذي كان العائدون من ديار الغرب، من المتخصصين في الفروع الإنسانية، يرجعون وهم يحملون إحساساً مبالغاً فيه بقداسة الكشف الغربي وشموليته وقدرته على الدوام، وكاد جيلنا في خمسينيات هذا القرن وستّينياته يذهب ضحية هذه الرؤية؛ لولا أن تداركت رحمة الله ثلة من أبناء هذه الأمة، رفضت الانجراف بعيداً باتجاه العلمانية الأوربية المدّعاة، وتشبثت بثوابتها الإسلامية التي هي مع العلم وليست نقيضه كما كان الحال في أوروبا النصرانية... ثم ما لبثت انهيارات العلم الإنساني الغربي أن منحتهم اقتناعاً أكثر عمقاً بسلامة موقفهم، فمضوا يشقون طريقاً جديداً.

ثمة ما يجب أن يقال في هذا المجال، وهو أن العقل الغربي كان يملك في الوقت نفسه القدرة المدهشة على نقد الذات، ومحاولة تعديل الوقفة، وتغيير القناعات الخاطئة... فإذا استطاع علماؤنا أن يدخلوا من هذه الثغرة فانهم سيفعلون الكثير.

❁ ❁ ❁

**ـ يا ترى كيف ينظر أستاذ التاريخ والمفكر الإسلامي إلى الأمية بأنواعها كعامل إعاقة للتقدم والنمو الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي للأمة العربية والعالم الإسلامي؟**

= لاحظ معي أيها الأخ الكريم كيف أن الكلمة الأولى التي تنزلت على رسول الله ﷺ، النبيّ الأميّ، في غار حراء كانت «**اقرأ**»... وأنها لم تكن نفياً، ولكنها أمر بفعل إيجابي ما لبث أن

مضى لكي ينفذ فاعليته في التعامل مع الكتابين الكبيرين: كتاب الله المقروء وكتب الكون المنظور. وذلك هو ـ بمعنى من المعاني ـ الشرط الأساس في نشوء الحضارات ونموها.

إننا نلحظ في تلك السورة مفردات شتى تحمل دلالتها المعرفية المؤكدة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

فها هي مفردات القراءة والقلم والعلم وهي كلها تقود إلى الشيء نفسه: مجابهة الأمية بأنواعها كافة كعامل معوِّق للتقدم والنمو الثقافي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي. أو بعبارة أخرى، للمشروع الحضاري الإسلامي، الذي أريد منه باستخلاف الإنسان في الأرض واستعماره فيها وتسخيرها له؛ أن ينشئ عالماً متقدماً متوازناً سعيداً يليق بكرامة الإنسان ومكانته في العالم، ويحرره من الضرورات، ويمكّنه من ممارسة عبادته الشاملة لله وحده جلّ في علاه.

بل إننا إذا رجعنا إلى العمق الزمني البعيد لخلق البشرية؛ فانا سنلتقي الدلالة المعرفية نفسها، التي أريد للإنسان من خلالها تنفيذ مهمته في الأرض بنجاح بعد إذ هُيئت له شروطها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ

قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣].

والآن، فإن إحدى الانكسارات الكبرى في حياة أمتنا إنما هي الأمية التي تشكلت عبر قرون التخلف الأخيرة، والتي أعان عليها المسلمون أنفسهم حيناً، والسلطات الاستعمارية التي أمسكت بخناقهم حيناً آخر، وهو انكسار يشكّل ـ إذا أردنا الحق ـ واحداً من أهم عوامل تخلُّفنا عن الغرب المتقدم، وعدم القدرة على ملاحقته.

وأظنك تذكر كيف أننا يوم كنا متحضرين... كان الناس كباراً وصغاراً يعرفون كيف يقرؤون ويكتبون... وكيف أن بعض ملوك أوروبا الغارقة في العتمة وباباواتها ورجال لاهوتها ما كانوا يعرفون كيف يكتبون أسماءهم!.

وعلى أية حال، فإن انتشار التعليم عبر نصف القرن الأخير، وتحوُّل المدرسة إلى مؤسسة ذات حضور مؤكد في حياتنا الثقافية، قد أعان على تجاوز الخندق العميق. ولكن المشكلة أن «التعليم نفسه» وما ينطوي عليه من نشاط تربوي، وقع، أو أريد له أن يقع، في انكسار جديد، لكي يخرج الأمة من أميتها الحرفية ويوقعها في شرك أمية عقدية وثقافية لا تقل خطورة عن سابقتها، إن لم تكن أشدّ لعنة وأعمق خطراً.

❁ ❁ ❁

**ـ تم إجراء دراسات نفسية واجتماعية كثيرة للنتاج الأدبي الفكري والفني لأدباء ومفكرين وفنانين غربيين مثل شكسبير،**

ودافنشي، وشارلي شابلن، وفيورباخ، وموزارت، وبتهوفن، وبوانكاريه، وبيكاسو... **فلماذا لم يجد المفكرون والأدباء والعلماء العرب ما يستحقونه من الدراسة والاهتمام؟**

= هنالك، بالتأكيد، تقاليد علمية وثقافية تترسخ وتزداد انتشاراً بمرور الوقت في بيئات دون أخرى، وبغضّ النظر عما تعانيه الثقافة الغربية من شروخ وتناقضات؛ فإنها تتميز بقدرة مذهلة على الفاعلية، الأمر الذي ينعكس على شبكة التقاليد ويدفعها إلى المزيد من العطاء.

ويكون طبيعياً أن يشهد مفكرو الغرب وعلماؤه وأدباؤه وفنانوه «الكبار» محاولات معمقة وخصبة لدراسة نتاجهم وتحليله.

إنه ـ باختصار شديد ـ الفارق بين بيئة حضارية وأخرى... ومهما يكن من أمر، فإن هذا التقليد بدأ يزدهر في ديارنا ـ عبر العقدين الأخيرين ـ رغم أنه عندنا ـ ربما بسبب الفارق الحضاري أيضاً ـ أكثر إغراقاً في الذاتية وبعداً عن الموضوعية، ولكنه ـ عموماً ـ يبشر بالخير، رغم أنه في كثير من الأحيان يبدأ عمله بعد أن يكون العالم أو الأديب أو المفكر قد غُيِّب في التراب!.

وثمّة مفارقة أخرى... تلك هي أن الاهتمام الذي يحظى به هذا العالم أو المفكر أو الأديب، أو ذاك، ليس ـ أحياناً ـ لوجه الحقيقة وحدها، ولا لإنصاف هؤلاء الذين لاقوا ما لاقوا في رحلة حياتهم المترعة بالكدح والمعاناة... وإنما لتوظيف جهودهم ـ أو

تجييرها بتعبير رجال الأعمال ـ لصالح هذه الفئة أو تلك ولخدمة هذا التيار الفكري أو ذاك...

لقد حدث هذا ـ على سبيل المثال ـ على نطاق واسع أيام ازدهار الحركات الشيوعية في ديارنا... إنهم حاولوا بأسلوبهم هذا «تجيير» الكثيرين لحسابهم، وأعانهم على هذا صمت هؤلاء، وأحياناً ارتياحهم رغبة منهم في أن يحظوا بقدر من التكريم أو التقييم أو الإضاءة التي حُرموها عبر حياتهم الطويلة... أو ربما لكونهم قد فارقوا الحياة فلم يَعُدْ بمقدورهم الدفاع عن أنفسهم!

اليوم تجد بعض الحلقات الإسلامية أنه قد آن الأوان لتجاوز الإهمال الموغل الذي تعرض له الإسلاميون في دوائر الفكر أو الدراسة أو الأدب أو الفن، وأن دراسة هذا العالم أو الأديب أو ذاك ضرورة على أكثر من مستوى. ولذا بدأت هذه الحلقات تنفذ هذا التقليد الجميل مع هذا المفكر أو الأديب الإسلامي أو ذاك. وأعانها على ذلك انتشار «الدراسات العليا» في معظم الجامعات العربية والإسلامية، والانفجار المعرفي الملحوظ في عدد من رسائل الدبلوم والماجستير والدكتوراه التي تمنحها هذه الجامعات، واختيار موضوعات تستهدف إضاءة وتحليل نتاج مفكِّري الأمة وعلمائها وأدبائها، الأمر الذي أعان على ملء الفجوة التي أشرتَ إليها، ومكّن لهذا التقليد من التحقق والاتساع في الطول والعرض والعمق معاً.

لا يفوتني ـ بطبيعة الحال ـ أن أشير هنا إلى أن حضارتنا الإسلامية أيام ازدهارها شهدت التقليد نفسه في أشد وتائره فاعلية

واتساعاً... ويكفي أن نلقي نظرة على مكتبتنا التاريخية لكي تجد كيف أن كتب التراجم والأنساب والطبقات تملأ رفوفها، وتتجاوز في كمِّها السبعين في المائة من أنماط المصادر التاريخية.

ومعروف أن كتب التراجم والطبقات هذه لم تَكَدْ تدعُ عالماً أو أديباً في مجرى حضارتنا المزدهر، إلّا كتبت عنه، وأضاءت نتاجه بتوسُّع أو إيجاز... إن تراجم نصف مليون رجل في تاريخنا ـ كما يقول أحد المستشرقين ـ لأمر يحسدنا عليه الآخرون... ولقد آن الأوان لاسترجاع هذه الخصيصة المضيئة في تاريخنا الثقافي والمضيّ بها قُدُماً.



**ـ في مقال للفيلسوف زكي نجيب محمود يذهب إلى أن أحد قرائه سأله: هل نحن بحاجة إلى الأمن الثقافي، كما نحن بحاجة إلى الأمن الغذائي. فيا ترى أي نوع من أنواع الأمن نحن بحاجة إليه بالدرجة الأساس؟**

= الاثنان معاً... فليس من الضروري الخضوع لمبدأ «إما هذا أو ذاك» وإنما «هذا وذاك».

فإن معدة خاوية تتلوى من الجوع لا يستطيع صاحبها أن يخطَّ كلمة واحدة، فضلاً عن أن يصوغ فكرة أو يكتشف حقيقة. وأن امرأً متخماً لا يحظى بحرية التفكير والقول، سيتحول ـ بمرور الوقت ـ إلى خانة السوائم والعجماوات، أو الشياطين الخرس الذين اعتادوا السكوت عن الحق...

ومنذ البدايات المبكرة لتشكل تاريخنا... منذ عصر الرسالة... سعى رسول الله ﷺ جاهداً لتحقيق الأمن الغذائي والفكري معاً لصحابته الكرام... إنك تذكر معي ولا ريب تجربة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. لقد كانت في أساسها محاولة لتحقيق الأمن الغذائي، وإعانة المهاجرين الذين خلفوا الأموال والديار، وجاؤوا إلى المدينة لكي يقيموا الدولة الموعودة، ويصوغوا التاريخ؛ وهم لا يملكون شيئاً، حتى إذا تحقق لهم ذلك ـ بدرجة أو أخرى ـ أُوقفت التجربة بزوال مبرراتها، ومضى رسول الله ﷺ يبحث وينفذ تجارب وصيغ أخرى لتحقيق الهدف ذاته.

روى ابن سعد في (الطبقات) أن عدداً من أبناء القبائل قدموا على رسول الله ﷺ في أعقاب فتح خيبر مطلع عام (٧هـ)، فكلّم الرسول أصحابه فيهم أن يشركوهم في الغنيمة ففعلوا.

وروى الواقدي في (المغازي) أن المسلمين لما فتحوا حصون خيبر وجدوا هناك متاعاً وسلاحاً وأثاثاً كثيراً، «فأما الطعام والأدم والعلف فلم يخمَّس، يأخذ منه الناس حاجتهم».

كما يروي أن الرسول ﷺ نادى خلال حصار الطائف سنة (٨هـ) أن أي عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج إليه بضعة عشر رجلاً، فاعتقهم وسلّم كلَّ رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ويحمله.

يروي أيضاً أن الرسول ﷺ اقترض في أعقاب فتح مكة مبلغ

ثلاثين ومائة ألف درهم من عدد من سكان مكة، وقسمها بين أصحابه من أهل الضعف، فأصاب الرجل خمسين درهماً أو أقل أو أكثر.

ويروي البلاذري في (الأنساب) أن يهود فدك صالحوا رسول الله ﷺ على نصف الأرض، فكان يصرف ما يأتيه منها على أبناء السبيل. وأن رجلاً من بلقين قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بوادي القرى فقلت: يا رسول الله لمن المغنم؟ قال: لله سهم ولهؤلاء أربعة أسهم. قلت: فهل أحد أحق بالمغنم من أحد؟ قال: لا، حتى السهم يأخذه أحدكم من جنبه فليس بأحق به من أحد. وعن أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما هي ـ فدك ـ طعمة أطعمنيها الله حياتي، فإذا متُّ فهي بين المسلمين».

وقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): كان للرسول ﷺ ثلاث صفايا؛ فكانت بنو النضير حبساً لنوائبه، وكانت فدك لابن السبيل، وكانت خيبر قد جزأها ثلاثة أجزاء: فجزءان للمهاجرين، وجزء كان ينفق منه على أهله، فإن فضل رد على فقراء المهاجرين.

وليس هذا التأكيد في التوزيع على المهاجرين سوى محاولة من الرسول ﷺ لإعادة التوازن الاجتماعي بينهم وبين الأنصار، هذه المحاولة التي بدأت بمؤاخاتهم مع الأنصار، ثم تطورت بمنحهم مزيداً من فرص الحصول على المال، لكي يبلغوا مرحلة الكفاية، ويتمكنوا من مواصلة نشاطهم الاجتماعي. وليست مسألة

توزيع أموال بني النضير الكثيرة على فقراء المهاجرين، وحجبها إلّا عن قلة من الأنصار سوى استمرار على ذات الطريق.

وقد قدم القرآن الكريم من خلال هذه التجربة بالذات موقفه الحاسم إزاء التوازن الاجتماعي والأمن الغذائي عندما قال: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

وكان الصحابة في عهد رسول الله ﷺ يأتي كل واحد منهم من أصحاب النخيل بالعذق عند جذاذه ثم يعلقه على باب المسجد يأكل منه من يشاء. وعن ابن عمر قال: لقد أتى علينا زمان وما أحد أحقّ بديناره ودرهمه من أخيه المسلم، وعن أنس بن مالك قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، فلما أنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى قال: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وأن أحب أموالي إليَّ بيرحاء، وأنها صدقة لله أرجو برَّها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله: بخ بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح. وقد سمعتُ ما قلتَ وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه».

وعن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قلَّ طعام عيالهم بالمدينة،

جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناءٍ واحدٍ بالسوية، فهم مني وأنا منهم».

وأظن أن هذا يكفي... فأما الأمن الثقافي، فيكفي أن نتذكر كيف أن رسول الله ﷺ كان يستشير أصحابه في كثير من الأمور، وكيف أنه تعمَّد أن يربِّيَهم على «الشورية» وحرية الرأي في مواجهة المواقف الصعبة... والوقائع كثيرة... كثيرة جداً، تملأ صفحات عصر الرسالة من بدئه حتى منتهاه... وقد لا ندهش إذا رأينا آيات الله البينات تتنزل بين الحين والآخر لكي تؤكد رأي هذا الصحابي أو ذاك وتقرَّه، فتعمق في العقول والنفوس المؤمنة مبدأ المشاركة وحرية القول... وقيم الأمن الثقافي في نهاية الأمر.

ولم يقف الأمر عند حدود تعامل المسلم مع المسلم، أو النبي (القائد) مع أصحابه... وإنما مضى لكي ينسج التقاليد نفسها مع الآخرين. وقد تكفي إشارة واحدة هنا تغني عن مثيلاتها. فإن رسول الله ﷺ عندما فتح خيبر، بعد مقاومة عنيفة جاوزت العشرين يوماً، تلقى ضمن الغنائم صندوقاً يحتوي على ملفات من العهد القديم (التوراة). وتوقع رجالات اليهود أنه سيأمر بحرقها لأنها تعبّر عن فكر الخصم، فما كان منه إلّا أن أمر أصحابه بحمايتها من التلف، وإعادتها إلى الأحبار كاملة غير منقوصة. **ويقول الباحث اليهودي إسرائيل ولفنسون في كتابه (تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام) أن اليهود ظلوا على مدار القرون يشيرون بالبنان إلى هذا الفعل النبيل من رسول الله ﷺ.**

وفيما بعد، وعلى مدى تاريخنا الطويل استمر الأجداد يمنحون أمنهم الثقافي للمسلمين وخصومهم على السواء، ما داموا جميعاً كمواطنين في دولة مسلمة. ولقد كتب المستشرقون في هذا وقالوا فيه كثيراً، سيلاً من الشهادات التي تؤكد هذا التوجه. وقد تختصرها شهادة المستشرق الإنكليزي المعروف سير توماس أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) من أنه، عبر بحثه الطويل عن سبل انتشار الإسلام، لم يجد على مدى ثلاثة عشر قرناً حالة واحدة أُكره فيها غير المسلم على اعتناق الإسلام.

لا أريد أن أطيل، وقد تجد في كتاب صدر حديثاً للشيخ راشد الغنوشي بعنوان (الحريات العامة في الدولة الإسلامية) (١٩٩٣م) إجابات وافية عن الموضوع.

قد تسألني عن محنة ابن حنبل وإعدام السهروردي والحلاج... فأقول لك: ارجع إلى التاريخ نفسه لكي تقيس مساحة هذه الحالات على المجرى العام، وقارن ذلك بما جرى ويجري في تواريخ الأمم الأخرى، لكي يتأكد لك أنه الاستثناء الذي يعزز القاعدة ولا ينفيها.

❁ ❁ ❁

**ـ لسنا ملزمين باحترام جميع علماء الغرب في العلوم الإنسانية، سواء كان ذلك لاعتبار توجس منهجي وعلمي أحياناً، أو بسبب توظيف العلم لخدمة الأيديولوجيا والأفكار العنصرية. ويكفي نماذج سيريل بيرث وهانز أيزنك وجنسن، وعلماء النفس التابعين**

للمخابرات المركزية الأمريكية أو المتعاونين معها من العلماء والباحثين. **إن الخلط بين العلم وبين توظيفه لخدمة السياسة ظاهرة واضحة في الغرب. فكيف يستطيع عالم النفس في ديارنا العربية والإسلامية أن يساعد بلده في تجاوز الدعاية الموجهة لتدمير البنى بأشكالها وأنواعها؟ كيف... ومتى؟**

= لقد تضمّنت إجابتي على سؤال سابق موازٍ لهذا، جانباً من الموضوع، ذلك الذي يتعلق بضرورة عدم التسليم بنتائج العلوم الإنسانية «الغربية»، وأشدد على الكلمة لأن هذه العلوم ليست كالكيمياء والفيزياء والرياضيات يمكن فصلها عن البيئة الثقافية والبشرية التي تتشكل فيها. وبالتالي فهي ترتبط بشكل أو آخر «بوضع» الإنسان والجماعة الغربية ورؤيتهما للكون والعالم والإنسان وطبيعة تعاملهما مع الوجود والمصير.

والآن، فإن الشق الآخر من سؤالك يثير تحدياً ذكياً إزاء دوائر النشاط العلمي العربية والإسلامية.

لن أدخل في التفاصيل التي هي من اختصاص العلماء أنفسهم، كلٌّ في الحقل الذي يعمل فيه، ولكني سأقدم إطاراً عاماً بالإيجاز الذي يتطلبه لقاء كهذا...

إذا أردنا أن نواجه التوظيف الغربي لمعطيات العلوم الإنسانية ضد قيمنا ومصالحنا وأهدافنا، أو كما تسميه «بنى» حياتنا بأشكالها وأنواعها كافة؛ فإن علينا أن نقوم بالشيء نفسه! ليس على حساب مطالب العلم ومنهجيته وموضوعيته، وإنما الإفادة من

نتائجها لرد الهجمة المضادة، وتأكيد الذات قبالة محاولات ملحّة تسعى بشكل مباشر أو غير مباشر، منظور أو غير منظور، إلى تفكيكنا وإلغاء خصوصياتنا وتجريدنا من القدرة على الفاعلية، ليس في مجال التنمية المادية والتكاثر بالأشياء فحسب، وإنما ـ وهذا هو المهم ـ في ساحة التأصيل العقدي والإنساني في نهاية الأمر.

وكما تعلم، فإن الهجوم أحياناً ـ كما يقول العسكريون ـ هو خير وسيلة للدفاع. فلا يكفي أن يقوم علماء الإنسانيات في ديارنا بردّ الهجمات الغربية التي تركب الكشوف العلمية وتسخّرها، وإنما أن يمضوا خطوةً أبعد، فيفيدوا من نتائج بحوثهم للهجوم على مرتكزات الفكر والحياة الغربية وتعرية أخطائهما وتناقضاتهما.

ولن يكون ذلك بكلمات تقال أو تمنيات تطرح عبر المؤتمرات والندوات تأخذ دائماً صيغة توصيات ثم ما تلبث أن «تحفظ» في أدراج المكاتب. وإنما يكون بوتائر عالية من الفاعلية... بحشود من العلماء المتخصصين الذين يملكون الأصالة والخبرة معاً.. الانتماء الجاد للعقيدة والعلم معاً، حيث لا انفصال بينهما البتة في دائرة «الإسلام».

الإلمام الموغل في العلم الغربي كلٌّ في دائرة تخصصه، ومع هذا الإلمام وبموازاته فقه عميق لمقاصد الشريعة التي لن يكون العلم فيها هدفاً بحدّ ذاته، كما أنه لن يكون كافراً أو مارقاً أو خارجاً عن الناموس... إنه والحالة هذه يتناقض ـ ابتداءً ـ ومهمته الأساسية وقدرته على التصالح مع الكون والعالم واكتشاف

سرّهما، رغم أن الغربيين حاولوا ذلك، لكنهم في العقود الأخيرة أدركوا خطأ موقفهم ففاء بعضهم إلى باحة الإيمان لكي يجد الفرصة أكثر مواتاة.

أن يكون لدينا، مع حشود العلماء، المدى الأقصى من الإمكانات الفنية والتقنية والخدمية والمادية التي تعينهم على أداء مهمتهم بأكبر قدر من الإبداع والإتقان.

في يوم ما كانت المؤسسة السياسية في الغرب قد وظفت عدداً من المستشرقين المعنيين بحقول التاريخ والآثار والجغرافيا... واللغة والآداب... للإعانة على تحقيق أهدافها. ولا تزال المحاولة قائمة حتى اللحظات الراهنة، وقد ازدادت ـ بالتأكيد ـ قدرة على الفاعلية بسبب تراكم الخبرة وتقدُّم التكنولوجيا وتناقُل المعلومات.

واليوم تُعمل هذه الماكنة ذات الوجه العلمي والبطانة السياسية (والدينية أحياناً) مبضعها في وجودنا وتاريخنا وقيمنا وعقيدتنا وحضارتنا ومقوماتنا... إن سؤالك والحالة هذه ليس مهمّاً أو ضرورياً فحسب، ولكنه ـ مرةً أخرى ـ تحدٍّ يُطرح قبالة حشود من علماء الإنسانيات محسوبين على جغرافية الإسلام، ولكنهم في حقيقة الأمر لا يزالون يعيشون في أوروبا وأمريكا بعقولهم وأرواحهم ويتنفسون هواءهما!



ـ تحت مبرر الدراسة العلمية مُرِّرت أفكار فرويد الهدامة

للقيم والأخلاق والفضيلة والحب والوفاء وطاعة الوالدين، وغُرست مكانها مفاهيم كالصراع الأوديبي وعقدة الكترا، وجنسية الرضاعة، والمرحلة الشرجية، والقضيبية... الخ.

**هل الواقعية ومطالب البحث العلمي تعني ضرورة التحلل القيمي والأخلاقي؟ أين مفهوم التكريم للإنسان، وأفضليته؟ ولو سلّمنا جدلاً بصحة افتراضات دارون من الناحية العلمية، فإن نظرية فرويد تجعل الإنسان ـ على العكس ـ في حالة نكوص أبدي... فكيف يكون الانتخاب الطبيعي في ظل مفاهيم أحادية التفسير للسلوك الإنساني؟ وهل أن تفسيرات فرويد خالية من البعد الأيديولوجي والسياسي؟**

= لنبدأ بالقسم الأخير من سؤالك... إن فرويد هو كمعظم المتفوقين في تاريخ الشعب اليهودي رجل ملتزم، شئنا أم أبينا. ونتائجه في ميدان علم النفس لا تخلو من بُعد أيديولوجي أو سياسي، على الأقل في جانبها السلبي الذي أشرت إلى بعض حلقاته في بدء سؤالك، والذي يتمحور عند «ضرورة التحلل القيمي والأخلاقي» وتغييب البعد الإنساني في الممارسات البشرية.

إن أحد بروتوكولات حكماء صهيون يشير بوضوح إلى تبنّي فرويد، ورغم أن الجدل لا يزال قائماً حول مصداقية هذه البروتوكولات ومرجعيتها اليهودية، وإن كنتُ أميل إلى قبولها بسبب من تأكيد واقع الحال لمفرداتها بشكل مدهش عبر القرن الأخير... رغم هذا الجدل، فإن الذي يحدث «ميدانياً» هو أن

تدمير منظومة القيم في حياة من يسميهم اليهود بالجوييم أي الأمميين أو الأميين كما يطلق عليهم القرآن الكريم... سيقود إلى تأكيد الهدف اليهودي المتمركز على مدار التاريخ بإمساك الثور من قرنيه، إذا استخدمنا عبارة البروتوكولات نفسها.

إن تحويل الإنسان إلى «كائن جنسي» لهي مسألة في غاية الخطورة، لأن إمكانات توظيفها واسعة جداً ولا حدود لها. وإذا لم يكن فرويد قد فعل عبر معرفته النفسية ومعطياته في مجال التحليل النفسي سوى أن منح هذه المقولة شرعيتها العلمية، فإنه قد قدّم لليهود أحد أشدّ الأسلحة حدّة ومضاءً لذبح الخصوم وتدمير بنيتهم.

مهما يكن من أمر، فإن استنتاجات فرويد هي كمثيلاتها في دوائر العلوم الإنسانية مجرد احتمالات... محاولات للمقاربة... وليست بحال من الأحوال حقائق ومسلّمات نهائية... ومن ثم فإنه ما أن مضى على الإعلان عنها سوى فترة محدودة من الزمن حتى تلقت من علماء النفس الغربيين، بل من تلامذة وزملاء فرويد أنفسهم، من الطعون ما جعلها تنسحب قليلاً إلى الوراء لكي تخلّي الساحة لنظريات «وأشدِّد على الكلمة» أكثر حداثة وإقناعاً.

إنك في سؤالِكَ تشير إلى إحدى مفارقات العلم الغربي في خلفياته الإنسانية... ذلك التناقض الحاد في نظريتين مارستا دوراً خطيراً في تكييف الحياة الغربية عبر القرن الأخير بوجه الخصوص: الانتخاب الطبيعي لدارون، واللبيدو الفرويدي أو الأنا

السفلى التي تسحب الإنسان إلى دهاليز الشبق والملذة وتجعله «خائفاً» أبداً و«ناكصاً» إزاء كوابت الأنا العليا.

إننا قبالة تضاد على زاوية منفتحة، مداها مائة وثمانون درجة، ينفي أحد طرفيه الآخر... فنحن إما أن نخضع لمنطق الانتخاب الطبيعي واصطفاء الأقوى، أو نسلّم بمنطق الهروب والنكوص قبالة تحديات الخبرة الدينية والاجتماعية.

فبأيِّهما نأخذ؟ وأيُّهما يمكن أن يكون «علماً» يقينياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

إن مطالب البحث العلمي وحتى الواقعية في التعامل مع الظواهر والأشياء، لا تتطلب بالضرورة انفصالاً عن القيم، وانفكاكاً عن الالتزامات الأخلاقية، كما أنها لا تشترط إلغاء الثوابت المتفق عليها لإنسانية الإنسان.

إن هذا لا يناقض ذاك أو يتعارض معه، وإنما يمنحه أطراً واسعة مرنة قد تمنعه ـ من بعيد ـ من الانزلاق ـ باسم العلم ـ صوب الخرافات والضلالات. والذي حدث عبر القرنين الأخيرين، واحدٌ من أكثر الانزلاقات في تاريخ الإنسان حدّةً وبشاعة... حيناً تحت مظلة الداروينية، وحيناً تحت مظلة الفرويدية، وحيناً ثالثاً تحت مظلة الوجودية السارترية، وحيناً رابعاً تحت مظلة الماركسية.

وبمرور الوقت أخذت تتضح جملة من الأخطاء الحادة التي عادت بعد أن ذبحت أجيالاً بكاملها من الأوروبيين وغير الأوروبيين، لكي تذبح المنتمين إلى هذه النظرية أو تلك، وتدين

صنّاعها وأربابها. ومن عجب أن الأرباب أنفسهم تخلَّوْا عن نظرياتهم ـ أحياناً ـ قبل أن ينسلَّ منها الأتباع فيما يذكِّرنا بحواريات الشيطان وأتباعه في العديد من المقاطع القرآنية: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

الحديث يطول أيها الأخ الكريم ولكني سأقف قليلاً عند بعض الحلقات.

يقول المفكر والأديب المجري المعروف أرثر كوستلر متحدثاً عن إحدى خبراته أيام كان منتمياً للحزب الشيوعي الألماني في الثلاثينيات: كان الدافع الجنسي مقرَّراً ومعترَفاً به، إلا أننا كنا في حيرة بشأنه. كان الاقتصار على زوجة واحدة، بل كان نظام الأسرة كله عندنا أثراً من آثار النظام البورجوازي ينبغي نبذه لأنه لا ينمي إلّا الفردية والنفاق والاتجاه إلى اعتزال الصراع الطبقي، بينما الزواج البورجوازي لم يكن في نظرنا إلّا شكلاً من أشكال البغاء يحظى برضاء المجتمع وموافقته. إلّا أن السفاح والاتصال الجنسي العابر كان يعتبر أيضاً شيئاً غير مقبول، وكان هذا النوع الأخير قد شاع وانتشر داخل الحزب سواء في روسيا أو خارجها، إلى أن أعلن لينين تصريحه الشهير الذي يهاجم فيه نظرية (كأس الماء) تلك التي تزعم أن العملية الجنسية ليست أكثر خطراً وأثراً من عملية إطفاء العطش بكأس من الماء.

وكان الدكتور ولهلم رايخ، وهو رجل ماركسي من أتباع فرويد،

ومؤسس معهد (السياسة الجنسية) قد أصدر تحت تأثير مالينوفسكي كتاباً سماه (وظيفة الشهوة الجنسية) شرح فيه النظرية التي تزعم أن الفشل الجنسي يسبب تعطيل الوعي السياسي لدى الطبقة العاملة، وأن هذه الطبقة لن تتمكن من تحقيق امكانياتها الثورية ورسالتها التاريخية إلّا بإطلاق الحافز الجنسي دون حدود أو قيود.

وهو كلام يبدو الآن ـ كما يقول كوستلر نفسه ـ أكثر اعوجاجاً وسخفاً مما كان يبدو لنا في ذلك الحين.

وهذه النظرية التي يصوغها الدكتور الماركسي ـ الفرويدي: رايخ، والتي تمثل امتداداً ميكانيكياً لمقولة ماركس وانغلز في (المنشور الشيوعي) المعروف، يجيء لينين الزعيم الماركسي لكي يقلبها رأساً على عقب، وهو بصدد مهاجمة نظرية (كأس الماء)... فتأمَّل!.

من ثم، فإننا لا ندهش ـ أيها الأخ الكريم ـ إذا قرأنا في (حدود العلم) لسوليفان ـ على سبيل المثال ـ أن علم النفس ما زال في الوقت الحاضر في مرحلة بدائية جداً! بل إن البعض ينكر وجود أي علم من هذا القبيل!! وأنه ليس هناك بالتأكيد نظام من المعارف النفسية الثابتة التي جرى إقرارها بصورة عامة، بل هناك عدد من النظريات، لكل منها مجال محدود للتطبيق، وهي تختلف عن بعضها اختلافات عميقة حينما تتناول الظاهرة نفسها.

وأظنك معي في أنه إذا كان لنظريتين في علم النفس رأيان مختلفان تماماً إزاء ظاهرة من الظواهر، فكيف يتاح لنا أن نحكم على صدق المنهج النفسي، وعلميته، ويقينيته؟ فإذا ما تأكد أن إحدى النظريتين مصيبة، بشكل أو آخر، كانت الأخرى بالتأكيد خاطئة، وليس لنا من ثم أن نعتقد بأن علم النفس يتكئ على دعائم ثابتة، كما يحدث في الفيزياء والكيمياء، رغم أن هاتين تتعرضان ـ أيضاً ـ ولكن بنسبة أقل لتغيرات أساسية في صميم مقولاتهما.

وقد يقول قائل: إن كلّاً من النظريتين النفسيتين تتضمن قدراً من الخطأ وقدراً من الصواب، وفي هذه الحالة أيضاً لا يمكن الاطمئنان إلى سلامة المنهج الذي يعتمده علماء النفس في صياغة نظرياتهم، لأنه ـ في أغلب الأحيان ـ يعتمد التعميم، ومن ثم تختلف النظريات النفسية ـ أحياناً ـ اختلاف النقيض مع النقيض، دون أن يكون هناك قاسم مشترك. ذلك أن «التعميم» هو الضربة القاتلة لمناهج البحث العلمي الرصين.

ومهما يكن من أمر، فإن سوليفان يتناول بالتحليل والنقد اثنتين من أبرز النظريات النفسية وأكثرها انتشاراً: النظرية السلوكية، ونظرية التحليل النفسي، لكي ما يلبث أن يصدر حكمه على ضعف واهتزاز النتائج التي توصلنا إليها بصدد تركيب العقل البشري وطريقة عمله.

وهو يرى أن السلوكيين، إلى جانب قيامهم بوضع نظريات على أسس واهية جداً من الحقيقة؛ فإنهم يقدّمون نظريات تناقض

خبراتنا المباشرة. إنهم ينكرون الحقائق الواضحة، ينكرون أننا نستطيع تشكيل صورة بصرية أو سمعية وما إليها في عقولنا. إن أولئك الذين يمتلكون من بيننا قدرة عظيمة على تكوين الصور البصرية العقلية، أو الذين يستمتعون بالإصغاء العقلي للأعمال الموسيقية المحببة لديهم، يعلمون أن هذه المقالة لا تنطوي على أي جانب من الصحة. حقاً إن النظرية السلوكية عندما يجري تطبيقها على العمليات العقلية البسيطة جداً، تبدو قاصرة إلى درجة تصبح معها غير ذات قيمة!

وبخصوص نظرية التحليل النفسي يعرض سوليفان للعديد من المحاولات التي انشقت عن فرويد، ويشير بسخرية إلى أن عدد هذه المحاولات من الكثرة بحيث تنافس المسيحية في طوائفها، وكل طائفة من طوائف التحليل النفسي تدّعي لنفسها، مثل طوائف المسيحية، نظرة شاملة وواقعية، وتشير إلى قائمة مؤتمرة من العلاجات الروحية والجسمانية لإثبات كفاية تعاليمها وصلاحيتها. إن أي شكل من أشكال التحليل النفسي لا يمكن اعتباره في وضع مُرضٍ كعلم. ولا يمكنه اللجوء إلى النتائج من أجل إثبات النظرية لأن هذه النتائج، أي العلاجات التي يقدمها (التحليل النفسي) يمكن بنفس الدرجة تقريباً الحصول عليها من خلال نظريات مختلفة كلية. لذلك لا يمكن الحكم على هذه النظريات من خلال النتائج. ويتبع ذلك أن هذه النظريات يمكن فقط الحكم عليها بالاستناد إلى احتمالاتها الأولية. وهنا نواجه صعوبة تتمثل في أن

كل أشكال التحليل النفسي تظهر محتملة بدرجات متساوية تقريباً. وربما وجب التفريق لمصلحة تلك النظريات التي تأخذ بفكرة اللاشعور، وذلك في مقابل تلك التي تنبذ هذه الفكرة. إن مفهوم اللاشعور مفهوم مهم بالتأكيد، لكنه وجد قبل التحليل بوقت طويل. وهكذا فإن كون التحليل النفسي قد أدخل شيئاً جديداً هو موضع جدل ونقاش.

والنتيجة التي ينتهي إليها سوليفان، أنه ليس في نظريات علم النفس كافة شيئاً من شأنه أن يغيِّر جدّياً في قناعتنا بأن هذا العلم لا يمكن اعتباره علماً حتى الآن. وللمعارف الأخرى أيضاً مثل علم الاجتماع والاقتصاد، وما إلى ذلك، بعض النواحي التي لا تعتبر مُرضية من وجهة النظر العلمية. والعلم هو أقوى ما يكون عليه عندما يتناول العالم المادي. أما مقولاته في المواضيع الأخرى فتعتبر نسبياً ضعيفة ومتلجلجة!

وهي ـ كما ترى معي ـ نفس النتيجة التي ينتهي إليها الكسيس كاريل في (الإنسان ذلك المجهول)... إن السيطرة على عينة من العالم المادي لغرض فهمها ممكنة إلى حدّ ما، أما السيطرة على عينة يدخل فيها الإنسان، والعقل، والحياة، طرفاً، فتكاد تكون مستحيلة. ومن قبل سئل الرسول ﷺ عن الروح: معجزة الإنسان، وسرّ العقل، ومفتاح الحياة، فأجاب القرآن الكريم عنه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ها أنت ترى معي كيف يتساقط رموز العلمانية الملحدة التي تتنكر لله... والإيمان... وها هو ذا جان بول سارتر، زعيم الوجودية الإلحادية، ينتهي إلى المصير نفسه... على يده هو، وباختياره هذه المرة، إنه يقول فيما ترجمه الدكتور محمد جابر الأنصاري بعنوان: «المحاورة الأخيرة بين سارتر ودي بوفوار» ونشرته مجلة الدوحة القطرية في (مايو ١٩٨٢م): «أنا لا أشعر بأني مجرد ذرّة غبار ظهرت في هذا الكون، وإنما أنا ككائن حساس تم التحضير لظهوره، وأُحسن تكوينه، أي بإيجاز ككائن لم يستطيع المجيء إلّا من خالق»!.

ثم ها هو ذا الدكتور أحمد أبو زيد يذكر في مقال له بعنوان: «هل مات دارون حقاً؟» (نشرته مجلة العربي في تموز ١٩٨٢م) كيف أنه صدر في إنكلترا منذ شهور قليلة وفي أواخر عام (١٩٨١م) كتاب يحمل عنواناً طريفاً هو «التطور من الفضاء Evolution From Space» قام بتأليفه عالم الفلك الشهير سير فريد هويل، وعاونه في ذلك أستاذ هندي يدرس في جامعة كارديف. ويعترف الأستاذان بصراحة في ذلك الكتاب بأنهما ملحدان ولا ينتميان لأي دين أو عقيدة، وأنهما يعالجان أمور الفضاء وحركات الكواكب بأسلوب علمي بحت، ومن زاوية عقلانية خالصة، لا تحفل ولا تتأثر بأي موقف ديني. ويدور الكتاب حول مسألة احتمال وجود حياة على الكواكب الأخرى، ويتناول بالبحث الدقيق الفكرة التي سادت في بعض الكتابات التطورية عن ظهور

الحياة تلقائياً من الأوحال الأولى نتيجة لبعض الظروف والتغيرات البيئية.

ومع أن هنالك نظريات معارضة لهذا الاتجاه، وهي نظريات ترى أن احتمال ظهور الحياة من هذه الأوحال أو الطين الأولى لا تزيد عن (١:١٠) فإن هويل يرى بعد حسابات رياضية معقدة وطويلة ودقيقة أن هذا الاحتمال لا يزيد بحال عن (١:١٠: ٤٠,٠٠٠) أي واحد إلى عشرة أمامها أربعون ألف صفر. مما يعني أنه لا تكاد توجد فرصة لظهور الحياة عن طريق التوالد التلقائي من هذا الطين، وبالتالي فإن الحياة لا يمكن أن تكون نشأت عن طريق الصدفة البحتة، وأنه لا بدّ من وجود عقل مدبّر يفكر ويبدّل لهدف معيّن. وعلى الرغم من اعتراف المؤلفين الصريح ـ كما قلنا ـ بإلحادهما؛ فإنهما لا يجدان أمامهما مفرّاً من أن يكتبا الفصل الأخير من الكتاب تحت عنوان «**الله ـ GOD**».

لقد طال الحديث كما ترى، ولكن لا بدّ أن أشير ها هنا إلى أن المعرفة الإنسانية سواء في ميدان علم النفس أو الاجتماع، أو حتى العلوم الصرفة وبخاصة علوم الطبيعة والحياة، كما رأينا، عادت عبر العقدين الأخيرين لكي تتصالح مع الإيمان، وهذا يعني بالضرورة تصالحها مع الثوابت والمرتكزات التي تحترم إنسانية الإنسان، وتميُّزه، وتفرُّده على العالمين.

**إن هذا التصالح أو الوفاق لم يؤثر البتة على حرية العالم في الكشف، بل على العكس إنه يجيء بمثابة دفع وتحفيز للمزيد من**

الكشف عن الحقائق والنواميس، التي لن تكون في نهاية الأمر إلّا تأكيداً لقصدية الخلق، وإحكام البناء الكوني، وإبداعية الله ﷻ.

اسمح لي أن أقفَ بعض الوقت عند كتاب «العلم في منظوره الجديد» لروبرت أغروس وجورج ستانسيو، والذي نُشر في العدد (١٣٤) من سلسلة عالم المعرفة في (شباط ١٩٨٩م). مترجم الكتاب الدكتور كمال خلايلي يلخص فصوله الخصبة بالحديث عن الظروف التي نشأت في ظلها النظرة العلّية القديمة، التي تطورت في العصور اللاحقة إلى مذهب مادي صارم، يؤمن بأزلية المادة، ويرفض من ثمَّ كلَّ ما هو غيبي، ولا يعترف في تفسيره لمختلف الظواهر إلّا بنوعين من العلل هما الضرورة والصدفة.

إزاء هذه النظرة المادية برزت إلى الوجود في مطلع القرن العشرين نظرة علمية منافسة، كان من ألمع روادها آباء الفيزياء الحديثة كآينشتاين وهاينزنبرغ وبور وكثيرين غيرهم، ممن استحدثوا مفاهيم جديدة كل الجدّة أطاحت بالمفاهيم والنظريات الفيزيائية السابقة، التي كانت رائجة منذ عصر أرسطو وحتى أواخر القرن التاسع عشر. فقد أثبت آينشتاين مثلاً نسبية الزمان والمكان، بل الحركة. وبيّن الفيزيائي الدانماركي نيلز بور أن الذرّة ليست أصغر جسيم يمكن تصوُّره، كما كان نيوتن يظن، بل إنها هي الأخرى مكوّنة من نواة يحيط بها عدد لا حصر له من الألكترونيات. وأجمعت آراء كبار علماء الفيزياء النووية والكوزمولوجيا على أن الكون بما يحويه من ملايين المجرات

ومليارات النجوم والكواكب قد بدأ في لحظة محددة من الزمن يرجع تاريخها إلى ما بين (١٠ و٢٠) مليار سنة، فثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن المادة ليست أزلية، وأن للنجوم آجالاً تولد وتموت كالآدميين، وأن الكون المادي نفسه في تطور وتمدد مستمرَّين، بل إن من بين الفيزيائيين الفلكيين المعاصرين من قادته نتائج أبحاثه إلى القول أن الكون كان مهيّأً منذ الانفجار العظيم لتطور مخلوقات عاقلة فيه، وأن الإنسان في مركز الغاية من إبداعه، فرأوا في ذلك كله، وفي الجمال المنتشر في الطبيعة على جميع المستويات هدفاً وخطة مرسومة، فآمنوا بعقل أزلي الوجود، منتصب وراء هذا الكون واسع الأرجاء يدبِّره ويرعى شؤونه.

ثم أعقب هذا الجيل من الفيزيائيين والفلكيين جيل آخر من العلماء المتخصصين في مبحث الأعصاب وجراحة الدماغ من أمثال شرنغتون واكلس وسبري وبنفيلد وقفوا حياتهم كلها على دراسة جسم الإنسان، فانتهت بهم أبحاثهم إلى الإقرار بأن الإنسان مكوّن من عنصرين جوهريين جسد فان وروح لا يعتريها الفناء، وبأن الإدراك الحسي وإن كان يتوقف على عمليات فيزيائية وكيميائية، ليس شيئاً مادياً بحدّ ذاته. وخلصوا كذلك إلى ما يفيد بأن العقل والدماغ شيئان مختلفان تمام الاختلاف، وأن الإرادة والأفكار ليستا من صنع المادة ولا من إفرازاتهما، بل هي على عكس ذلك تؤثر تأثيراً مباشراً في العمليات الفسيولوجية ذاتها.

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية شعر كثيرون من علماء

النفس أن إخضاع العقل للغريزة في طريقة التحليل النفسي، وإلغاءه في المذهب السلوكي، قد أفضيا إلى تجريد الإنسان من إنسانيته، فالتحمت في الخمسينيات من هذا القرن قوة ثالثة عُرفت فيما بعد باسم «علم النفس الإنساني»، ومن أبرز رواد هذه الممارسة فرانكل وماسلو وماي، الذين يعترفون بأولية العقل وبعدم قابلية حصره في الخواص الكيميائية والفيزيائية للمادة، وبكون الإنسان قوة واعية تملك حرية التصرف والاختيار، ويرفضون من ثم تفسير السلوك البشري كله بلغة الدوافع والغرائز والضرورات البيولوجية وردود الفعل الآلية، ويؤمنون عوضاً عن ذلك بما يسمى القيم الأخلاقية والجمالية والجوانب الروحية والنفسية والفكرية.

لا بأس ـ أخيراً ـ أن نقرأ معاً بعض مقاطع الفصل الرابع من الكتاب المذكور، والذي يحمل عنوان «**الله**»: «يبدو أن المادة ليست أزلية بالرغم من كل شيء. وكما يعلن عالم الفيزياء الفلكية جوزف سلك (فإن بداية الزمن أمر لا مناص منه). كما يخلص الفلكي روبرت جاسترو إلى أن (سلسلة الحوادث التي أدت إلى ظهور الإنسان بدأت فجأة وبعنف في لحظة محددة من الزمن، وفي ومضة ضوء وطاقة)».

فهل من إله في كون كهذا؟ الفيزيائي إموند ويتكر يعتقد ذلك فهو يقول: «ليس هناك ما يدعو إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانتا موجودتين قبل الانفجار العظيم، وأنه حدث بينهما تفاعل فجائي. فما الذي يميِّز تلك اللحظة عن غيرها من

اللحظات في الأزلية؟ والأبسط أن نفترض خلقاً من العدم، أي إبداع الإرادة الإلهية للكون من العدم». وينتهي الفيزيائي إدوارد ميلن بعد تفكُّره في الكون المتمدد، إلى هذه النتيجة «أما العلّة الأولى للكون في سياق التمدد فأمر إضافتها متروك للقارئ. ولكن الصورة التي لدينا لا تكتمل من غير الله».

«أما النظرة العلمية الجديدة فترى أن الكون بمجموعه ـ بما في ذلك المادة والطاقة والمكان والزمان ـ حدثٌ وقع في وقت واحد، وكانت له بداية محددة. ولكن لا بدّ من أن شيئاً ما كان موجوداً على الدوام، لأنه إذا لم يوجد أي شيء من قبل على الإطلاق فلا شيء يمكن أن يوجد الآن. فالعدم لا ينتج عنه إلّا العدم. والكون المادي لا يمكن أن يكون ذلك الشيء الذي كان موجوداً على الدوام لأنه كان للمادة بداية. وتاريخ هذه البداية يرجع إلى ما قبل (١٢ إلى ٢٠ مليار) سنة. ومعنى ذلك أن أي شيء وُجد دائماً هو شيء غير مادي. ويبدو أن الحقيقة غير المادية الوحيدة هي العقل. فإذا كان العقل هو الشيء الذي وُجد دائماً فلا بدّ أن تكون المادة من خلق عقل أزليّ الوجود. وهذا يشير إلى وجود كائن عاقل وأزلي خلق كلَّ الأشياء، وهذا الكائن هو الذي نعنيه بعبارة (الله)...».

إن هذا الخط الجديد من العلماء، وبموازاته حشد من فلاسفة العلم من مثل الفرد نورث وايتهيد وسوليفان وغيرهما، أبحروا باتجاه معاكس لمعطيات القرن الماضي، قرن الفصام النكد الذي أقامته الكنيسة والإلحاد بين العلم والدين، ودعَوْا إلى

احترام القيم الإنسانية ليس في ذاتها فحسب، بل لكونها تمثل عوامل تسريع في الكشف العلمي والتحام أكثر حميمية بالعالم والطبيعة والكون.

❁ ❁ ❁

ـ كلما ازداد الإنسان علماً ومعرفة وإحاطة بفهم الكون، ازداد حيرةً وقلقاً وتصنيعاً لآلات الخراب والدمار وفنائه المحتوم... المظلومون أكثر بكثير من الظالمين... كثير من المظلومين قاوموا ويقاومون الظلم، ولكن قوة الظلم تسحق وتبيد آلاف وملايين البشر... **أمن العقلانية أن يتساوى الظالم والمظلوم الذي قاوم وتمّ سحقه؟ ألّا يكفي هذا كمبرر أخلاقي وعقلاني ومنطقي لوجوب حساب آخر يتولاه عادل مطلق؟ ألّا يكفي ذلك لعقلنة الإيمان بيوم القيامة وعدالة الحساب الإلهي؟!**

= بكل تأكيد... وإلّا أصبحت الحياة عبثاً لا معنى له ولا جدوى من ورائه... ليس ظلم الإنسان للإنسان فقط، ولا تسلّط الطواغيت على المستضعفين في الأرض فقط... ولكن ظلم الإنسان للحقيقة الكونية التي تعكس وتؤكد بنبضها ومعطياتها كافة وجود الله ﷻ وحاكميته وربوبيته ووحدانيته...

إن القرآن الكريم يسمي الشرك: الظلم العظيم، لأنه الكذبة الكبرى في تاريخ البشرية... إنكار مترع بالصفاقة واللاأخلاقية والغباء للحقيقة الأمّ في الوجود على امتداده في الزمن والمكان... من الأزل إلى الأبدية، ومن الأرض المنحسرة إلى ساحات الكون الكبير.

وتجيء الأديان، التي يختمها الإسلام ويتوّجها باعتباره منهج العمل الشامل والأخير لمسيرة الإنسان على الصراط وتحريره، ولتجاوز السبل المعوجة التي تقوده إلى التيه والدمار... تجيء لكي تمارس دوراً مركّباً لمجابهة الظلم بأصنافه كافة، وردّ الأمور إلى نصابها، وإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

الطبقة الأولى من هذا الدور تتمثل في محاولة «الدين» صياغة عالم عادل لا ظالم فيه ولا مظلوم. فلو أننا عدنا لتفحّص الجهود التي بذلها الأنبياء جميعاً (عليهم أفضل الصلاة والسلام)؛ فإننا سنجدها تتمحور عند هذا الهدف العزيز: ملاحقة الظلم بكل صيغه وأنماطه، وإنصاف المظلومين من الظالمين.

وتكون البداية دائماً... يكون المنطلق وحجر الزاوية شهادة **(لا إله إلّا الله)**، وتشديد النكير على أكذوبة الشرك وما يتمخض عنه بالضرورة من طاغوتيات، تأخذ برقاب المستضعفين وتلحق بهم صنوف الابتزاز والإذلال والهوان.

من أجل هذا؛ ما كان بمقدور الزعامات الظالمة كافة قبول الدين والتسليم بدعوات الأنبياء، كما لم يكن بمقدورهم السماح للأتباع بالتحرّر من ربوبيتهم المدّعاة، والانخراط في صف هذه الدعوات التي جاءت لكي تفكَّ الارتباط بينهم وبين السادة بشهادة **(لا إله إلّا الله)** التي هي شهادة التحرير والعدل والخلاص.

ولو أن الأمر لم يكن كذلك، ما استشاطت الزعامات الجائرة غضباً على الأنبياء، وهم ما طلبوا منها مالاً أو كلّفوها بمشقة،

وإنما دعَوْها وأتباعها إلى كلمة الله، وكلمة الله تعني الشهادة بوحدانيته وربوبيته وحاكميته... ومعنى هذا أن الطواغيت سيخسرون منذ الجولة الأولى مواقعهم الفوقية، التي أتاحت لهم التسلّط في الأرض واستعباد المستضعفين، وإرغامهم على تحويل حياتهم إلى سخرة موصولة في خدمة الطاغوت... وإلّا فهي الملاحقة والأذى وتشديد النكير... والظلم الذي يأخذ ألف شكل وشكل، ولكنه يتمركز عند معنى واحد هو أساس كل المظالم والويلات: أن يظل السادة سادةً والعبيد عبيداً...

لكن هذا الذي ينفِّذه الأنبياء (عليهم السلام) عبر سنيّ الدعوة والكدح والاضطهاد والمعاناة لصياغة العالم العادل الذي لا ظالم فيه ولا مظلوم... وتحرير الإنسان من كل صيغ الظلم والقهر والابتزاز، ليس سوى أحد وجوه الصورة أو الحالة المركّبة... وتظل هناك وجوه أو طبقات أخرى، يعلو بعضها بعضاً، ويتصل بعضها ببعض انتهاءً بيوم الحساب، الذي لن يفلت أحد كائناً من كان من الحضور في محاكمته الكبرى.

فإذا كانت الحياة الدنيا قد سمحت لهذا الطاغوت أو ذاك بالإفلات... إذا كانت طبيعة التجربة التاريخية المنقوصة، المترعة بالثقوب والممرات قد أتاحت لهذه القيادة الظالمة أو تلك أن تنجو من طائلة العقاب، ومكّنت هذا المجرم أو ذاك من المناورة والاحتيال وعدم الوقوع في دائرة القصاص؛ فإن يوم الحساب سيكون له شأن آخر... إنه بمعنى من المعاني الصيغة المكتملة

للقصاص... المحاكمة التي تنطوي كل حيثياتها وحلقاتها على العدل المطلق، حيث الحضور الإلهي الذي لا يحابي ولا يميل ولا يداجي وحاشاه...

وحينذاك تكتمل الصورة، وتأخذ خطوط الرحلة البشرية بتفاصيلها كافة، ملامحها النهائية، فإذا بها تتكشف في نهاية الأمر عن المغزى والجدوى.

وطالما حدثنا كتاب الله ﷻ عن يوم الحساب ذاك... عن النواصي التي ستُسفع بسبب ما مارسته في الحياة الدنيا من كذب وخطايا واستعلاء... عن التكبيل بالسلاسل والأغلال للطواغيت الذين كبّلوا الجماهير بالقهر والظلم... عن الأرباب الذين سيتعرّضون لأشد صيغ المهانة والعذاب.

وطالما حدّثنا كتاب الله ﷻ ـ كذلك ـ عبر آيات ومقاطع شتى عن تبرُّؤ الأتباع من الأرباب، والحوار المترع بالسخرية الذي يدور بين الطرفين، والذي يتمحور عند إدانة «التبعية» وقبول «الظلم» والتنازل عن الحرية التي منحها الله للإنسان، فقدَّمها رغباً أو رهباً للطاغوت يفعل بها ما يشاء.

والقرآن الكريم يبين لنا بأسلوب ساخر، شكوى هذه القواعد التي دانت بالطاعة الاختيارية لحكامها وطواغيتها: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٨]. وهنالك آيات أخرى كثيرة يدور فيها الحوار على هذا النسق بين التابعين والمتبوعين يمكن أن نجدها في إطار المشاهد التي يعرضها القرآن عن يوم

الحساب: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧]، ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

إن يوم الحساب، فضلاً عن أنه حقيقة كونية بحدّ ذاتها، فإنه يحمل مغزى أخلاقياً بخصوص الوضع البشري في العالم، والذي يخترق بالظلم فلا يتمكن المظلومون، بسبب طبيعة الحالة التاريخية، من الردّ... وتجيء إرادة الله ﷻ في يوم الفصل هذا ـ واسمه يدل عليه ـ لكي تلوي أعناق الطواغيت، وتكسر أيديهم، وتمرّغ أنوفهم في نار جهنم ورمادها.

❁ ❁ ❁

ـ كمثال صارخ لتجريح الذات، والشعور بالدونية، وعدم الثقة بالنفس، اعتبار كثرة المصادر الأجنبية علامة من علامات الدقة والجودة والإتقان... وفي إحدى المناقشات العلمية لأطروحة دكتوراه قال (بروفيسور) عراقي بازدراء: ومن هو أبو حطب؟ رغم أن لأبي حطب منظور في علم النفس المعرفي وتفسير الذكاء... **هل توافقوننا على أن هذا مثال صارخ لتجريح الذات، وعدم الثقة بكل ما هو منطوق بلغتنا أم أن هناك تفسيراً آخراً؟**

= إن المشكلة في أساسها أننا في ديارنا العربية والإسلامية... في مؤسساتنا ودوائرنا المختلفة على مدى جغرافية العالم الإسلامي، نعيش حالة فوضى وغياب للبرمجة والتخطيط، ما شهدتها أمة من الأمم في التاريخ!

إننا نملك خامات بشرية غنية، وقدرات إبداعية فائقة، وطاقات عقلية لا تقلّ كفاءةً عن أكثر الشعوب المتفوّقة تمدُّناً وتقدُّماً... ولكن هذا كله يكاد يضيع في خضم الارتجال والتسيب والتضارب... وغياب البرمجة والتخطيط... وتداخل الأولويات.

بل إن هناك ما هو أنكى من هذا، إنه خطيئة هدر الطاقة، بل حصارها وتضييق الخناق عليها، وتدميرها، إذا اقتضى الأمر وتعارضت معطياتها مع مطالب الطاغوت الخارجي حيناً، والأهواء الداخلية حيناً آخر.

إن القدرة العقلية العربية أو الإسلامية لا تحمل قيمتها ابتداءً، كما أراد لها الله ﷻ أن تكون، وكما هو الحال ـ إلى حدّ كبير ـ في البلدان المتقدمة، وإنما هي تكسب قيمتها بإضافتها إلى مطالب الأهواء وضرورات القسر والإكراه والتوظيف، الذي كثيراً ما تنحرف به السبل فيتحول إلى الهدم بدلاً من البناء... ويضيع.

انظر ـ مثلاً ـ شاشات التلفاز وهي تقدم نقلاً مباشراً لإطلاق إحدى سفن الفضاء... إن الكثيرين ممن يجلسون وراء أجهزة التوجيه هم من ديارنا العربية والإسلامية ما بين مصري

أو باكستاني أو أفغاني... الخ... ما الذي جاء بهم إلى الولايات المتحدة لكي يقدموا خبراتهم الغنية في خدمة مراكز الفضاء؛ سوى الإهمال الذي لقوه في ديارهم، وغياب التقييم الحقيقي لقدراتهم المتفوقة، وفقر الإمكانات المادية والتقنية للإبداع والابتكار... والفوضى التي تأخذ برقاب الحركة العلمية في طول هذا العالم وعرضه؟

صحيح أن هذا كله لا يبرّر وضع قدراتهم تحت تصرّف الطاغوت الأمريكي، الذي يتفرد اليوم أو يحاول أن يتفرّد بمصير كرتنا الأرضية... إلا أن واقع الحال هو هذا... والدوافع عنيفة وقاهرة... ولن يكون الحصاد المرير إلّا من جنس ما زرعته أيدينا.

قد تقول أن هذا ربما ينصبّ على حقل العلوم التطبيقية (التكنولوجيا) ـ وإلى حدّ ما ـ حقول (العلوم الصرفة)... فما شأن العلوم الإنسانية التي تعجّ ديارنا العربية والإسلامية بالأفذاذ في فروعها المختلفة؟

والجواب قد يقودنا إلى طرح احتمالات شتى لهذا الإحساس بالدونية إزاء الآخر، ولكن يبقى الاحتمال الأول هو أن البيئة الغربية أتاحت لعلماء الإنسانيات أيضاً الفرصة الكاملة أو شبه الكاملة للتحقق، والتفوق، بما في ذلك البعد الإعلامي الذي يضفي على العالم الغربي، أو الأستاذ الجامعي المتفوق هالة من القداسة والإكبار.

أما في ديارنا، فإن الفوضى ـ مرةً أخرى ـ تغطي كل شيء،

فيضيع في غبارها ودوّاماتها التي تلفّ صباح مساء على غير هدى، جلّ المتفوقين، ويصير الاستشهاد بأحدهم ـ أحياناً ـ فرصة للتندر... بينما يصبح استدعاء الشاهد الغربي أكثر حجية وإقناعاً.

لا أكتمك القول في أن هناك عوامل أخرى لما تسميه «تجريح الذات»، إنها ولا ريب النقص، أو عقدة النقص التي تعرفها جيداً في دراساتك النفسية، وهي وليدة خبرات متصلة من الإحباط الذي يقود إلى الإحساس بالدونية، والنظر بإعجاب يفوق الحدود المنطقية، إلى الآخر الذي أتاحت له شبكة الشروط التاريخية أن يستعمرنا في يوم من الأيام، وأتاحت لحضارته أن تكون هي الحضارة الغالبة.

لكن هذا ليس هو قدرنا النهائي، كما أن الاستسلام لهذا الضغط العقلي والنفسي قد يقودنا إلى الدمار... أو في الأقل عدم مغادرة مواقعنا المتخلفة والتقدم إلى الأمام في محاولة جادة للّحاق بالخصم... إن لم نقل التفوُّق عليه... وهو أمر ليس مستحيلاً كما يخيّل للمهزومين، ولكنه ممكن شريطة أن نأخذ بالأسباب ونضع خطواتنا على البداية الصحيحة.

ودائماً تكون البداية الصحيحة هي استعادة الثقة بالذات، ولن تتحقق هذه الاستعادة إلّا باستدعاء العقيدة مرةً أخرى، فإنها ـ في الإسلام ـ تفعل الأفاعيل، لأنها تملك شبكة الشروط الملائمة تماماً للنشوء الحضاري وتناميه.

إنني أتذكر هنا عبارة روجيه كارودي المعروفة وهو يتحدث

عن شعار (**لا إله إلا الله**)، ذلك الذي يستطيع ـ بإحسان التعامل معه ـ نقل الجبال من مواضعها.

ويومها لن يقول أحد: «من هو فؤاد أبو حطب؟»، لأن أبا حطب بخصوصياته العقدية، وخبراته المعرفية، وكشوفه المتميزة في مجال تخصصه سيفرض احترامه حتى على العقل الغربي الذي لا يرتاح لأولئك الذين يعكسون همومه وكشوفه كالمرايا أو أجهزة الاستنساخ، وإنما للمبدعين الذين يقدمون شيئاً جديداً متميزاً، ورؤية للكون والحياة والإنسان، تختلف في أساسها عما ألفه الغربيون، وتعينهم ـ في الوقت ذاته ـ على العثور على الجواب... وهو جواب «كوني»، إذا استخدمنا عبارات كارودي مرةً أخرى... فالمشكلة ـ كما يقول الرجل ـ كونية ولا بدّ للجواب أن يكون كذلك.

❁ ❁ ❁

**ـ ما هي أهمية الجوانب الآتية لبناء الشخصية السليمة؟**

**ـ العقيدة؟**

= الأساس الذي يقوم عليه البنيان، فلو أنه كان مائلاً أو منحرفاً لمال معه البنيان، ولو أنه أقيم على غير أساس... أي بعيداً عن العقيدة... فكأنه أقيم على شفا جرفٍ هارٍ قد يتعرض للانهيار في أية لحظة.

إن العقيدة تمنح الإنسان والجماعة مرتكزات وثوابت ذاتية وموضوعية، فأما الموضوعية فأمرها معروف، وأما الذاتية التي تهمّنا في مسألة بناء الشخصية السليمة، فإن الذي يلمحه المرء في

دائرة العقيدة الإسلامية على وجه التحديد، أن كل مفرداتها تصب في هذا الاتجاه: تعزيز الشخصية البشرية وتأكيدها ومنحها فرصة النمو والتكامل وإعانتها على التحقق بأقصى وتائر الفاعلية والتوازن.

لن يتسع المجال لاستدعاء الشواهد والمفردات ـ عبر لقاء كهذا ـ ويكفي أن يرجع المرء إلى كتاب الله وتعاليم رسوله الكريم ﷺ لكي يرى بأمِّ عينيه حشود المعطيات التي تبعث الشخصية السوية السليمة القديرة على ممارسة دورها (الإنساني) في أعلى مستوياته.

وهذه القدرة على بناء الشخصية لا تقف عند حدود الفرد، وإنما تتجاوزه إلى الجماعة... وإلى الخارج الموضوعي، لكي ما تلبث أن تبني عالماً سعيداً، متوازناً، قديراً على النمو والتجدد والإبداع.

إنها أشبه بمعادلة ذات طرفين، وعملة ذات وجهين، فإن نشوء الحضارات وتناميها لا يتحقق إلّا بقوة الشخصية السليمة، وهذه لن تتحرك في الفراغ، ولا بدّ لها من وسط حضاري تمارس عملها فيه. إنني اللحظة أتذكر تلك الملاحظة القيّمة التي عرضها الشهيد سيد قطب في كتابه (أسس التصور الإسلامي) وهو يتحدث عن الألوهية في المنظور الإسلامي... إن كل واحدة من صفات الله (جلّ في علاه) تمارس دوراً إيجابياً فاعلاً في بناء الشخصية السليمة، ومن خلال مجموع هذه الصفات نجد أنفسنا قبالة شخصيات تتمتع بأقصى وتائر التوازن، والتوحد، والأمن، والطمأنينة والفاعلية والإبداع.

إن الإنسان المسلم، وهو يعبد الله ويستحضر صفاته (ﷻ) لحظةً بلحظة ودقيقةً بدقيقة، إنما يمارس واحدةً من أشد صيغ التنامي في الشخصية قدرةً على الفعل.

وعلى خلاف التصورات الضالة للأديان المحرّفة للحقيقة الإلهية، فإن الألوهية في الإسلام تعكس صفاتها على الخلائق والعالم بأقصى درجات الوضوح، والتماسك، والموضوعية، والإقناع، والتأثير والتوافق مع المطالب الأساسية للشخصية البشرية.

إن وحدانية الله ﷻ، وتفرّده، وقدرته المطلقة، وحاكميته، وربوبيته، وجبروته، وهيمنته، وجلاله، وكبرياءه، وتعاليه، وعلمه، ورحمته، وعزته... الخ تمارس، بالنسبة المتاحة للتلقي من عباده الصالحين، دوراً مدهشاً في بناء الشخصية السليمة، وفق صيغة قد تشبه ـ إذا جاز ذلك ـ معادلة كيمياوية اختيرت عناصرها ونسبها بعناية فائقة... وأظن أن هذا يكفي...

**ـ الصبر؟**

= إنه بمعنى من المعاني: التماسك والثبات والقدرة على مجابهة التحديات، وعدم الاستسلام أو الجزع إزاءها، ذلك الذي يقوّد إلى الاستسلام ويفضي بالشخصية إلى التفكك والدمار.

**ـ الأمانة؟**

= القدرة على تحمل المسؤولية، وتجاوز إغراءات الذات، والالتزام الصارم بالحق، في معاييره الموضوعية، وبغضّ النظر عن مدى موافقته للأنا أو ارتطامه بها. وهي جميعاً قيم إيجابية

تعين على بناء الشخصية السليمة، وتحصّنها ضد المؤثرات النسبية التي قد تميل بها صوب الأنانية وتفقدها سلامة الاتجاه.

**ـ الإتقان في العمل؟**

= في الإسلام يصير الإنسان مشروعاً للعمل والإنجاز... ليس هذا فحسب، بل إنه يتلقى باستمرار تعاليم تفرض عليه إتقان عمله والإحسان في أدائه.

إننا قبالة هذين الشرطين سننتشل الشخصية البشرية من هوة الفراغ والتشتت واللاأبالية والإحساس بالتفاهة وبلا جدوى الحياة، وسنمحنها بالمقابل ما يملأ فراغها ويعطيها الأمل والإحساس العميق بالجدوى، وبأن الحياة فرصة مؤاتية للعطاء والإبداع... وهذا سينعكس بالتأكيد على تنامي الشخصية، ويزيد من فاعليتها، ويمنحها التوازن المطلوب.

**ـ الرضا؟**

= ليس معناه القبول بالهزيمة والإحساس بالدونية الذي قد ينحرف بالشخصية عن سويتها... انما هو قبول التحدّي والصبر عليه من جهة... والتسليم المطمئن بأقدار الله في العالم... هذا الذي يمسك الشخصية عن أن تصير ـ بقوة الحزن والندم وعنف الضغوط والهزائم والانكسارات ـ بدداً، وتفقد توحُّدها وقدرتها على استعادة المواجهة واستئناف الدور.

وثمّة حدّان يدمّران السوية النفسية للشخصية، ويمارسان دوراً سلبياً في صيرورتها: الندم على ما فات، والخوف الدائم مما

سيأتي... إنهما يضعان الشخصية في نقطة الشدّ القاسي بين الماضي والمستقبل، حيث يضيع الحاضر، ويفقد الإنسان قدرته على التكيّف مع الحياة بما أنها في جوهرها حضور راهن في قلب الزمن.

إن الآية القرآنية الكريمة تلخص هذا كله بكلمات قلائل: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]... إن الرضا هو بمعنى من المعاني تجاوز لنقطة الشدّ تلك وكل ما يتمخض عنها، مما يُلحق بالشخصية صنوفاً من الأذى والمعاناة قد تقودها إلى الدمار.

**ـ التسامح؟**

= إنه نقطة الارتكاز الأساسية في التعامل مع الأنا والآخر... مع الأشياء والخبرات والموجودات... وقد يتضح هذا من تذكُّر النقيض: الغلو والتعصّب اللذين يمارسان دوراً مدمِّراً للشخصية البشرية على كل المستويات.

من أجل ذلك سمِّي هذا الدين بالحنيفية السمحاء، ودعا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلى التعامل بيسر وسماحة مع الذات والآخر، وقبالة مفردات الحياة.

إن السماحة ـ إذا أردتَ الحق ـ هي الوجه الأصيل للأديان، وبدونها تتحول الحياة البشرية إلى غابة موحشة يسودها الصراع، وتحدّ فيها المخالب والأنياب.

إنني أتذكر ـ على المستوى الشخصي الصرف ـ نمطين من الخبرات في التعامل مع الآخر مارسهما كل واحد منا: التشدّد

والتعصّب وربما الكراهية التي تلحق بالشخصية أشد صنوف الأذى والتعاسة، رغم انتصارها الظاهري على الخصم، أو احتمائها المزيف بجدران الذات... والتسامح الذي ينزل برداً وسلاماً على طرفي العلاقة معاً ويمنحهما دفء التوحّد والمحبة والانسجام، وهي أمور تعود على الشخصية بالخير العميم.

**ـ الحرية؟**

= بدونها لن يكون بمقدور الشخصية أن تتحقق بنموّها المطلوب، لأن القسر والطغيان يمسخان المرتكزات الأساسية الفاعلة في كينونة الإنسان... ويشكّلان أدوات طيّعة غير قادرة على الاستقلالية، والاختيار، واتخاذ القرار.

وبدون ما قدرٍ مناسب من الحرية فلن تستطيع قوة في الأرض أن تعين الشخصية على تحقيق توازنها، وقدرتها على الفعل، وسلامتها في نهاية الأمر.

من أجل ذلك كانت الأديان دعوة مؤكدة لتحرير الإنسان، ومن أجل ذلك تُوِّجَتْ جهود الأنبياء (عليهم السلام) مع البشرية بالرسالة الخاتمة التي جاء رسولها ﷺ كما يقول القرآن الكريم لكي: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

إن شهادة (**لا إله إلا الله**)، والدعوة إلى عبادة الله وحده، **تقودان بالضرورة إلى إسقاط الصنميات والطاغوتيات بشتى أنماطها وأشكالها، وتحرير الإنسان من قبضتها... فإذا تذكّرنا**

حجم الاستلاب الذي مارسه الطاغوت على مدار التاريخ، أدركنا المنحة الكبرى التي جاء هذا الدين لكي يقدّمها للإنسان، والتي قد يلخصها شعار الفاتحين وهم ينطلقون لتغيير العالم وإعادة بناء الإنسان: «جئنا لكي نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده».

**ـ التفكير؟**

= بما أنه ضرورة نفسية واجتماعية... ذاتية وحضارية؛ فإن استجاشته ستعين على بناء الشخصية التي أريد لها منذ البدء، بقوة العقل وآليات الإدراك، أن تتفكر في خلق السماوات والأرض، وأن تكشف عن أسرارهما، وأن توظف كشوفهما تلك لبناء الإنسان والجماعة بناءً سليماً على عين الله ﷻ ومنهجه ورعايته.

والتفكير سلاح ذو حدَّين. فهو قد يقود إلى الضلال، وبالتالي تفكيك الشخصية البشرية، إن لم يسترشد ببرنامج عمل وبوصلات توجيه في الرحلة الطويلة والصعبة... وقد يؤول إلى الحق والاستقامة والإعانة على التوحّد والائتمان، من خلال استهدائه بالموجّه والدليل. ولن يكون ذلك إلّا بالوحي القادم من السماء... ببرنامج ديني يأخذ بيد العقل، ويعينه على الاكتشاف والاجتياز معاً... وصولاً إلى أقصى حالات الوفاق والتصالح بين الإنسان والكون والعالم.

ودائماً كان الدين الذي لم تعبث به أيدي المحرّفين في وفاق

مع العقل، وكان التفكير واحدة من أكثر الممارسات البشرية إلزاماً لتأكيد مطالب الدين وتنزيله على الواقع، والتحقّق بالمقاصد العليا للشريعة.

وهذا هو في المنظور الإسلامي من البداهات المعروفة، لكن نزوات الجاهلية المتعاقبة ونزعاتها، عتّمت عليه، وزيّفت العلاقة بين القطبين، بأن جعلتها علاقة سلب ونفي وخصام. وإذا كان هذا قد مُرّر إلى العقل النصراني لأسباب تاريخية، فإن العقل المسلم يرفضه أشد الرفض، وبهذا يمنح الشخصية البشرية فرصتها الكاملة للتحقق والتنامي على شتى المستويات.

**ـ الثقافة؟**

= تعكس الثقافة، كما هو معروف، الملامح الأساسية المتميزة للحضارات، وبدونها لن يكون بين حضارة وأخرى تغاير نوعي يذكر... فالذي يفرّق بينهما هو: كيف يعتقد الناس، وماذا يعتقدون؟ كيف ينظرون إلى الكون والحياة والإنسان؟ وكيف يتعاملون مع الوجود والمصير؟.. وكيف يصوغون خطابهم في هذه الساحة أو تلك من ساحات الفكر أو الفن أو الأدب؟

هذه الثقافات التي تعبّر عن هموم وأذواق ورؤى ومطامح أمة ما في اعتدالها وانحرافها على السواء... تمارس دورها الخطير الفاعل في صياغة أو إعادة صياغة مفردات الحياة والسلوك إيجاباً وسلباً.

ولنا أن نتصوّر ما الذي يمكن أن تفعله قصيدة أو نشيد أو

مسرحية أو فلم سينمائي تلفازي أو صحيفة أو كتاب في تكوين الشخصية السوية أو الجانحة... السليمة أو المَرَضية.

إننا مجرد أن نلقي نظرة سريعة على ما تقدّمه السينما والتلفزيون ـ مثلاً ـ من غذاء مضطرب لا ينطوي على أي قدر من التوجيه الهادف المرسوم، سنعرف ـ بالضرورة ـ كيف تمارس الثقافة دورها في تدمير الشخصية الإنسانية أو بنائها.

❁ ❁ ❁

**ـ كم ساعة تقرأ؟**

= ليس سواء... فحيناً لا تتجاوز قراءتي في اليوم الواحد الساعة الواحدة أو نصف الساعة... وحيناً آخر تستغرق مني الساعات الطوال... وقد يمضي اليوم واليومان دون أن أقرأ شيئاً... وبالمقابل أجدُني أحياناً أتعامل مع الكتاب بنهم عجيب فأقرأ صباحاً، وأعود مساءً لكي أواصل القراءة، ثم يجيء الليل لكي يمنحني فرصةً أكثر مواتاة لمواصلة القراءة.

في يوم ما كنت أنا الذي اختار زمن القراءة، ومداه... وبمرور الوقت وتزايد المطالب والهموم، أصبح هو الذي يختارني إذا صحّ التعبير... وفي الحالتين تظلّ القراءة أمراً مُلزماً وليست رغبة عابرة. تظلّ واجباً يومياً أجدُني أبذل قصارى جهدي لتلبية مطالبه... واليوم الذي لا أقرأ فيه يتملّكني إحساس بأنه غير محسوب من عمري... أكثر من هذا... شيء من التأثم في أنني قد فرطتُ في واجب ما...

ودائماً كانت القراءة، فضلاً عن إضافتها المعرفية، تمنحني المتعة والعذاب معاً... الانسجام أو التوافق مع الذات والأشياء والموجودات حيناً... والتنافر والثورة والإحساس بالمرارة حيناً آخر... ليس ـ فقط ـ لأنها توافق قناعاتي في الحالة الأولى، وترتطم بها في الحالة الثانية، وإنما لأنني ـ أحياناً ـ لا أفهم في الكتاب الذي أتعامل معه المعنى النهائي الذي يتوخاه المؤلف... أو القوة الفكرية التي تربط فقراته وفصوله وتجعلها تتسلسل بهذا الشكل أو ذاك... القصور قد يكون من جهتي، وأنا أعترف بهذا، ولكن في حالات كثيرة يجيء من المؤلف نفسه، الذي لا يعرف كيف يوظف اللغة لحمل الخطاب إلى الآخرين. ويزداد الأمر تعقيداً عندما يدخل المترجم غير المتمرس طرفاً في الموضوع... حينذاك تستحيل القراءة إلى جحيم لا يطاق...

ولما كانت طبيعتي قد فرضت علي منظومة من التقاليد القاسية في مجال القراءة: من مثل أن الكتاب الذي أبدأ قراءته لا بدّ أن أتمّه بأي ثمن... ومن مثل محاولة الفهم المتكامل لكل مفرداته دون أن أسمح لمفردة معرفية واحدة أن تندّ عني... ومن مثل الرغبة ـ إلى حدّ الوسواس التسلطي ـ في أن أُخضعه، في ترتيبه المنطقي، لهندسة معينة تجعله أكثر توافقاً مع منظوري العقلي وطريقتي في التعامل مع الأفكار... فلك أن تتصوّر كيف ستغدو القراءة عذاباً متواصلاً، قد أحمّل فيه نفسي ما تطيق وما لا تطيق...

ولكن... من جهة أخرى... قد يستغرقني كتاب ما عبر رحلة

توافق عجيب لا نشاز فيه أبداً... وحينذاك تصير القراءة متعةً يصعب وصفها... وأحسّ حتى أعمق نقطة في كياني أني دخلت دائرة الرضا والانسجام... وأظل سعيداً فرحاً عبر ساعات النهار لا يكدّرني شيء، ولكن... كم من الكتب التي قرأتها في حياتي منحتني هذه اللحظات؟

ثمّة ما يجب أن يقال أيضاً بالنسبة للكتّاب والمفكرين... إن الكتابة والتأليف تأخذ من وقتهم الكثير، وقد يكون هذا في معظم الأحيان على حساب القراءة... أليس كذلك؟ ومن هنا أجدني ممزقاً بين إغراء القراءة ومطالب الكتابة التي يبدو أنها لن تكفَّ حتى يغيَّب الإنسان في التراب... إنك إذا استجبتَ لنداء ما... مشروع تأليفي أو بحث أو مقال أو ـ حتى ـ خاطرة، وجدت نفسك مرغماً على الانسحاب من دائرة القراءة لكي تتمحض للكتابة... حتى إذا أتممتَ العمل وتنفستَ الصعداء، وقلتَ بينك وبين نفسك: ها قد آن الأوان لكي أتفرغ للقراءة التي طال إليها شوقي واشتد ظمئي... برز قبالتك مشروع عمل، وربما مشاريع أخرى، أشد إلحاحاً، وأرغمتك كرّةً أخرى على أن تقتطع من وقتك الساعات الطوال، وأن تدفن رغبة القراءة ونهمها الذي لا يكف في طبقة بعيدة من أعماقك قائلاً: سيجيء ذلك اليوم الذي تلبى فيه الأشواق... أتراه سيجيء فعلاً؟!

فإذا انتقلنا من الخاص إلى العام، فإننا سنجد أنفسنا قبالة شبكة من المتغيرات شهدتها العقود الأخيرة، ومارست دورها

المؤكد في ملاحقة زمن القراءة، وحصاره، وتضييق الخناق عليه. فإن المذياع والتلفاز ـ مثلاً ـ فضلاً عن ازدياد مطالب الحياة اليومية وهمومها، وتضاؤل القدرة على القراءة والصبر عليها بالإيغال في العمر... وغيرها... لمن الأمور التي لا أعتقد أن أحداً يناقش في دورها المضاد لعملية القراءة.

إنني أتذكر ـ على سبيل المثال ـ بحنين جارف، ما كان يحدث في الخمسينيات والستينيات... كان الكتاب هو خبز المثقف اليومي، وكانت المقاهي والحدائق والمكتبات والأماكن العامة ساحات لبلّ الشوق وإرواء الظمأ... وكان التقليد السائد يومها أن من يذهب إلى المقهى لا بدّ أن يحمل معه كتاباً... حتى ولو لم يقرأ فيه!

ما الذي تغيّر عبر العقود التالية؟! انظر إلى واقع الحياة في مدننا العربية والإسلامية، وحتى العالمية... فإنك ستجد الناس يركضون... تتوزعهم مئات المطالب والهموم... حتى إذا ما أتيحت لهم الفرصة، ووجدوا أنفسهم قبالة ساعة أو ساعتين من الزمن... سحبهم التلفاز أو الفيديو أو ـ في الأقل ـ الرغبة في الاسترخاء والكسل العقلي، تعويضاً عن ساعات الشد النفسي المشحونة عبر رحلة الليل والنهار. فعلام يقرؤون؟

نحن معشر الكتّاب نحاول ما وسعنا الجهد أن نقاوم هذه الظاهرة المخيفة، وأن ننفخ النار في الجذوة الخابية لكي تشتعل مرةً أخرى... وأن نمضي لكي نلتهم الكتب ونغري الآخرين

بالتهامها... وأن نرفع ـ دائماً شعار: القراءة هي ملح الحياة، وبدونها لن يكون لها طعم أو مذاق على الإطلاق...

إننا ـ إذا أردتَ الحق ـ قبالة معادلة صعبة، وعلينا أن نستجيب لتحدياتها، لأن أيَّ توقف، ولو لالتقاط الأنفاس ومراجعة الحساب، سيجعل القطار يفوتنا، وسيمنع عنا الزاد والوقود الذي يعيننا على مواصلة الطريق... ولن يكون بمقدورنا ـ يومها ـ أن نقدم شيئاً جديداً، أو شيئاً ذا قيمة، إذا أردنا أن نكون أكثر واقعية وصراحةً... ثم، ألّا ترى معي أننا في عصر الانفجار المعرفي والمتواليات الهندسية في دنيا النشر... وأن هذا يفرض علينا كفاحاً متواصلاً لمتابعة المتغيرات المعرفية ومحاولة إدراكها، وإلّا وجدنا أنفسنا يوماً خارج دائرة التاريخ!.

❁ ❁ ❁

**ـ وهل تقرأ بنظام ومنهجية؟**

= أحاول ما وسعني الجهد، فليس كهذين ما يعين المرء على السيطرة على نشاطه، ورفع وتائر إنجازه، والوصول إلى المحطات التالية.

القراءة ليست رغبة عابرة... ولا هي محاولة للاسترخاء أو تزجية الفراغ... القراءة جهد صعب، ورحلة مرسومة بعناية في ثنايا «كون» معرفي يضيع فيه من لا يملك خارطة أو بوصلة أو مجدافاً.

بين الحين والحين أقوم بجرد رفوف مكتبتي، محاولاً أن

أنتقي مجموعة متوازنة من الكتب وأضعها قبالتي قائلاً: إنها واجبي المفروض على مدى الأشهر الثلاثة أو الأربعة التالية... حتى إذا ما أتيتُ عليها، قمت بمحاولة أخرى للجرد والانتقاء.

وقد تخترق هذه المجموعات الدورية مؤلفات مغرية أجدها لدى هذا الصديق أو ذاك، وفي هذه المكتبة العامة أو تلك، وعبر العروض المتجددة في أسواق الكتب، أو خلال رحلاتي إلى البلدان المختلفة.

وفي كل الأحوال أسعى إلى تنفيذ التوازن الذي أشرت إليه قبل لحظات في اتجاهين أساسيين: أن تحقق هذه المختارات الفائدة والمتعة معاً... أن تضيف لديَّ جديداً... وأن تمنحني الرضا والارتياح في محاولة للتخفيف من هموم الكتابة ومطالب الحياة.

ويتمثل الاتجاه الآخر في ضرورة أن تنطوي هذه المختارات على قدر معقول من التنوع بين شتى صنوف الفكر والأدب لكي تمنحني الغذاء المطلوب، والزاد الذي يعينني على السباحة في أنهار المعرفة المتنوعة، ويمكّنني من الوصول إلى شطآنها بسلام... هذا إلى أن التنوع هو في حدّ ذاته ضرورة من ضرورات مجابهة الملل والتضحل العقلي والجمود... وأحياناً، النفور من القراءة نفسها كما حدث بالنسبة للكثيرين.

دعني أقول لك شيئاً آخر: إن هذا التنوع يمنح الكاتب لغةً أكثر قدرةً على الأداء الملائم في حقول المعرفة التي يمارس فيها

عمله... والذين يجمدون على نمط واحد من المعرفة، بحجة مطالب التخصص، وضغط الزمن، سرعان ما يجدون أنفسهم يسقطون في مستنقع اللغة العقيمة التي تعجز عن نقل الخطاب، فيفقدون قرّاءهم، وقبل ذلك يفقدون موقعهم المتميز على خارطة الكتّاب والمؤلفين... أن يكون لك أسلوب متميز يعني أنك قد أخذت موقعك على الخارطة، ولن يتأتى هذا إلّا بالقراءة المنهجية لأنواع المعارف الممكنة وفروعها المتشابكة.

❁ ❁ ❁

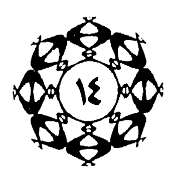
**ـ لنفترض أن الأقدار أعادتك إلى ما بعد الدراسة الثانوية، ووقفت بك على عتبة بوابة الجامعة... فأي كلية ستختار، وأي قسم؟**

= كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها... ذلك أن الحال عبر العقدين الأخيرين قد تغيّر كثيراً عما كان عليه في الستينيات، فإن التضحل والموات الذي كانت تعاني منه أقسام اللغة العربية وآدابها، ليس في العراق فحسب، بل ـ ربما ـ في معظم البلدان العربية، كان يضع ـ بشكل من الأشكال ـ حاجزاً بين الأديب وبين الانخراط في السياق الأكاديمي الذي لا يكاد يعينه أو يأخذ بيده أو يقدم له شيئاً ذا بال. فكان يميل إلى أن يشق طريقه بنفسه، خشية أن تدعوَه ردود الأفعال إلى الانسلاخ عن جلده كأديب.

هذا هو السبب الذي دفعني ـ من بين أسباب أخرى ـ إلى الهروب إلى قسم التاريخ.

اليوم يختلف الأمر، بعد إذ تلقت أقسام اللغة العربية وآدابها دفقة من الحيوية والخصب، سواء في مفرداتها المنهجية أو أساتذتها ومدرّسيها، وأصبح النقد، وتاريخه، ومناهج الدراسة الأدبية، والمذاهب الأدبية، بل حتى تاريخ الأدب، تقدَّم بطرائق أكثر غنى وأبعد عن التقليد الجامد... هذا إلى أن اللسانيات والدراسات الدلالية قد فتحت أبواباً أخرى أمام الدارسين، ومنحتهم فرصاً فريدة للاكتشاف والتذوّق والاستقصاء العلمي الأكثر انضباطاً عبر التجوال في نسيج النصوص الإبداعية... وكان أجدادنا قد وضعوا ـ بقدرتهم على الإبداع والتجديد ـ تأسيساتها الأولى... وجاء الغربيون فمضوا خطوات أخرى أكثر اتساعاً... وعلينا نحن أن نواصل المسير وإلّا وقفنا في أماكننا.





**أجرى الحوار في الموصل الأخ الشاعر حكمت صالح (آب ١٩٩٦م) مندوباً عن جريدة (الدفاع الثقافي) المغربية حيث نشر هناك.**

**ـ اختصاصكم التاريخ الإسلامي، ولكم مؤلفاتكم العديدة في هذا الحقل. متى وكيف كان توجُّهكم نحو الأدب الإسلامي لاسيما المعاصر منه؟**

= منذ تفتح الوعي على الحياة والرغبة المتأججة في التعرف على الأشياء واكتشاف سرّها... كنت أقرأ قصص الأطفال بشغف عميق، تلك التي كان يكتبها كامل الكيلاني (رحمه الله) وغيره... كنت أرتشفها ارتشافاً. وإنني لأتذكر جيداً ليالي الشتاء العميق والبرد والمطر... بيوتنا العتيقة الضيقة والأحياء القديمة والجمر المشتعل الممتزج بالدخان، وساعات القراءة الجذلى في القصص وكتب المطالعة المدرسية والمجلات... ولم أكن أطالع السطور، ولكني كنت أخترقها بتوق عارم لكي أعيش الحدث من الداخل... أصير شخصاً من شخوصه... وحينذاك كنت أضحك معهم وأبكي معهم... أهتز وأنبض وأرتجف كما يهتزون وينبضون ويرتجفون.

بعدها، ومع ازدياد قدرة العقل على المداخلة والإمساك بتلابيب الخبرات والأشياء... صار الأدب يقدّم لي أطباقاً من حلوى الفكر... بعيداً عن مماحكات التجريد والجدل الذهني الخالص، إنما من خلال الوقائع والشخوص والمرئيات وهي تكتسي لحماً ودماً فتغدو أكثر دهشةً وأشدّ تأثيراً...

أذكر أيضاً شيئاً ما... لا بدّ أن تتذكره أنت كشاعر من خلال خبرتك الذاتية... يتذكره كل الشعراء والأدباء والفنانين الذين يجيئون إلى الحياة بحساسية مفرطة تجاه العالم والوجود... قبالة الكلمة وهي تئن وتتوجع... إزاء الأشياء والخبرات التي تنث روعةً وجمالاً... حساسية تكاد تصل بهم حافات السقم والمرض، لأن فاصل الألم بينهم وبين العالم يكاد يغيب... يتلاشى... وتصبح جملتهم العصبية، وجدانهم، أجهزة استقبالهم الحسّي، روحهم المتحفزة... مكشوفة تماماً... مكشوفة حتى لرفّة عصفور... أو صوت خفي لا يكاد يُسمع... ولكنه يصلهم... يخفق في ضلوعهم ويقول لهم شيئاً كثيراً.

**في حالة كهذه تصير الكلمة... التعبير... المعالجة الجمالية... المنفذ الوحيد للتخفيف من العذاب، أو ما يسميه أحمد شوقي (الألم العبقري)، وهو يعني ما يقول... نوعاً من التطهر (الكاثرسيس) إذا استخدمنا عبارة أرسطو وهو يتعامل مع التراجيديات اليونانية.**

أن تصير أديباً ليس خيارك... ولكنه... قدرك... مرغم أنت على أن تكون أديباً، وإلّا أكلك الهمّ وغدوت حطاماً...

بالكلمة يقوم أولئك الذين منحهم الله (وصفة) خاصة لا أستطيع التعبير عنها... مزيجاً من الدهشة والحزن والفرح والعشق والبهجة والتوق لاكتشاف المجاهيل... والرغبة القاهرة في تحويل هذا كله... إخراج هذا كله من تحت الضلوع وتشكيل لوحة أو نشيد أو قصيدة أو سيال من النثر مترع بالعفوية والنداوة والصدق.

تلك هي البدايات الأولى التي ينبني عليها المصير... إن شبكة معقدة من التأثيرات... منظومة من العناصر الفاعلة ترغم الإنسان على أن يكون أديباً... فلا تسل أحداً مرة أخرى كيف كان هذا الذي كان... فهي المملكة التي لا يُسأل الداخلون إليها لماذا دخلوا؟!.

قد تدهش إذا قلتُ لك أن تخصصي في التاريخ كان رغبةً مني في ألّا أمسَّ بالأذى مملكتي هذه... وأن أكون حرّاً في اجتياز دروبها وتناول ثمارها المدلاة... يومها ـ في أواخر الخمسينيات وبدء الستينيات ـ كانت أقسام اللغة العربية في معظم جامعاتنا تعاني من بوار محزن يقتل الإبداع، ويتعامل بكسل وتثاؤب مع الكلمة والجمال وحيثيات التناسب في معمار الأشياء... مع كل ما يسمونه إبداعاً... ويرغم الطالب الجامعي على أن ينسلخ عن جلده لكي يصير شيئاً عادياً... خريجاً يحمل درجة (البكالوريوس:

الليسانس) في علوم اللغة العربية وآدابها... لافتةً كبيرة لكن ما وراءها لا شيء...

أرجو ألّا أكون مبالغاً... اليوم يختلف الأمر، وتعود هذه الأقسام كما كانت زمن تألقنا الحضاري لكي تشكّل نويات طموحة في اللغة والأدب والبلاغة والنقد والدلاليات.

يومها لم يكن الأمر كذلك... لعل هذا ما يفسر جانباً من خياري... من توجُّهي في اللحظة الأخيرة إلى قسم التاريخ...

قد تسألني: ومؤلفاتك في التاريخ نفسه؟ فأجيبك: تلك مسألة أخرى، ولها هي الأخرى قصة تنطوي على الكثير من التفاصيل، وليس هذا أوان الحديث عنها.

❁ ❁ ❁

**ـ نحن في عصر الاختصاص الدقيق والتراكم المعرفي... كيف توفقون بين هذا الاتجاه والاتجاه الموسوعي في حقول المعرفة الإنسانية؟ وإلى أي الاتجاهين أنتم تميلون؟ وهل ترون أن التعدد مفيد للكاتب أم أن التخصص أفضل؟**

**= لقد فتح أبناء جيلي عيونهم على عصر لم يكن المفكر فيه قد اعتقل نفسه في زنزانة التخصص... ولقد تعلّمنا كثيراً ـ بغضّ النظر عن اختلاف القناعات ـ من العقاد وسيد قطب وطه حسين والرافعي والحكيم وبنت الشاطئ والغزالي والسباعي والطنطاوي والندوي وغيرهم... كانوا يكتبون في الفكر والأدب**

والتاريخ... كانوا ينظرون وينقدون ويبدعون... بل إن معظمهم قال شعراً...

ثمّة مسألة أخرى... إن الساحة الإسلامية بالذات قد تغري بنوع من الملاحقة... قد تجعل الكتابة في أكثر من ميدان نوعاً من «فرض العين» على كل قادر... وتبقى مسألة الأولويات هي التي تحدّد ما الذي ينصبّ عليه الاهتمام في هذه اللحظة الزمنية أو تلك.

على أية حال، ومن أجل تجاوز أيٍّ نوع من سوء الفهم؛ فإن تشعُّب الاهتمام لا يعني بالضرورة انتقاصاً لمطالب التخصص أو المنهج، ولا خرقاً لضرورات الأكاديمية... إن ما كتبته في حقل التاريخ ـ ولله الحمد والمنة ـ يتحقق بهذه الضوابط والضرورات، وإلّا لما حصلت أساساً على الماجستير والدكتوراه، ولما رُقيت إلى مرتبة (الأستاذية) في التاريخ الإسلامي.

إن منطق العجز وحده هو الذي يدين الآخرين وهم يغادرون بين الحين والحين مواقع تخصصهم، لكي يكتبوا في مجالات أخرى بعيداً عن الزنزانات، التي تحاول أن تقيم أسلاكاً شائكة بين حقول المعرفة الإنسانية.

دعني أقول لك شيئاً... إن آخر تقاليد البحث في العلوم الصرفة نفسها تدعو إلى مشاركة الإنسان في الظاهرة العلمية... نوع من اندماج الذات في الموضوع... اقرأ ما يقوله فتكنشتاين وسوليفان وكاريل بهذا الخصوص... معنى هذا أن اتساع الفضاء

المعرفي للعالم، وكسر حاجز التخصص الدقيق، عاد لكي يفرض نفسه، ليس فقط في الإنسانيات، وإنما في العلوم المحضة كذلك.

❁ ❁ ❁

**ـ خلال أكثر من ربع قرن وأنتم تواكبون الإبداع في إطار الأدب الإسلامي، هل تجدون في هذا الشوط تحقيقاً لهويته المعاصرة؟ وأين يمكن أن نضع هذا الأدب على خارطة الأدبين العربي والعالمي؟**

= إلى حدّ ما... كي لا يكون المرء متفائلاً بأكثر مما يجب... لكن رحلة الألف ميل قد بدأت... وقطعت خطوات طيبة ـ بفضل الله ﷻ ـ ولن يوقفها شيء...

قبل أكثر من نصف القرن لم يكن هناك أدب إسلامي بالمعنى الذي يصطلح عليه أدباء الإسلامية اليوم (مع التأكيد على وجود مساحات بالغة الأهمية في موروثنا الأدبي)... وهي مسألة متفق عليها، رغم الجدل الكثير الذي أثير حولها، بخبث أو سوء فهم...

تجتاز المكتبات كلَّها، وأسواق الكتب، فلا تكاد تعثر على ديوان أو قصة أو رواية، أو مسرحية، تحمل هموم الإسلاميين في العالم المعاصر، أو تبشر بكلمة (الله) في دنيا مكتظة حتى النخاع بالتحلل والفساد وغياب الرؤية الصائبة لموقع الإنسان في العالم ودوره في الوجود... كانت هناك محاولات مبعثرة لم يكن بمقدورها أن تشكّل تياراً... واليوم يتدفق التيار تغذيه من هنا وهناك حشود من الأعمال الشعرية والمسرحية والقصصية

والروائية والتنظيرية والدراسية والنقدية... الخ... يكفي أن تلقي نظرة على «دليل مكتبة الأدب الإسلامي» الذي أصدره منذ سنوات الأخ الدكتور عبد الباسط بدر، لكي يتأكد لك ذلك من خلال مئات الأعمال الإبداعية والنقدية والتنظيرية... وربما ألوفها...

إن هذا لا يؤكد الظاهرة الأدبية الإسلامية فحسب، ولكنه يعد بشيء وهو يمنح المصداقية لما يعد به يوماً بعد يوم... ليس فقط بصيغة مقالات وبحوث وإبداعات تنشر وكتب تؤلف... وإنما أيضاً من خلال دوريات ومجلات تصدر هنا وهناك... ومن خلال مؤسسات تسهر على الدعم والترشيد والإغناء... وكذلك من خلال القدرة على اختراق جدران الأكاديمية وإقناع حرّاسها القدامى والجدد بضرورة أن ينصتوا للصوت الجديد... الصوت الذي يقدّم شيئاً مغايراً لمألوفاتهم ومرئياتهم... شيئاً يحمل الأصالة والاستقلالية، ويحمل معهما خلفيات تصورية، تملك إذا أُحسن التعامل معها أن تعين على تشكيل معمار أدبي إسلامي، وليس مجرد أدب إسلامي، معمار يعلو أدواره الخمسة أو الستة بعضها بعضاً، لكي تقف بجدارة قبالة آداب الشعوب والأمم الأخرى: الإبداع، النقد، المنهج، المذهب، الدراسة والتنظير الذي يلمّ هذا كله ويؤسّس له...

إن عشرات، بل مئات من رسائل الدراسات العليا وبحوث التخرّج أنجزت ولا تزال في الدوائر الجامعية عن هذا الأدب، الذي لا يزال البعض يشكّك بجدواه بل بوجوده ابتداء... والأسباب

كثيرة، وجلّها معروف... ولكن، مرةً أخرى، كانت رحلة الألف ميل منذ أكثر من ثلاثين عاماً أو يزيد قد بدأت... ولن يوقفها شيء. وبالتالي فإن موقع هذا الأدب على خارطة الأدبي العربي والعالمي، سيتأكد يوماً بعد يوم، وستزداد مساحته، وسيصير حضوره أمراً مشهوداً... فقط إذا عرف أدباء الإسلامية كيف يشمّرون عن ساعد الجد ويتركون جانباً من ميلهم المبالغ فيه صوب المضمونية والمباشرة والطرق المكشوفة في التعبير، ويمنحون شيئاً من اهتمامهم للتقنيات الفنية التي بها يصير الأدب أدباً ويكسب التقدير والاعتراف، وإلّا فهي المعاني المطروحة على قارعة الطريق كما يقول الجاحظ...

والأدب الإسلامي هو بمعنى من المعاني أدب عربي، ليس لكونه يكتب بالعربية، فإن هنالك حلقات خصبة من هذا الأدب كتبت وتكتب بالأردية والتركية والفارسية والكردية... إلى آخره من لغات شعوب الأمة الإسلامية، ولكن لكونه يحمل الهموم نفسها ويتشبث بالمصير الذي ضيعته رياح التشريق والتغريب... ودعك من كون مساحات واسعة من الأدب العربي اختارت أن تصير مرآة لأدب «الآخر»... مسخاً لا يملك شخصيته المستقلة وحضوره المتميز، وهذا ما يلقي على عاتق الأدب الإسلامي مهمة أخرى لا تقل أهمية، هي أن يرجع بالأدب العربي المعاصر إلى أصالته، وأن يمنحه نسغاً يجعله ينبض بهموم العربي والمسلم، وليس بالترف الفكري أو الإبداعي للإنكليزي والروسي والفرنسي والأمريكي.

عالمياً؟! لن يكون لأدب أية أمة في الأرض ثقل أو وجود على الخارطة ما لم ينطلق من خصائص هذه الأمة ورؤيتها وصيغ تعاملها مع الكون والحياة والإنسان.

والعالم لا يحترم من يعيد إليه بضاعته المعروفة مزجاة... لمن يردّها إليه ولا جديد فيها أو إضافة عليها... إنما هو يمدّ يده ويفسح المجال أمام أولئك الذين يعدون بشيء جديد... هذه مسألة معروفة في التقاليد الثقافية وسنن التاريخ والحضارات، ولكن يبدو أنها غابت على الكثيرين في ديارنا بسبب الكمّ الهائل من المعطى الأدبي في ديار العروبة والإسلام، والذي لا يعدو في معظمه أن يكون استمراراً للأداء الغربي.

إن الأخذ عن الآخر ممكن، بل هو ضروري، ولكن شرط ألّا يكون على حساب الثوابت والتأسيسات.

❁ ❁ ❁

**ـ أين تجدون إبداعكم الروائي... القصصي... المسرحي... الشعري... في ساحة الأدب الإسلامي المعاصر؟**

= لست أنا من يجيب على سؤال كهذا، ولكنهم النقاد والدارسون... والحمد لله ـ أولاً وآخراً ـ فلقد تلقت أعمالي منهم الكثير مما تستحق...

أريد أن أقول لك شيئاً... لعلك تتذكر عبارات الأصفهاني التي يشكو فيها من أنه كلما أعاد قراءة أحد مصنفاته تمنى لو يغير فيه هنا ويضيف إليه هناك وينقص منه في مكان ثالث... وهو ـ

إذا أردت الحق ـ مسلسل لا ينتهي... وبدلاً من التغيير والتحوير داخل النص المكتوب، يمكن للأديب أن يواصل تحسين أدواته بكتابة نصوص جديدة أكثر إتقاناً...

لقد هممتُ أكثر من مرة بإعادة كتابة مسرحيتي الأولى «المأسورون»، لأنني لم أكن مقتنعاً بها تماماً، وكذلك الحال مع ديواني «جداول الحب واليقين»، وكان يمكن لمداخلة كهذه أن تغيّر بنيتهما من الأساس، وهي مسألة محرجة.

بدلاً من ذلك، قلت في نفسي، لأحاول أن أكتب أعمالاً جديدة أتجاوز فيها حلقات الضعف في الأعمال السابقة. وهكذا أنجزت مسرحية «المغول» واقتنعت بها بفضل الله ﷻ، لأنني أفدت من عثراتي في تجربتي المبكرة مع «المأسورون»، وهكذا أيضاً جاءت مجموعة «العبور» ذات الفصل الواحد، أكثر إتقاناً من «معجزة في الضفة الغربية» و«خمس مسرحيات إسلامية».

وذلك هو الأمر الطبيعي، أن تكون أعمالنا التالية أكثر نضجاً واكتمالاً من الأعمال الأولى، وإلّا وقفنا في أماكننا وخسرنا القراء!

والآن اسمح لي أن أحدّثك عن محاولتي الجديدة في ميدان العمل الروائي «السيف والكلمة»، والتي عملت فيها ولا أزال على مدى ست سنوات أو سبع.

لقد كانت «الإعصار والمئذنة» خطوة على الطريق... أما هذه، فإنني حاولت فيها، ما وسعني الجهد، أن أنجز عملاً يضيف قيماً فنية جديدة... وأركز على العبارة الأخيرة، لأن أدباء الإسلامية

بحاجة إلى هذه... إلى الإضافة الفنية التي لا يولونها ـ للأسف ـ الاهتمام الكافي.

تحاول الرواية توظيف الغزو المغولي لبغداد من خلال تنامي الحدث عبر أربعة أصوات، وبضمائر متغايرة، يغيب فيها الراوي تماماً (والذي تختبئ خلفه في معظم الأحيان اقتحامات فجة للروائي نفسه)، وذلك في محاولة لتنفيذ معمار أكثر حداثةً في العمل الروائي.

لقد تم كسر حاجز الزمن وتسلسله الرتيب، ولكنه لم يغيّب، كما يحدث في بعض الأعمال الروائية في الغرب... انه حاضر في نسيج الحبكة، وليس من الضروري أن يكون هذا الحضور كعقرب الساعة الذي يدور على نفسه ويظل يدور...

الرمز... وُظِّف هو الآخر في «السيف والكلمة»... ليسِ رمزاً تجريدياً على أية حال، ولكنه مكسوٌّ لحماً ودماً... إن الأبطال المحوريين الأربعة في الرواية، هم في حقيقتهم رموز مجسدة لقوى الإنسان في مجابهة المصير... شخوص تعيش الحياة، وتنبض بالهم والوجع، وتأكل وتتنفس وتصارع وتحلم وتتعثّر وتقوم: العقل والروح والوجدان... كلهم يؤول إلى الضياع في نهاية الأمر، لأن الموقف الأحادي قبالة المصير محكوم عليه بالهزيمة... ليس بصيغة مجابهة يتحكم فيها القدر بخناق الإنسان ويسحقه، كما هو الحال في التراجيديا اليونانية (الكلاسيكية) لكن بصيغة اختيار قد يكون خاطئاً، وعلى صاحبه ـ من ثم ـ أن يتحمل نتائج عمله.

هذا المنظور الفني الصرف يعكس معادلاً موضوعياً إسلامياً: حرية الإنسان، والعدل الإلهي المطلق الذي يرتب الأسباب على المسببات.

إننا بأمسّ الحاجة إلى قيم فنية تعكس حالتنا الإسلامية بكل مفرداتها وحلقاتها... تعكسها جمالياً، وليس عبر مقولات العقل الخالص، وهذه هي مهمة الأدب... ومن هنا يمكن للمرء أن يدين العديد من أدباء الإسلامية الذين لا يولون اهتمامهم للجانب الفني ويرمون بثقلهم صوب المضمون... إنهم في هذه الحالة لا يكادون يفعلون شيئاً إذا أردنا أن نحاكمهم إلى مطالب النوع الأدبي، وليس إلى الخطابة أو التاريخ أو الإعلام...

مهما يكن من أمر، فإن الذي ينتصر في «السيف والكلمة» هو واحد فقط من بين أربعة شخوص طوتهم المجابهة الصعبة... لماذا؟ لأنه استطاع أن يتجاوز أسر الأحادية، وأن يتحقق إنسانياً وفق مطالب الشخصانية الإسلامية التي نادى بها هذا الدين.

مرةً أخرى ـ يحدث هذا من خلال نبض البطل ومعاناته وتعامله مع الموجودات والخبرات والأشياء والمرئيات، وليس من خلال تجريد ذهني صرف ـ حاولتُ أيضاً أن أوظف الجغرافيا والتاريخ قدر ما أطيق... لقد درست بإمعان جغرافية بغداد بأحيائها ودروبها وجسورها وأسواقها ومدارسها وملاعبها وحوانيتها... الخ... درست أيضاً تاريخ بغداد لحظة الغزو المغولي... عادات الناس وتقاليدهم وطبائعهم وأزياءهم وطعامهم وشرابهم... جدّهم وهزلهم... خفقانهم الاجتماعي هنا وهناك...

لم أُرد طبعاً أن أكتب عن تاريخ بغداد وجغرافيتها، ولكن جعل الفضاء الروائي أكثر صدقاً فنياً...

وكان عليَّ أن أعرف حتى مقالات المتصوفة، يومها، وتقاليد العلماء والطلبة والدارسين...

استعرت من «الآخر» بعض الخبرات الفنية... ولم لا؟ ما دام الهدف هو توظيف التقنيات لإنضاج عمل فني يطمح أن يكون إسلامياً، ويمكن أن أشير هنا إلى واحدة من تلك الخبرات:

ضمير الشخص الثاني الذي اعتمده الأديب الفرنسي المعاصر ميشيل بوتر، والذي يقول عنه إنه يؤدي دوراً سحرياً، وأنه يدعو القارئ إلى المشاركة بنشاط في حركة القصة...

الحق أنني وجدت في هذا الضمير ليس تنويعاً فحسب لضمائر الشخوص في (السيف والكلمة)، ولكنه ـ فضلاً عن ذلك ـ فرصة مناسبة تماماً للمناخ الدرامي، المتوتر، والسريع الذي كانت الشخصيات الأساسية تعيشه.

سأضرب لك مثلاً واحداً فحسب: منولوج يديره الأب بصيغة الضمير الثاني:

**«ذهبتَ إلى الكيلاني على استحياء والشوق يدفعك... أشياء كثيرة أردتَ أن تفضي بها إليه... قلبك الذي وسع بغداد كلها ينوء اليوم بهموم بغداد... ليس هيناً أن ترى أصدقاءك وإخوانك يُقتلون أو يرحلون... ليس هيناً أن تجتاز سوق الكتب فلا تجد فيه شيئاً... لا أحداً ولا حانوتاً مفتوحاً ولا كتاباً... ليس هيناً أن ترى كل شيء**

جميل يحترق، وكل عزيز عليك يمضغ عذابه بصمت... لم يكن هيناً أيضاً أن ترى ابنك يغيب في الدروب فلا تكاد تلتقيه أو تعثر عليه... ولا أن تعطي ابنتك السكين وتقول لها: اقطعي الحبل الذي يشدّك إلى المحبوب... الزمن المغولي يضرسك وجناحك يهيض فيتطاير منه الريش... طال يوم الخلاص يا عبد القادر فكيف السبيل؟»

«ذهبت على عجل، مجتازاً أحياء البدرية والجعفرية الأقل زحمة فقالوا لك: خير لك أن ترجع... تساءلت ووجع القلب يشدد عليك الخناق: لماذا؟ قالوا: انهم يسدّون إليه الطرق... صرخت: لماذا؟ قالوا: لن يسمحوا لأحد أن يزوره أو يلتقي به بعد اليوم... صرختَ كرّةً أخرى: لماذا؟ لم يجبك أحد، وكان عليك أن تسترجع الصرخة المدوية في الفضاء الذي لا شيء فيه... أن تعتقلها في روحك الموجعة، فها هو ذا الفضاء الوحيد المتبقي الذي لن يخترقه المغول!».

❁ ❁ ❁

**ـ هل تجدون في اختلاف منطلقات المبدعين والنقاد في إطار الأدب الإسلامي ظاهرة صحية طموحة، أو أنها مؤشر على مرحلتيه، وعدم استكمال هويته المعاصرة؟**

**= لا أعتقد أن هناك أي اختلاف في المنطلقات وإلّا ما انضووا تحت اللواء الواحد. ولكن الخلاف «المشروع» قد يكون في تباين زاوية الرؤية وطبيعة الخبرة الجمالية وأساليب التعامل**

مع الموضوع، وهي ظاهرة صحية تماماً اجتازتها آداب الأمم والشعوب كلها، وهي تشكّل وتبني جهدها الإبداعي المتميز.

والأدب الإسلامي المعاصر يفصح عن هويته منذ اللحظات الأولى، وينطوي على مذهبيته المتميزة، تماماً كما يفصح الأدب الاشتراكي أو الوجودي أو السريالي أو الرمزي أو الحداثي عن هويته منذ البداية.

ليست هذه المشكلة، انما المشكلة هي جعل الآخر يقتنع بهويتك، بل جعل أولئك الذين يعيشون بين ظهرانينا، وقد يصلّون ويصومون معنا، يعترفون بها. وهذه هي مسؤولية أدباء الإسلامية مبدعين ومنظّرين ونقاداً ودارسين... إنه التحدي الذي يقتضي استجابة ما... وأعتقد أن هذه الاستجابة تتشكل عبر اللحظات الراهنة أكثر فأكثر... فقط شرط أن يعنى هؤلاء الأدباء بالجانب الأسلوبي، ويحققوا في الوقت نفسه التوازنات الضرورية في مساحات الجهد الأدبي ما بين إبداع ونقد ودراسة ومنهج وتنظير... بل أن يحققوا التوازنات الضرورية في مجالات الأنواع الأدبية فلا يطغى نوع على آخر كالذي يحدث الآن... فهنالك كم كبير في المقال والشعر (بغضّ النظر عن قيمته الفنية)، وأيضاً في القصة القصيرة إلى حدّ ما، يقابل ذلك فراغ محزن في الرواية والمسرحية والسيرة الذاتية.

وعلى المستوى الأول يجد المرء نفسه قبالة دراسات أدبية خصبة وبعض الأعمال التنظيرية والنقدية... لكن المنهج لم يتبلور

لحد الآن ولم يكد يكتب فيه أحد، بل إن النقد التطبيقي لا يزال يعوزنا إلى حد كبير، فمن بين كل عشرة أعمال إبداعية تصدر عن أدباء الإسلامية، لا يكاد النقد يغطي سوى واحدة منها، ولعل هذا الرقم ينطوي على قدر كبير من التفاؤل.

إن المبدع، إذا لم يتلقَّ صوت الناقد انحرف عن الطريق، ربما، ولعله وسط حصار الصمت والنسيان، يكفّ عن العطاء، وفي هذا خسارة كبيرة.

❁ ❁ ❁

**ـ يدّعي بعض المراقبين والمتتبعين للأدب الإسلامي أنه أدب مضموني وأنه لا يتطلع إلى جماليات الشكل وفنية الأداء...**

= هذا صحيح إلى حدّ ما، فمعظم أدباء الإسلامية يرمون بثقلهم صوب المضمون ولا يولون الاهتمام الكافي «للشكلانية» و«الأسلوب» و«التقنيات الفنية». ولكن ألا ترى معي في أن التعميم هو خطأ علمي، وأن هناك في ساحات هذا الأدب الكثير من المبدعين الذين منحوا هذه الجوانب اهتمامهم وأغنَوْها بعطائهم الخصب؟

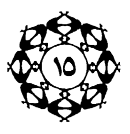
❁ ❁ ❁

**ـ هل ترون في الأدب الإسلامي المعاصر واجهة للصحوة الإسلامية؟ ما مدى فاعلية ذلك؟**

= بكل تأكيد... فهي قد تزامنت معها وتحدثت عن معاناتها وهمومها وبشّرت بالعديد من حلقاتها، فارتبطت بها ارتباطاً صميماً... لقد أصبح الخطاب الأدبي الإسلامي أحد عوامل

التحفيز، والكشف، والترشيد، للصحوة الإسلامية، وفاعلية هذا الخطاب ستزداد قدرة على التأثير والبناء، في حالة توظيف التقنيات الإعلامية لهذا الخطاب وتحقيق التحام أكثر بين الطرفين. فإذا استطاع النص الإبداعي أن يتحول إلى عمل تلفازي أو إذاعي أو سينمائي أو فديوي... إذا أُحسن توظيف الصحيفة والمجلة وخشبة المسرح؛ فإنه سيحقق نتائج طيبة ولا ريب. ولنتذكر فقط ما فعله فيلم (الرسالة) أو (عمر المختار)، اللذين أخرجهما مصطفى العقاد، وما فعلته العروض المسرحية الإسلامية التي شهدتها مسارح عمان، وما تفعله الأناشيد الإيمانية المسجلة على أشرطة الكاسيت. والطريق لا يزال مفتوحاً يتطلب المزيد. وعلى أدباء الإسلامية وإعلامها التحقق بتنسيق أكثر لإنجاز المطلوب.





**أجرى الحوار في كوالا لامبور بماليزيا في خريف عام (١٩٩٧م) الأديبان البنغاليان محمد عبد السلام آزادي ومحمد أبو الكلام آزاد، ونشر في مجلة (القلم) البنغالية في دكا عام (١٩٩٨م).**

**ـ سعادة الدكتور، لو تكرمتم بإفادة القرّاء الكرام بتعريف موجز عن حياتكم الشخصية؟**

= ولدتُ في مدينة الموصل في العراق عام (١٩٤١م)... تلقيت تعليمي الأولي في مدارسها، حتى إذا بلغت المرحلة الجامعية توجّهت صوب بغداد للحصول على البكالوريوس في التاريخ من جامعتها عام (١٩٦٢م)، ثم واصلت دراستي للماجستير، حيث تقدمت برسالاتي عن (عماد الدين زنكي: ٥٢١ ـ ٥٤١هـ) ونلت بها الدرجة عام (١٩٦٥م)، ثم تحولت إلى جامعة عين شمس في القاهرة للحصول على الدكتوراه بعد ذلك بثلاث سنوات.

عملت مدّرساً فأستاذاً مساعداً فأستاذاً في الفترة منذ عام (١٩٦٧م) ولا أزال.. وعبر هذا المدى الزمني توليت ـ فضلاً عن

التدريس ـ بعض المهمات الإدارية في المكتبات والآثار والتراث، ثم آثرت أن أتفرغ لطلبتي في الدراسات العليا، فضلاً عن دراساتي وبحوثي.

متزوج منذ عام (١٩٧٢م) ولي ولد وابنتان... أما هواياتي التي أمارسها إلى درجة العشق فهي المطالعة، ومتابعة الأنشطة الرياضية وبخاصة كرة القدم وألعاب الساحة والميدان.

❁ ❁ ❁

**ـ أنتم من رواد الأدب الإسلامي تنظيراً وتطبيقاً، فماذا تعنون بمصطلح الأدب الإسلامي؟**

= الأدب الإسلامي ـ بإيجاز شديد ـ هو تعبير جمالي مؤثر بالكلمة عن التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان والوجود والمصير... وهذه الأقطاب تشكل أكثر الفضاءات اتساعاً في مجال التعبير، ولذا فإنه ثمّة الكثير مما يُنتظر من هذا الأدب تنظيراً ونقداً وإبداعاً. وهذا يحتاج بطبيعة الحال إلى حشود الدارسين والنقاد والمنظرين والمبدعين الإسلاميين، الذين يتحتم أن يكونوا بمستوى مسؤوليتهم الكبيرة هذه، وإلّا ما استطاعوا أن يحققوا الحضور المأمول لهذا الأدب المتميز.

❁ ❁ ❁

**ـ يتهم بعض النقاد في العالم العربي والإسلامي الدعوة إلى الأدب الإسلامي بأنها دعوة عصبية دينية تتسم بنوع من الحزبية والضيق، فما تعليقكم على هذا؟**

= أبداً... فالالتزام في الأدب الإسلامي ينبثق بصدق وعفوية عن إيمان عميق بأحقّية هذا الدين في إعادة تشكيل الحياة بما يجعلها أكثر ارتفاعاً، وأوسع فضاءاً، وأعمق إحساساً، من كل المحاولات الوضعية أو الدينية المحرفة.

وهذه القناعة المتسربة في شرايين الأديب المسلم وعقله ووجدانه، تتفجر إبداعاً، وفق هذا النوع الأدبي أو ذاك، لكي تعبّر ـ دون أي تقحّم أو قسر أو افتعال ـ عن رؤية المسلم للكون والحياة والإنسان، وخبرته العقلية والروحية والحسية، وتوقه لأن تصير الحياة الدنيا انعكاساً لمنهج الله جلَّ في علاه وكلمته!

فهي من ثم لا تنطوي على أي قدر من الضيق أو التحزب، بل على العكس إنها تنفتح حتى إنها لتتقبل إبداعات الأدباء في العالم كله، خارج الدائرة الإسلامية، إذا كانت أعمالهم تنبض بتوحيد الله، وعشق الحق والخير والجمال... وتتمحض للإيمان في صراعه الأبدي ضد الكفر والصنمية والطاغوتية والضلال.



**ـ هل أن الخطاب الأدبي الإسلامي خطاب ديني موجّه إلى المسلمين فحسب، أم إنساني يشمل جميع البشر؟**

= إنه خطاب عقدي وإنساني في الوقت نفسه... ففي دائرة الإسلام ليس ثمّة انفصام بأي شكل من الأشكال بين الإنسان والعقيدة، خاصةً إذا تذكرنا أنها ليست كالعقائد الأخرى، وأنها

مهندسة من لدن حكيم خبير على حجم الإنسان ومطامحه ومهماته الكبرى في هذا العالم.

❁ ❁ ❁

**ـ الأدب الإسلامي ـ على ما تقولون ـ أدب عالمي، فكيف يتم التواصل بين آداب الشعوب الإسلامية المنتشرة في العالم؟**

= بواسطة الترجمة المتقنة من وإلى لغات تلك الشعوب، وبذلك سيتم التعارف بين أدباء الأمة الواحدة المنتشرة من المحيط إلى المحيط.

ومع الترجمة، هناك المؤتمرات والندوات ووسائل الإعلام، فضلاً عن الجامعات التي يمكن أن تعين على تحقيق هذا الهدف. ولا بدّ أن نتذكر هنا دور مؤسسة إسلامية (كرابطة الأدب الإسلامي العالمية)، في تحقيق هذا التواصل وتعريف أدباء الإسلامية ببعضهم، على تغاير اللغات وتباعد الديار.

❁ ❁ ❁

**ـ هل ترون أن الأدب الإسلامي الحديث استطاع الخروج من دائرة التنظير إلى دائرة التطبيق بشكل أوسع؟ أم ما زالت الكتابات التنظيرية حول هذا الأدب أكثر من الإبداع؟**

= هنالك بالتأكيد قدر من الاختلال في التوازن بين طبقات الجهد الأدبي في دائرة الإسلامية. فالتنظيرات والدراسات الأدبية سخية إلى حد ما، تقابلها شحّة ملحوظة في الجهد النقدي التطبيقي، الذي لا يكاد يغطي عشر معشار الأعمال الإبداعية، التي

طالما اشتكى أصحابها من الإهمال وعدم المتابعة النقدية لمنجزاتهم. وقد أدى هذا إلى أن يكفَّ بعضهم عن مواصلة الإبداع، لأنه كان يجد نفسه في جزر منعزلة لا يكاد صوته يغادرها إلى الجزر الأخرى.

وحتى على المستوى الإبداعي، فإن الاختلاف واضح في الكمّ الكبير من الشعر، والقصة القصيرة إلى حدّ ما، يقابله شحّة ملحوظة في الأنواع الأدبية الأخرى، كالمسرحية والرواية والسيرة الذاتية.

ولا بدّ ـ إذن ـ من أجل تعديل الوقفة الجانحة لهذا الأدب من تحقيق التوازنات الغائبة بين التنظير والتطبيق والدراسة من جهة وبين الأنواع الأدبية المختلفة من جهة أخرى.

❁ ❁ ❁

**ـ كثير من القرّاء يستصعبون الشعر الحر، ويقولون إن الشعر الحرّ للشعراء، ليس للقرّاء، فما موقف الأدب الإسلامي من هذا النوع من الشكل الأدبي، إذ إن خطاب الأدب الإسلامي موجه للجمهور؟**

**= ليس ثمة ما يحول دون اعتماد نمطي الشعر العمودي والحرّ في دائرة الأدب الإسلامي؛ شرط أن يحترم الشاعر المطالب الأساسية لهذا الفن في سياقيه معاً، وبخاصةً «البحر الواحد» على مدى القصيدة كلها، وله بعد ذلك أن يرسم قصيدته وفق الصيغة العمودية أو يحرر تفعيلاتها ويوزعها وفق الأسلوب المعتمد فيما يسمى بالشعر الحرّ، أو شعر التفعيلة.**

والشاعر القدير ـ إذا أردتَ الحق ـ هو الذي يستطيع أن يصوغ تجربته بالقالبين معاً. وعلى العكس، فإن الشاعر الهزيل لن يكون بمقدور قصائده أن تلقى تقييماً أو ترحاباً سواء كانت عمودية أو حرة.

ومن المتفق عليه ابتداء أن الإبداع الشعري (أسوةً بكل الأنواع الأدبية) خطاب موجه من الشاعر إلى الآخر، أي القارئ أو المستمع، والشاعر الذي يعجز عن تنفيذ هذه المهمة تحت غطاء الألغاز والتعتيم والترميز والغموض... سيُلحق أذى أو خللاً في هذه المعادلة، وهذا ليس ذنب الآخر على أية حال.

ولا بدّ إذن من التحقق بالقدرة على نقل الشحنة بأكبر قدر من العمق والوضوح معاً، وهذا لن يتأتى إلا للقلة المتفوقة من الشعراء، سواء كتبوا قصائدهم وفق مطالب العمود أم حرروا تفعيلاتهم منه. فليس الأدب الإسلامي وحده خطاباً للجمهور، وإنما هي مهمة كل أدب على الإطلاق، وإلّا فقد وظيفته الأساسية.

ولن يعني وضع الجمهور قبالة الأديب أو الشاعر إرغام الأخير على التسطح والتضحل والتكشف، الذي يتجاوز وظائفه الفنية فيصير لغة عادية مما يتداوله الناس العاديون... بل على العكس، جعل الشاعر يمارس مهمة صعبة يسعى من خلالها إلى التحرك بالجمهور إلى فوق: في ذوقه وإحساسه ورؤيته الجمالية وتعامله مع الإبداع.

وأشدّ ما يخشاه المرء أن يندفع شعراؤنا، بحجة مخاطبتهم

الجمهور، صوب نوع من التقريرية والمباشرة، قد تهبط بأدائهم إلى الدرك الأسفل في سلم المعايير النقدية. وهذا ما يحدث كثيراً، ليس فقط في سياق الشعر وإنما في معظم الأنواع الأدبية، وهي ثغرة يتحتم أن نتداركها إذا أردنا فعلاً أن يكون لأدبنا حضور مؤكد بين آداب الأمم والشعوب الأخرى.

ويبقى أخيراً، أن الشعر الحرّ أقرب إلى أن يكون خطاباً هامساً، ولذا فهو أصلح للقراءة الهادئة. أما القصيدة العمودية فهي ـ في الغالب ـ خطاب عالٍ أصلح للإلقاء في المنتديات العامة إزاء حشود المستمعين، ولذا كانت هذه القصيدة أكثر تأثيراً في المهرجانات، وأقدر على شد انتباه الجمهور وتحريكه من الشعر الحر، الذي يفقد في مناسبات كهذه قدرته على الإثارة والتأثير، وقد يقود ـ أحياناً ـ إلى الملل والشرود.

❁ ❁ ❁

**ـ هل أن الأدب الإسلامي تمكّن من الوقوف في مصافّ الأدب العالمي؟**

**= هو في طريقه إلى ذلك إن شاء الله، فإن عشرين أو ثلاثين سنة من عمر هذا الأدب قد لا تكفي لتحقيق هذا الهدف الصعب، ولكن الجهود المتواصلة، والعمل المؤسسي المبرمج، وعزم أدباء الإسلامية على تحسين أدوات عملهم، وإعطاء اهتمام أكبر لمسألة التقنيات والأسلوبيات والقيم الجمالية في أنشطتهم الإبداعية، وتفعيل حركة الترجمة سواء في دائرة أدباء الشعوب**

الإسلامية، أم بينها وبين الشعوب والأمم الأخرى... ستكون كفيلة بتحقيق هذا الهدف العزيز.

وقد أخذت بعض الأعمال الإسلامية، بالفعل، تشق طريقها إلى العالم، من خلال ترجمتها إلى هذه اللغة أو تلك من اللغات واسعة الانتشار.

ويظل العامل الأكثر أهمية في التحول إلى العالمية، لا يكمن فقط في الرؤية الإنسانية العميقة والشاملة والمتوازنة التي يقدمها الأدب الإسلامي للإنسان في كل مكان، وإنما أيضاً باعتمادها التقنيات الجمالية الأكثر تأثيراً في بناء الأنواع الأدبية بكفاءة عالية من الأداء أسوةً بما يفعله أدباء الأمم الأخرى.



**ـ هل تذكرون لنا بعض النماذج الراقية من الأدب الإسلامي القديم والحديث قد تجاوزَ الحدود الزمانية والمكانية والعرقية والجنسية وبقيَ ثروة للأدب العالمي الإنساني؟**

= هناك ـ على سبيل المثال ـ الأعمال الشعرية المتألقة لشعراء إسلاميين كبار كسعدي وشيرازي وجلال الدين الرومي ومحمد إقبال.

وأظنك تتذكر معي بعض الأعمال السيرية والروائية من مثل (الطريق إلى مكة) لليوبولد فايس (محمد أسد)، ورواية (السنوات الرهيبة) لجنكيز ضاغجي.

و(الطريق إلى مكة) في اعتقادي واحدة من أروع السير

الذاتية في العالم كله، وهي لا تقل بحال عن تلك السير الذاتية الكبيرة التي أنجزها أدباء من مثل الشاعر التشيلي (بابلو نيرودا)، والروائي اليوناني (كازانتزاكي)، والأديب الفرنسي (أندري مالرو)، إن لم تفقها بكل المعايير الموضوعية والجمالية.

ومرةً أخرى، فإن تحسين الأداء، وتنشيط الترجمة إلى لغات الشعوب الحية، يمكن أن تزيد من النماذج الراقية التي ستمارس حضورها على مستوى العالم كله.

❁ ❁ ❁

**ـ ما هي عقبات الأدب الإسلامي ومعضلاته بشكل عام؟**

= العقبات كثيرة، ولن يتسع المجال للحديث عنها باستفاضة ولذا سأكتفي بالمرور السريع... فثمة ـ كما أشرت قبل قليل ـ غياب التوازن في المعطيات بين التنظير والدراسة والنقد التطبيقي من جهة، وبين الأنواع الأدبية من شعر وقصة ورواية ومسرحية وسيرة ذاتية ومقال من جهة أخرى.

**وثمّة تأكيد أدباء الإسلامية على المضمون، وعدم التعامل بالجدّ المطلوب مع الشكل، والأدب العالي لن يكون كذلك إلّا بالتقاء القطبين: المعنى العميق ذي الرؤية الكبيرة الشاملة، والشكل أو الأسلوب، أو التقنيات التي تحمله إلى الطرف الآخر بأقصى وتائر الإحسان في الأداء، وإلّا أصبح الأدب ـ كما يقول الجاحظ ـ مجرد معانٍ مطروحة على قارعة الطريق.**

**إن الأدب الغربي استطاع أن يغزو ساحاتنا ويتمركز فيها**

وينال الأتباع والمعجبين، ليس بمضامينه المناقضة ابتداءً لمطالب الإنسان ووجوده ومصيره، وإنما بتقنياته العالية، وبخاصة في مجال المسرحية والقصة والرواية والسيرة الذاتية.

ولما لم يكن لدينا روائيون ومسرحيون وقصاص كبار؛ فسيظل الأدب الإسلامي سجين بيئته المحلية لا يغادرها إلى العالم.

وللأسف، فإن معظم أدباء الإسلامية لا يكادون يعيرون أذناً صاغية لهذه الضرورة الفنية في أدائهم، ويرمون بثقلهم صوب المضامين، وهذه وحدها لا تكفي.

هنالك ـ أيضاً ـ ثنائية الأصالة والمعاصرة، أو التراث والحداثة، تلك التي وضع أدباء الإسلامية، أو كثيرون منهم، أنفسهم في إسارها، فاعتقدوا ـ خطأ ـ بأن التعامل مع معطيات العصر، والإفادة من خبرات الحداثة التنظيرية والنقدية والإبداعية، يقودهم إلى الانشقاق عن الأصل، كما دفع فئة أخرى إلى الاعتقاد الخاطئ، المقابل، وهي أن احترام التراث وعدم التفريط بثوابته يحتّم أن ندير ظهورنا لمعطيات العصر وكشوفه الحداثية.

إذا استطعنا أن نتحقق بقدر من الوفاق بين الأصالة والمعاصرة؛ فتشبثنا بالأولى، ولم نضيع فرصة توظيف الثانية، كنا قد تجاوزنا خندقاً آخر يقف عائقاً دون تنامي حركة الأدب الإسلامي وتحقيق حضورها المأمول على خارطة الآداب والمذاهب الأخرى.

❁ ❁ ❁

**ـ ما مستقبل الأدب الإسلامي؟**

= قبالة الهزائم والانكسارات التي عانت منها ولا تزال المذاهب والكشوف الغربية على مستوى الحياة الإنسانية... قبالة ضياع إنسانية الإنسان ودمار الإنسان نفسه في عالم يحاصره السباق المحموم للتكاثر بالأشياء، ويستنزفه الإغراق في الشهوات الهابطة، ويلفّه سعار الالتصاق الأعمى بكل ما هو مادي... قبالة الآداب الغربية التي ارتكست هي الأخرى في حمأة الرذيلة والتفكك، ففقدت وظيفتها الكبرى التي أريد لها ابتداءً أن تكون بحجم الإنسان نفسه... قبالة هذا وذاك يصبح الأدب الإسلامي ضرورة من الضرورات التاريخية والإنسانية على السواء... على الأقل لتحقيق التوازن الضائع، واستعادة «الوضع» البشري الصحيح.

قد نتذكر هنا ما فعله فيلمان إسلاميان ـ إذا صحت التسمية ـ هما (الرسالة) و(عمر المختار) في الضمير الغربي، والإقبال المدهش لمشاهدتهما من قبل حشود الناس في لندن وبرلين وروما وباريس.

وهكذا، فإن الأدب الإسلامي الذي سيعكس الرؤية نفسها... الهموم الكبيرة للإنسان في عالم يحاصره الدنس والدخان والماكيافيلية والبراغماتية من كل مكان... هذا الأدب ينتظره مستقبل واعد بكل تأكيد... ولن يكون ذلك بالأماني والأحلام... أو بكلام يقال عبر هذا اللقاء الصحفي أو ذاك. ولكن بالجهد المثابر الذي يمزج الليل بالنهار، وبالرغبة الجادة في تحسين

أدوات الجهد الإبداعي، والعمل وفق منطوق الحديث النبوي الشريف: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» والحديث الشريف «كتب الله الإحسان في كل شيء...».

وحينذاك فقط يمكن أن نتحرك في الاتجاه الصحيح. فكما أن المستقبل سيكون لهذا الدين، بوعد الله ﷻ، فإن أدبه موعود هو الآخر مع المستقبل فقط إذا عرف أدباؤنا كيف يأخذون بالأسباب.

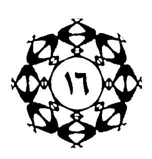
❁ ❁ ❁

**ـ هل تعرفون عن الأدب الإسلامي البنغالي شيئاً؟**

= كلا... للأسف... ولعل خطيئة ذلك تقع على عاتق الترجمة في ساحات الأدب الإسلامي، بين شعوب الأمة الواحدة.

لقد أتيح لي أن أطلع على أدب الهند وباكستان من خلال طاغور والندوي وإقبال... وغيرهم... وكم يسعدني أن يقع في يدي في يوم قريب، عمل إسلامي مترجم عن البنغالية، ولعل ذلك يتحقق على أيديكم معشر الشباب الذي سيتسلم الراية من الجيل السابق ويواصل الطريق.





**أجرى الحوار بالمراسلة الأديب الجزائري محمد مراح، ونشر في مجلة (التضامن) الجزائرية عام (١٩٩٨م).**

**ـ التجارب الفكرية التي تعيشها أمة ما في حركتها النهضوية إما أن تتسم بالفوضى، وإما أن تجري مجرى التنوع الذي يثري التجربة. هل يمكن سحب هذا الكلام على تجارب النهضة الفكرية في العالم العربي والإسلامي؟**

= الاثنتان معاً: الفوضى والتنوع... فعبر القرنين الأخيرين شهد عالم الإسلام أنماطاً من الرد الفكري قبالة صدمتَي الاستعمار والتفوق الغربي. ويمكن ـ بشكل عام ـ إدراجها في سياقات ثلاثة: التقبُّل الكامل للمعطيات الغربية بغضّ النظر عن انسجامها أو تعارضها مع الثوابت الإسلامية، والرفض الانعزالي لهذه المعطيات رغم المآزق النهضوية التي يقود إليها. وثمة سياق ثالث يمكن أن يكون الملمح الأساس لمعظم الحركات النهضوية الإسلامية الأصيلة، التي انطلقت من مبدأ التفريق بين البعدين الثقافي ـ الفكري، والمادي ـ المدني للحضارة الغربية، فدعت إلى رفض البعد الأول لتعارضه مع المعطى الإسلامي في الأعمّ

الأغلب، بينما قبلت مبدأ اقتباس المنتوج المادي ـ المدني للحضارة الغربية وبخاصة (التكنولوجيا).

لا أريد أن أستطرد، فقد عالجتُ هذه المسألة باستفاضة في كتاب سيصدر قريباً ـ إن شاء الله ـ عن دار النفائس في بيروت بعنوان: (حاضر المسلمين ومستقبلهم من منظور غربي).

❁ ❁ ❁

**ـ إن العالم الثقافي هو الثغرة التي تؤتى منها الأمة لتمتد الإصابات إلى بقية الأجزاء بعد ذلك. هل تتفقون مع هذا الطرح؟ وكيف يتم ـ في تصوُّركم ـ إعادة بناء العالم الثقافي لأمتنا؟**

= هذا امتداد للسؤال السابق، فإن الأنساق الثقافية الغربية التي أريد لها أن تدخل ديارنا، فتطعِّم ثقافتنا الإسلامية، أو تنفيها في أقصى الحالات حدّة، هذه الأنساق هي التي أدخلت علينا الهواء الفاسد... إذ كيف يمكن أن يقبل عاقل استبدال الأدنى بالذي هو خير؟ عقائد الوضاعين المترعة بالتناقضات والشروخ، بالعقيدة الإسلامية العليا المنزلة من لدن حكيم خبير؟

قد يكون هذا غير واضح تماماً حتى النصف الأول من القرن العشرين، لكن ما حدث بعد هذا من سقوط وتهافت معظم الأنساق الفكرية والأيديولوجية والثقافية الغربية، وبخاصة الشوفينية والوجودية والماركسية، يجعل المسألة أكثر وضوحاً: المزيد من التشبث بثقافتنا الإسلامية الأصيلة باعتبارها الحالة الوحيدة الممكنة، ليس لحماية الذات وتأكيدها فحسب، بل ـ ربما ـ لإعانة

العالم الضائع نفسه، والمشاركة المحتملة في مصيره، فيما يؤكده العديد من الدارسين الغربيين أنفسهم من أمثال: مارسيل بوازار وروم لاندو وروجيه غارودي وليوبولد فايس ولورا فاغليري وسارتون... وغيرهم كثيرون.

❁ ❁ ❁

**ـ لاشك أن متغيرات جديدة ذات صلة مباشرة بهذا العالم الثقافي قد أخذت في احتلال مواقعها من اهتماماتنا الثقافية (مثل الثورة المعلوماتية ـ ثورة الاتصالات ـ والعولمة، خاصةً في بُعدها الثقافي). كيف ـ برأيكم ـ تتم مراعاة هذه المتغيرات في إعادة بناء العالم الثقافي؟**

= العولمة، والمعلوماتية، والإعلامية، كلها تنطوي بالضرورة على عمق ثقافي، وتُنذر بإحداث تغييرات ثقافية جذرية على مستوى العالم. وبسبب من الارتباط الوثيق بين الثقافة والعقيدة؛ فإن لنا أن نتصور ما يمكن أن يتلقاه عالم الإسلام من جراء هذه التحديات الثلاثة.

وليس الهروب من المشكلة حلّاً لها، كما أن الاستسلام لمنطقها القاهر يقود إلى الانتحار الثقافي. ولا بدّ ـ ها هنا أيضاً ـ من إيجاد «ممرات» ممكنة تسمح بقبول الظاهرة، ولكن من خلال الضوابط والمعايير الإسلامية. بمعنى أن علينا بدلاً من أن ندفن رؤوسنا في الرمال، أن ندرس التحديات الجديدة ونفهمها جيداً، أن نسعى إلى توظيف الحلقات الممكنة منها لتعزيز وجودنا

الثقافي لا لنفيه. وأبرز مثال على هذا ما يحدث في سياقَي الأنترنيت والقنوات الفضائية. أما العولمة فإن لها شأناً آخر بسبب من ارتباطها العضوي بالنظام العالمي الجديد، الذي تحاول الولايات المتحدة الأمريكية ومن ورائها الصهيونية أن تتفرد بقيادته. وليس أمامنا قبالته إلا المزيد من استدعاء عوامل التحصّن، مستندين في ذلك إلى الإمكانات التي تتمتع بها الأمة الإسلامية على مستوى الجغرافيا والاستراتيجية والثروة المعدنية والإمكانات الغذائية والقوى الديموغرافية، فضلاً عن العمق العقدي الذي يمنحها الكثير ويعدها بالكثير.

بل إن بمقدورنا أن نمارس بدورنا عولمة مضادة ـ إذا صح التعبير ـ من خلال استجاشة كل القدرات التي تنطوي عليها الأمة، والعقيدة التي تدين بها، وهي ـ بداهة عقيدة عالمية انتشارية يمكن، ليس فقط أن تحتوي العولمة وتحمي الأمة، بل أن تمارس بدورها عولمة ذات بعد إنساني، كان التاريخ قد أعطى العديد من نماذجها. وهي في كل الأحوال أقرب إلى هموم الإنسان ومطامحه، من العولمة الراهنة التي تسعى لأن تضع مقدرات العالم في يد الأقوى، بغضّ النظر عن سلامة موقفه وتوجُّهه ورؤيته للحياة. وهذا سيرجع بنا ثانية إلى عصر الاستعماريات العتيقة ولكن بديكور جديد.

❁ ❁ ❁

**ـ ألا تعتقدون أن الطروحات التي ظهرت في السنوات**

**الأخيرة مثل (نهاية التاريخ ـ صدام الحضارات ـ العولمة) يريد القائلون بها ـ في دوائر الغرب ـ أن على المنافس القادم لنا أن يعي الدرس جيداً الذي لقّنّاه للخطر الأحمر. عليه أن يفكر كيف يكيّف ما يعتقده خصوصيات ثقافية وحضارية كي ينخرط في النظام العالمي (حضارة واحدة موحدة)؟**

= جاءت معطيات العقدين الأخيرين من القرن العشرين ـ وبخاصة بعد زوال الاتحاد السوفياتي، وغياب التعددية القطبية التي تحكم العالم، وتفرُّد الولايات المتحدة الأمريكية بالقيادة السياسية والعسكرية والحضارية، فيما أطلق عليه النظام العالمي الجديد أو الموحد، وانكشاف المواجهة بين هذا النظام وعالم الإسلام، وظهور العديد من النظريات والآراء التي تمنح الخلفيات الفلسفية للوضع الجديد وتعطيه مبررات التنامي والاستمرار، وبخاصة نظرية (نهاية التاريخ) لفرنسيس فوكوياما و(صراع الحضارات) لصموئيل هنتنغتون ـ جاء هذا كله لكي يضع الأمة الإسلامية قبالة شبكة جديدة من التحديات التي تزيد في تضييق الخناق على بقايا وجودها الحضاري المنهار، وتهدد بإلغاء شخصيتها وإلحاقها في نهاية الأمر، بكيان الحضارة الغربية الغالبة.

إن نظرية (صراع الحضارات) التي قال بها هنتنغتن، أستاذ العلوم السياسية ومدير مؤسسة (جون أولين) للدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفارد، في محاضرته عن (صدام الحضارات)، التي تضمنتها دراسته الموسومة بـ «المصالح

الأمريكية ومتغيرات الأمن»، والتي نشرت في مجلة «الشؤون الخارجية» في حزيران عام (١٩٩٢م)، تؤكد ـ بإيجاز ـ على أن الغرب، بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، بحاجة ماسة إلى عدو جديد يوحّد دوله وشعوبه، وأن الحرب لن تتوقف حتى لو سكت السلاح وأُبرمت المعاهدات. ذلك أن حرباً حضارية قادمة ستستمر بين المعسكر الغربي الذي تتزعمه أمريكا وبين طرف آخر قد يكون عالم الإسلام أو الصين.

أما نظرية «نهاية التاريخ»، فتسعى إلى إلغاء البعد التاريخي، ووضع الأمم والجماعات كافة، عراة، قبالة الصنمية الاقتصادية التي تنزع إلى تسوية الجميع إزاء مطالبها، لكنها من وراء هذا تزيد أغنياء العالم وطواغيته غنىً وجبروتاً، وفقراءه ومستضعفيه فقراً واستعباداً.

إنها ـ بشكل من الأشكال ـ مناورة فكرية تمنح خلفيات تنظيرية لممارسات تتجاوز ـ ابتداء ـ منظومة القيم الخلقية وثوابت العقائد والأديان، والمطالب الأساسية للإنسان. ومن وراء هذه المناورة تكمن الخبرة الصليبية واليهودية والاستعمارية والرأسمالية.

إن إلغاء الذاكرة التاريخية، وتحكيم الصنمية الاقتصادية المتسلحة بكل قوى العلم والتكنولوجيا والتفوق العسكري وحتى السياسي للغرب، لن يجعل الفقير غنياً، وينزل بالأغنياء لكي يقاربوا الفقراء، بل ستجعلنا، وكلّ المستضعفين في الأرض

ينسلخون عن تاريخهم، ويفقدون تميزهم ويزدادون التصاقاً بالقوى المتحكمة في آليات الاقتصاد العالمي.

إن تجريد العالم من بطانته الروحية، والوجود من تجذُّره في الغيب، ومنح السلطة المطلقة للاقتصاد، سوف يميل بالميزان، وسيكون الإنسان هو الخاسر الوحيد.

وإذا أردتَ الحق، فإن «نهاية التاريخ» بما تنطوي عليه من إلغاء للتاريخ، انما هي رؤية خاطئة تتشكل على النقيض من قوانين التاريخ، الذي جُبل على التغاير والتنوع والتدافع والاختلاف: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣].

لقد طُبعت النفس البشرية على الانتماء للتاريخ، وكل محاولات فك الارتباط بين الإنسان وتاريخه باءت بالفشل، وبقي العمق الزمني الذي ينطوي على الخصائص والمقومات، ماضياً لكي يعمل عمله في صميم الممارسات والخبرات.

❁ ❁ ❁

**ـ هل ترون أن تراكم التجارب التي مرت بها الأمة على جميع الأصعدة بلغت الحدّ الذي يؤهّل الأمة لتلمّس طريق الحضارة والتطلع للريادة؟**

**= على المدى القريب ليس ثمّة ما يوحي بذلك... ولكن ـ ربما ـ على المديات البعيدة قد تبلغ الأمة المرحلة التي تؤهّلها**

لذلك، عندما تستكمل الشروط التي تجعلها قديرة على تقديم المشروع الحضاري البديل. ولكن ذلك لن يكون قبل أن تتقدم بهذا المشروع لذات نفسها أولاً فتتحقق به، في وتائره العليا الممكنة، ومن ثم تقنع الآخر بمصداقيته، وهذا بدوره لن يكون ما لم تعِ الأمة جيداً قوانين الحركة التاريخية، وسنن الله ﷻ في الكون والعالم، تلك التي أنبأ بها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ولكننا عبر عصور التخلف والانحطاط، لم نحسن التعامل معها، وفي مقدمتها ـ ولا ريب ـ دعوة القرآن المؤكدة للإلتحام بالكتلة واختراق قشرة العالم لاستخراج طاقاته المذخورة وتسخيرها لتعزيز مكانة الأمة في العالم وحماية مقدّراتها الإيمانية قبالة كل أنماط التحديات.

يكفي أن نرجع إلى (الآية ٢٥) من سورة الحديد والتي تقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾...

**يكفي أن نرجع إلى واقعة ذي القرنين الذي طلب منه المستضعفون في الأرض أن يحميهم من الأقوى، وكيف أنه ما قال لهم: تعالوا نصلي ونصوم وندعو الله ﷻ كي ينصرنا على الأعداء، وإنما قال: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥] واعتمد كل حيثيات العمل الجاد والقوى المنظورة من حديد ونار ونحاس سائل لإقامة السد المحكم الذي يحمي المستضعفين...**

يكفي أن نتذكر مبدأي الاستخلاف والتسخير الإسلاميين، اللذين لن يتحولا إلى حيز التنفيذ ما لم يقتحم المسلم الكتلة ويكشف أسرارها ونواميسها...

يكفي أن نتذكر هذا كله لكي نعرف أن تحقيق الذات لن يتم بالتزام جانب دون جانب في البنية العقدية، وأنه لا بدّ من التعامل مع المنطوق الإسلامي في حلقاته كافة، وحينذاك يمكن أن نضع خطواتنا في البداية الصحيحة التي أرادها لنا الله ﷻ ورسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام)، وأن نحصّن أنفسنا ونتقدم في الوقت نفسه بمشروعنا للعالم قبالة كل المشاريع الوضعية التي أثبتت عجزها وتهافتها وعدم قدرتها على مواصلة البقاء.

إن القرآن الكريم يمنحنا في سوره ومقاطعه وآياته البينات، بل حتى في أسماء سوره الموقوفة من لدن رسول الله ﷺ مفاتيح عمل... يعطينا إشارات... شفرات... يمكن إذا أحسنّا الإنصات إليها، وتنفيذها، أن نضع خطواتنا على البداية الصحيحة التي انحرفنا عنها عبر قرون التخلف والجمود الحضاري، فضعنا...

وأظنك تتذكر معي ـ على سبيل المثال ـ أسماء ثلاث سور من كتاب الله ﷻ تحمل إحداها اسم (**القلم**)، والأخرى اسم (**الشورى**)، والثالثة التي سبقت الإشارة إليها اسم (**الحديد**)... **والمعادلات الموضوعية لهذه العناوين الثلاثة هي: المعرفة، الحرية، والقوة... فلو أننا استطعنا أن نجعل حياتنا تتحقق بأطراف هذا**

المثلث، لما كنا قد انحدرنا إلى الحال التي نعاني منها منذ أكثر من قرنين قبالة الغربي المتفوق بمعرفته وحريته وقوته... ولكن!!

❁ ❁ ❁

**ـ لا يزال العقل المسلم يعيش أنماطاً متناقضة من التفكير. ما هي أبرز أشكالها وتجلياتها؟ هل أن إزالة هذه التناقضات مرهون بإعادة تشكيل العقل المسلم؟**

= التغاير أو الاختلاف أو التنوع، في حدوده المعقولة، حالة صحية، والقرآن الكريم يقولها بوضوح: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] لكن عندما يتحول إلى تناقض، وتهيمن عليه الروح الفِرَقية؛ فإنه ينطوي على حشود من السلبيات القاتلة أحياناً، وهي لا تقتصر على دائرة الفكر وإنما تمضي إلى السلوك، وإلى جلّ مفردات الحياة فتقودها إلى الاصطراع والدمار.

لقد كانت الظاهرة (الفِرَقية) السكين التي ذبحت أمتنا عبر مراحل متطاولة من تاريخها، وكان رسول الله ﷺ قد حذّر منها في حديثه الشريف الذي يشير فيه إلى أن الأمة ستفترق إلى بضع وسبعين فرقة، ليس ثمّة بينها سوى فرقة ناجية واحدة. وهو ﷺ لا يعني العدد بمفهومه الإحصائي على وجه التحديد، وإنما يستهدف تصوير التمزق الذي ستشهده الأمة عبر تاريخها، وأن ليس ثمة من خلاص سوى بالاعتصام بالوحدة والتشبث بثوابت

هذا الدين في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، اللذين إذا تحقق الاعتصام بهما فلن تضل هذه الأمة.

إنها معادلات واضحة تماماً، ولكننا غفلنا عنها. والمهم أن أي تعديل للوقفة لن يتحقق إلّا بالبدء من عالم الفكر... تقويم مناهج الفكر في ضوء معطيات الكتاب والسنة المضيئة للآباء والأجداد. وحينذاك فقط يمكن أن تثوب الأمة إلى الجادة التي تقودها إلى الأهداف المتوافقة مع مقاصد الشريعة العليا.

❁ ❁ ❁

**ـ عليه السلام رغم الثبات في «حالة الانقطاع» المستمر بين (التغريب) وأغلب الأمة. فإن أصحابه لم ييأسوا من البحث عن منافذ جديدة لإيجاد صلة ما تحفظ له بعض وجوده، وتعطي لأطروحاتهم مصداقية ما. فما هي ـ برأيكم ـ هذه المنافذ؟ وما مدى نجاح المراهنين على صياغة مشروع نموذج حضاري، (مزيج أيديولوجي)، قائم على تبني (إيجابيات) لكل أيديولوجية عرفتها الساحة العربية ـ الإسلامية؟**

= التلفيق يمكن أن يتم في عالم الأشياء... وإلى حدّ ما في عالم الأفكار في حدودها الوضعية. أما في عالم العقائد، فإنه مستحيل... فالعقيدة كيان متوحد ينبثق عن مصدر واحد، ويسري في شرايينه نسغ واحد، وينبض بهمّ واحد. وبالنسبة للمنظور الديني بشكل عام، والإسلامي على وجه الخصوص، فإن الوحي يصير حاكماً على الفكر والوجود، أي أن منظومة الأفكار وإعادة

صياغة الوجود في ضوئها، ومنهج التعامل معه، تنطلق من معطيات الوحي وثوابته الأساسية، ولن يكون العكس بحال من الأحوال لأنه ينقض المنطوق الديني ابتداء...

وهكذا فإن إيجاد «مزيج أيديولوجي» يستمد مقوماته وعناصره من مصادر مختلفة، وقد تكون متناقضة ابتداء، إنما هو ـ في أفضل حالاته ـ «حلم» غير ممكن التحقيق، أو «تخيّل» طوباوي لا يقوم على أساس. وقد سبق للعديد من مفكري الغرب وأدبائه وفلاسفته، أن تقدموا بمشاريعهم التلفيقية كوسيلة للخروج من المأزق الذي وضعتهم فيه المسيحية المحرّفة، والمذاهب العلمانية أو الإلحادية، المحدودة أو الشمولية. ولم يقدَّر لأية محاولة النجاح، ومن ثم فإن سحب مشاريع خائبة كهذه على الساحة الإسلامية ينطوي على خطأ فادح، والخطأ ـ كما يقول السياسي الفرنسي العجوز تاليران ـ أكبر من الجريمة!

❁ ❁ ❁

**ـ العطاء الإسلامي المعاصر (في المجال الفني والأدبي) وجه من وجوه إعادة صياغة المعرفة صياغة إسلامية. أيصح القول أن ما هو موجود من هذا العطاء ـ في مجمله ـ أنجز المهمة؟**

**= إلى حدّ يبعث على الرضا في النفس، على مستوى الإبداع، والدراسة، والنقد، والتنظير. بل إن هذا الأدب أصبحت له مؤسساته (رابطة الأدب الإسلامي العالمية) ومجلاته المتخصصة (المشكاة)**

و(مجلة الأدب الإسلامي). كما أنه تمكن من اختراق جدران الأكاديمية وتحقيق حضور ملحوظ في دوائر الدراسات العليا.

ولم يكن هذا موجوداً قبل ثلاثين سنة أو عشرين، ولكنه بفضل الله ﷻ ثم جهود العاملين في ساحات هذا الأدب قدر على تحقيق هذا كله. وهو ماضٍ في الطريق لتحقيق المزيد إن شاء الله. وكشاهد على هذا الكلام أُحيلك فقط إلى (دليل مكتبة الأدب الإسلامي) الذي أصدرته رابطة الأدب الإسلامي العالمية قبل حوالي العقد، لكي ترى عشرات المصنفات والدراسات والأعمال الإبداعية، بل مئاتها، تخرج إلى الناس عبر ما لا يزيد عن ثلاثة عقود من الزمن.

وأيضاً يمكن أن تلقي نظرة على العدد الخاص بالشعر الإسلامي من مجلة الأدب الإسلامي التي تصدرها الرابطة، لكي تجد نفسك قبالة إحدى وستين قصيدة تم انتقاؤها من بين مئات القصائد، التي أراد أصحابها أن تجد طريقها إلى هذا العدد الخاص الذي صدر قبل أشهر معدودات. وقارن هذا وذاك بما كان عليه الحال في خمسينيات هذا القرن وستينياته، وستحكم بنفسك. وقد تزداد اقتناعاً إذا عرفت أن عشرات من بحوث التخرج ورسائل الدبلوم والماجستير والدكتوراه قد أُنجزت عن هذا الأدب في مختلف الجامعات العربية والإسلامية.

بل إن الساحة أخذت تشهد ندوات ومؤتمرات خصبة تعقد هنا وهناك، تحمل هموم هذا الأدب، وتتابع حلقات القوة والضعف

فيه، وتقدم البدائل المناسبة. وقد كان آخرها ذلك الذي عقدته جامعة الزرقاء الأهلية في الأردن في الفترة بين (٤ ـ ٦ أيار عام ١٩٩٩م) تحت شعار: قضايا الأدب الإسلامي: الواقع والطموح.

❁ ❁ ❁

**ـ دائماً وفي الإطار نفسه، أنطمع في استخلاص مدارس فنية وأدبية في دائرة (الإسلامية) من النتاج الفني والأدبي الموجود؟**

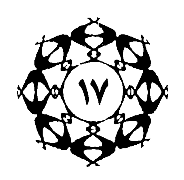
= بكل تأكيد، إذا كنت تقصد بسؤالك: مذهبياً أدبياً إسلامياً. فإذا كانت المبادئ والتصورات والعقائد الوضعية كالماركسية والوجودية، قد أنشأت مذاهب أدبية، بل إذا كانت إفرازات العقل والوجدان الغربي المأزومين قد تمخضت عن مذاهب شتى كالسريالية والدادائية والعبثية... الخ استمدها ـ إذا استخدمنا عبارة فاولي في (عصر السريالية) ـ: «من عالم الجنون والدجنّة»، أفلا يكون التصور الإسلامي الشامل الذي يطوي جناحيه على الكون والعالم والوجود والخبرة البشرية، قديراً على إقامة مذهب أدبي يحمل رؤيته وينبض بهمومه ومطامحه؟

إن المشكلة أيها الأخ الكريم ليست في تأكيد وجود مذهب أدب إسلامي، فهي مسألة محسومة لا يكاد أحد يناقش فيها، وإنما في حاجة هذا المذهب إلى أن يؤكد خصوصياته ويعمّق ملامحه على مستوى الأشكال والأسلوبيات والقيم الجمالية... فهو في سياق المضمون واضح متميز لا يكاد يخطئه أحد... ولكن الجانب الآخر الملتحم بالمضمون ـ بالضرورة ـ وهو القيم الفنية والجمالية

بحاجة إلى المزيد من الجهد من أجل أن يكون المذهب الإسلامي متميزاً في عناصره، قديراً في الوقت نفسه على رفع خطابه المؤثر قبالة سمع العالم وعقله ووجدانه.

وأنت تعلم أن المعطى الأدبي أو الإبداعي لن يتحقق أو يكون إلّا بقدر ما ينطوي عليه من قيم جمالية أو شكلانية تتعامل مع المضمون، وإلّا فهي المعاني الملقاة على قارعة الطريق، إذا استخدمنا عبارة الجاحظ، فإذا قدرنا على أن نرفع سوية الأداء في أعمالنا الأدبية، وهو أمرٌ ملحوظ في النتاج الإسلامي عبر العقدين الأخيرين بوجه الخصوص، والحمد لله، فإننا حينذاك سنحقق اثنتين: تعميق ملامح المذهبية الأدبية الإسلامية من جهة، وتمكين الخطاب الأدبي الإسلامي ـ من جهة أخرى ـ من أن يأخذ مكانه المشروع، ليس في الساحة العربية والإسلامية وحدها، ولكن في العالم كله.






**أجرى الحوار الأخ مصطفى كامل محمد مراسل صحيفة (الشرق) القطرية في بغداد في كانون الثاني عام (٢٠٠٠م) ونشر في الصحيفة المذكورة في ربيع العام نفسه.**

**ـ من وجهة النظر الإسلامية كيف نفهم حوار الحضارات؟**

= كما فهمها الآباء والأجداد زمن تألقهم الحضاري... ألّا ننعزل عن الحضارات الأخرى، وألّا نندمج أو نذوب فيها... لقد أخذوا الكثير عن اليونان والرومان والفرس والبيزنطيين والهنود والسريان والصابئة والأقباط... اقتبسوا بعض خبراتهم الإدارية والعسكرية والمعمارية، ووظفوا فلسفتهم وطبّهم وعلومهم بعامة. لكنهم ـ من جهة أخرى ـ ما سمحوا ـ إلّا في حالات استثنائية لا يقاس عليها ـ بتمرير عناصر لا تنسجم مع ثوابت العقيدة ومحورها التوحيدي. وقد يفسر هذا عدم إقبالهم على الأدب اليوناني رغم عطائه السخي ونضجه الفني، وما ذلك إلّا لكونه يعكس رؤية وثنية للحياة والوجود.

وهذه المسألة بالذات قد تلقي ضوءاً على قضية في غاية الأهمية بخصوص الاحتكاك الحضاري، ولاسيما الحضارة الغربية

الراهنة: فهي على المستوى العلمي الصرف والتقني، وبعض الحلقات في مجال العلوم الإنسانية، يمكن أن تمنحنا الكثير، ولكنها في المساحات الأوسع من معرفتها الإنسانية ترتطم بثوابتنا العقدية، ورؤيتنا للوجود والمصير... ومن ثم فإن فتح الأبواب والنوافذ قبالتها تحت مظلة الحوار الحضاري لن يكون سوى قبولنا ارتشاف السم الزعاف، الذي سيدمر وجودنا، إذا استعرنا عبارة الباحث النمساوي المسلم ليوبولد فايس (محمد أسد).

وأخشى ما أخشاه ـ أيها الأخ الكريم ـ هو أن تقودنا الأفعال الخاطئة إلى ردود خاطئة هي الأخرى، فإن نظرية صراع الحضارات تلك التي طرحها الباحث الأمريكي المعاصر (صموئيل هنتنكتن) وهي لا تنطوي بالضرورة على رؤية صائبة، أو تقدم استنتاجات محكمة بخصوص المستقبل، هذه النظرية قد تقود البعض إلى الدعوة إلى مزيد من الحوار الفعال بيننا وبين الحضارة الغربية، وإلى قبول حتى تلك العناصر والحلقات التي يمكن أن تأتي على ما تبقى من شخصيتنا الحضارية.

إن الموقف الوسط... الموقف المتأني المستبصر الذي ينظر إلى الظاهرة من أطرافها كافة هو المطلوب إزاء تحديات حوار الحضارات، ونحن أمة أريد لها أن تكون «وسطاً»... وهنا يتحتم استدعاء هذه الوسطية لصياغة معايير موضوعية مرنة وصارمة في الوقت نفسه لدى التعامل مع حضارة الآخر.

❁ ❁ ❁

**ـ خصوصية المسلم، كيف نفهمها؟ هل هي منغلقة أم منفتحة على العالم؟**

= قد تكون إجابتي الموجزة على سؤالك السابق هي نفسها الإجابة المناسبة على هذا السؤال... والمهم أن نحمي خصوصياتنا من الضياع عن طريق اختيار الممر الوحيد الممكن قبالة تفوق الحضارة الغربية ومعطياتها المدنية والثقافية والفكرية والعلمية. وأبرز مواصفات هذا الممر أنه يعرف كيف يفتح نوافذه وأبوابه في الوقت المناسب على هذه المعطيات، وأن يختبرها جيداً قبل أن يسمح لها بالدخول.

❁ ❁ ❁

**ـ صراع الإسلام مع أعدائه، صراع حضاري أم عسكري؟**

= الصراع العسكري هو مجرد آلية أو أداة لصراع ذي فضاءات واسعة، بعضها عقدي، وبعضها فكري أو ثقافي، وبعضها الثالث حضاري بالمفهوم الشامل للكلمة.

لقد انطلق الفاتحون إلى العالم لنشر رؤيتهم الجديدة للكون والحياة والإنسان والوجود والمصير، وهي رؤية تنبثق عن محورها التوحيدي الذي يستهدف تحرير الإنسان أياً كان في الزمن والمكان، من كل صنوف القهر والاستعباد والابتزاز والإذلال... ولكي يزيح الصنميات والطاغوتيات، ويضع عن البشرية إصرها والأغلال التي كانت عليها.

لم يُرَدْ لهذه الرؤية أن تفرض على الآخرين، ولم يخطر هذا أبداً على بال أحد من الفاتحين... وكان الهدف الأساس هو أن يصل الخطاب الإسلامي إلى الإنسان لكي ينقذه من الاستلاب، ويحرره، ويمنحه الكثير. فلما وقفت السلطات الغاشمة قبالة المحاولة؛ كان لا بدّ من إزاحتها للتحقق بمبدأ حرية الاختيار. ولم يكن بمقدور الدولة الإسلامية من أجل تنفيذ هذه الإزاحة إلّا أن تلجأ إلى السلاح، وأن تمارس صراعاً عسكرياً متطاولاً ضد الزعامات الطاغية في مشارق الأرض ومغاربها.

ولكن أيٌّ صراع عسكري هذا؟ إن المسلم الجاد يعكس في كل ممارساته رؤيته للحياة بكل ما تنطوي عليه من قيم عليا صاغها هذا الدين، وتأكدت المرة تلو المرة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وممارسات الأجيال الأولى من الصحابة والتابعين...

إن الحرب الإسلامية، إذا صح التعبير، هي غيرها عند الآخرين، فها هنا نجد الغاية تبرر الواسطة، ولكنها في الدائرة الإسلامية لا تبررها على الإطلاق، وبالتالي يصير القتال في المنظور الإسلامي عملاً إنسانياً نبيلاً. ونحن نلمح هذا في ممارسات الفاتحين وتعليمات قياداتهم العليا، وفي منظومة السلوكيات القتالية التي أنزلوها إلى الميدان فكانت واحدة من أهم عوامل كسب الخصوم وانتمائهم لهذا الدين. إن الفعالية العسكرية الإسلامية فعالية حضارية في نهاية المطاف، تصلح ولا تفسد، وتبني ولا تخرب، وتحرّر ولا تستعبد، وتحمي الإنسان

من القتل ولا تذبحه، وتحفظ لكل مظاهر الإبداع والعطاء قدرتها على الصيرورة ومواصلة التشكل.

نحن عندما دخلنا خيبر ـ على سبيل المثال ـ ووضع الفاتحون أيديهم على نصوص من العهد القديم، أعادها رسولنا ﷺ إلى أصحابها من حاخامات اليهود، رغم أنه فكر الخصم المتآمر الذي يتحتم أن يحرق... ونصارى إسبانيا عندما دخلوا غرناطة آخر معاقلنا في الأندلس، أحرقوا تراثها في الساحات العامة، واعتبروا ذلك عملاً من أعمال الإيمان!

عندما نُهزم نحن أو يشدد الخناق علينا لا نبرّر لأنفسنا استخدام أي أسلوب مدمر للخروج من المأزق... بينما نجد أن أمريكا ـ على سبيل المثال ـ لا تتردد لحظة، وقد استعصت عليها اليابان في أخريات الحرب العالمية الثانية، أن تحرق اثنتين من مدنها الكبرى بالقنابل الذرية.

ومنذ البدايات الأولى كانت توجيهات الخليفة الأول أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) هو ألّا يقتل المسلمون طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً، ولا يقطعوا شجرة أو يذبحوا بقرة... وسوف يمرون بنسّاك نذروا أنفسهم لله في صوامعهم فلا يمسّوهم بأذى...

فما الذي كان يحمي الطفولة والشيخوخة والزرع والضرع والتنسّك من لفح الانشطار الذري ووهجه المدمر؟

❁ ❁ ❁

**- حدثني عن أهمية التجديد في الفكر الإسلامي؟**

= منطوق التجديد يقوم في الأساس على بنية الفكر الإسلامي، من حيث أنه ينهض أو يتحرك على خطين أو طبقتين، تنطوي أولاهما على الثوابت العقدية والتشريعية والفكرية التي تمضي لكي تتعامل مع كل زمن أو مكان... ويتضمن ثانيهما مفاصل وحلقات مرنة يمكن إعادة صياغة مفرداتها، أو تحديدها بعبارة أخرى، لكي تكون قادرة على التعامل مع اللحظة التاريخية أو البيئة الجغرافية.

إن قدر الصيرورة التاريخية، بكل ما تنطوي عليه من خبرات، هو أن تخضع بين الحين والحين، لمتغيرات شتى... والفكر الإسلامي، بدءاً من تأسيساته الفقهية العظيمة على يد أصوليي الفقه الكبار، وضع نصب عينيه هذه الثنائية «المتوافقة» بين الإسلام وبين التاريخ والجغرافيا... أي بين هذا الدين وبين متغيرات الزمن والمكان.

فالتجديد بهذا المعنى هو تمكين المعطى الإسلامي من احتواء التاريخ والجغرافيا... الزمن والمكان... من خلال تنزيل الثوابت ربما بصيغ جديدة... أو اعتماد أساليب وصيغ لم تكن معروفة من قبل. إنه ضرورة من الضرورات إذا أريد لهذا الدين أن يظل على فاعليته وتدفقه، وتماسّه مع الواقع... ولعل إحدى الحلقات المبدعة في تاريخ الإسلام هي ظهور «المجدد» بين الحين والحين لأداء هذه المهمة. وكان رسول الله ﷺ قد ألمح

إلى هذه «الحتمية» أو «الضرورة» عندما أشار إلى مجيء المصلح على رأس كل قرن لكي يجدد لهذه الأمة دينها، ليس بمعنى الانتقاض على الأصول، وإنما إزاحة الصدأ المترسب عليها، وإعادة الألق والخفقان إليها، من خلال إيجاد صيغ متجددة لترتيب العلاقة المتبادلة بينها وبين مطالب العصر ومتغيراته.

❁ ❁ ❁

**ـ في مجتمعنا المعاصر كيف نفهم علاقة المسلم بالآخر، غير المسلم؟**

= بالاستهداء بمؤشرات هذا الدين وعلاماته الضوئية التي أتاحت لغير المسلمين، في المجتمع الإسلامي، وتحت ظلال الدولة الإسلامية، أن يمضوا حيث يشاؤون، وأن يعيشوا حريتهم الدينية والمدنية كاملة، وأن يتحققوا بمبدأ تكافؤ الفرص، فيما لم تشهده عقيدة أخرى أتيحت لها الغلبة على خصومها، وفيما لم يعرف له مثيل في تاريخ أية أمة أخرى على الإطلاق.

إن ثلاثة عشر قرناً من الزمن لم تشهد فيها هذه الأمة حالة واحدة أُكره فيها غير المسلم على اعتناق الإسلام، فيما يخلص إليه المستشرق البريطاني (سير توماس أرنولد) في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) الذي سهر على تأليفه عشرات السنين... لهي واحدة من المؤشرات على أن التعامل بين المسلم وغير المسلم في المجتمع الإسلامي، لا ينطوي على أيِّ قدر من الحساسية.

ومنذ اللحظات الأولى أوصى رسول الله ﷺ أصحابه بأهل

ذمّته، بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى، وعلى مدى التاريخ الطويل أصبح أهل الذمة هؤلاء يتمتعون بحقوقهم على المستويات كافة، وصار منهم الصيارفة وأرباب التجارة والمال... كما نبغ منهم الرياضيون والأطباء... واستُدعيت فئة ثالثة لكي تكون واسطة فعالة لنقل معطيات العقل اليوناني إلى العربية... بل إن فئة أخرى تدرجت في المناصب الإدارية حتى بلغت الوزارة.

فمن الذي وضع الأسلاك الشائكة بين المسلم وغير المسلم سوى مكر القوى الغربية المتسلطة، التي أرادت من خلال حفر الهوة بين الطرفين أن تمضي إلى أهدافها؟

لحسن الحظ فإن عدداً لا يستهان به من مثقفي المسيحية في ديارنا يدركون هذا، ولذا فإنهم يتشبثون أكثر فأكثر بتلك التقاليد التاريخية النبيلة في التعامل بين المسلم وغير المسلم.

لقد كان أبي تاجراً في سوق السراي في الموصل، وإلى جواره كانت تقوم دكان تاجر نصراني، وقبالته تماماً كان تاجر يهودي يمارس عمله، وكنت أقضي الساعات الطوال هناك مع رفاقي من الأطفال، وكنا نشهد يوماً بيوم كيف أن المسلم والنصراني واليهودي يقيمون الولائم المشتركة، ويخرجون سويةً في رحلات الربيع الجميلة إلى أطراف المدينة ويتبادلون الأحاديث والنكات.

عندما كبرت أدركت أن ما كان يفعله أبي هو تقليد أصيل قادم من ممارسات الآباء والأجداد، وأنه واحدة من أكثر وسائل الإيضاح تأكيداً على أن هذا الدين ما أراد يوماً أن يصادر عقائد

الآخرين أو أفكارهم على الإطلاق... وأن تعايُشَه معهم ليس أمراً ممكناً فحسب، بل هو ممارسة يومية في البيت والسوق والشارع والمدرسة والمؤسسة والأعياد والمناسبات!

❁ ❁ ❁

**ـ تهتم كثيراً في الكتابة عن الفرد والأسرة... ما هو دور الفرد والأسرة المسلمة في النهضة الإسلامية؟**

= أما الاهتمام فأمر طبيعي تماماً... ذلك أن الأسرة هي نقطة الارتكاز الأساسية في النشاط الاجتماعي، وبدونها، أو بتدمير ثوابتها ستلحق هذا النشاط كسور ليس إلى جبرها من سبيل... لقد أرادت الشيوعية يوماً أن تلغي الأسرة فماذا كانت النتيجة؟ بعد خمس سنوات فحسب على قيام الدولة السوفياتية أصدر لينين بيانه المعروف بحماية الأسرة واحترام العلاقات الزوجية وإلّا أصبح أبناء الروس كافةً من اللقطاء...

في الغرب الرأسمالي جرت محاولات موازية، ولكن بدرجة أقل من المشاعية السوفياتية، لفتح ثغرات في بنية الأسرة، فأصبح الزوج يعاشر خليلاته، والزوجة تبحث عن عشاقها سراً أو على ملأ من الناس... ولقيَت الطفولة هناك ما لقيَتْ، فيما كاد أن يدمِّر المحضن الذين أراده الله ﷻ لتواصل الأجيال.

من ناحية أخرى، أخذ ربع القرن الأخير يشهد محاولات شرسة للإجهاز على الأسرة، وإخراج المرأة عن مواقعها التي أنيطت بها، وقامت مؤتمرات عالمية في العديد من عواصم الدنيا

كان من أبرزها مؤتمر بكين الذي رفع دعاواه لتحرير المرأة، أو تعهيرها بعبارة أخرى، تحريرها ممن؟ من أنوثتها وتميُّزها، ودورها المتوافق مع تكوينها النفسي والجسدي على السواء، ودفعها باتجاه نوع من البهيمية عبر منح الشرعية لأنماط الشذوذ الجنسي، غدت مشاعية الروس بالنسبة لها أقرب إلى الاعتدال!

بالتأكيد فإن اليهود الذين أدانهم الله ﷻ بالإفساد في الأرض، يقفون وراء المحاولتين معاً، من أجل تحقيق جملة من الأهداف التي سبق وأن رسمتها بروتوكولات حكماء صهيون... وغير البروتوكولات فيما تشهده الجماعات والشعوب يتحدث بلسان الحال حيناً وبلسان المقال أحياناً... ويكفي أن نشير مجرد إشارة إلى محاولة إسرائيل تسريب الآلاف من أشرطة الفيديو كاسيت الداعرة إلى مصر عبر سيناء... وغير هذه المحاولة مئات وآلاف.

وهذا ينقلنا إلى الشق الآخر من السؤال إذ يغدو ضرورياً للنهضة الإسلامية، أو المشروع الحضاري للأمة المسلمة، أن تقدم رؤية الإسلام لقضية المرأة والأسرة، وهندسته المعجزة التي اعترف بها ودهش لها الخصوم أنفسهم، بديلاً عن تفكك ودمار هذه المؤسسة في الحياة المعاصرة على أيدي الوضّاعين والعرّابين، الذين يريدون أن يميلوا بالناس والخبرات ميلاً عظيماً... تقدمها لذات نفسها، وتقدمها للآخر... وهي في الحالتين تؤسس لأحد الشروط الضرورية للانبعاث الإسلامي... **فبدون الأسرة، بمواصفاتها الإسلامية وثوابتها ونسبها المرسومة بعناية، لن تكون هناك نهضة على الإطلاق.**

قد ننهض على ساق واحدة، كما يفعل الغربيون اليوم، ولكننا سنخفي وراء ديكورات الحياة المادية المدهشة كسوراً وآلاماً وتعاساتٍ وتفككاً وعفناً وفساداً، يزحف سرطانها الخبيث لكي يأكل الأخضر واليابس، ولا يترك في نهاية الأمر سوى القشور.

❁ ❁ ❁

**ـ كمفكر مسلم كيف تنظر إلى مفاهيم: نهاية التاريخ، سقوط الأيديولوجيات، العولمة؟**

= هذه المفاهيم ـ إذا أردتَ الحق ـ يرتبط بعضها ببعض ويفضي أحدها إلى الآخر... وبإيجاز شديد فإن للمسألة وجهين:

أما نهاية التاريخ، فلا تعدو أن تكون افتراضاً، وهو إذا أحلناه على قوانين الحركة التاريخية نفسها يغدو افتراضاً مستحيلاً. ذلك أن البشرية فطرت على التغاير والتنوع والاختلاف، وهي معطيات تعكس نفسها على مرآة التاريخ حيناً، والجغرافيا حيناً آخر، وبصيغ شتى قد تبدأ بلون البشرة، واللغة، والعادات والتقاليد الأولية، وتنتهي بالنشاط أو الفعل الحضاري بمفهومه الشامل...

وكل المحاولات التي جرت لإلغاء هذه الحقيقة أو تجاوزها، أو القفز عليها، آلت إلى الفشل. لقد قالها القرآن الكريم بوضوح: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨] أي خلقهم للتغاير والتنوع والاختلاف، وهي من بين جملة من الشروط التي تعين على تحريك الحياة البشرية ودفعها إلى الأمام،

وتطهيرها من السكون والفساد: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

في يوم ما حلُمت الشيوعية بنهاية التاريخ على طريقتها الخاصة، تسلُّم البروليتاريا مقاليد السلطان، وتسوية الأمم والشعوب تحت مظلة شيوعية يستوي فيها الجميع، وتذوب خصوصيات وفواصل الأمم والطبقات والشعوب، ويغيب العمق التاريخي، والإرث الحضاري، حيث لا يتبقى هناك سوى نماذج مكرورة تنتظر فرصتها للمأكل والمسكن والجنس... فماذا كانت النتيجة؟

واليوم يحاول مُنَظِّر أمريكي كفرنسيس فوكوياما أن يعيد المقولة نفسها، ولكن تحت مظلة الرأسمالية وبقيادة الدولة الأكبر والأقوى: الولايات المتحدة الأمريكية.

وهرول المخدوعون بهذا الادعاء يلقون عنهم أرديتهم وخصوصياتهم وإرثهم الثقافي ودينهم وعقيدتهم، وهم يتصورون أن الانتماء للمظلة الجديدة سيمنحهم الخبز والدفء والملذة والأمان...

وفي اعتقادي... فإن نظرية نهاية التاريخ ولدت كي تموت، لأنها ترتطم ابتداء بقوانين التاريخ نفسه!

أما سقوط الأيديولوجيات الذي أكدته معطيات القرن الأخير الموشك على الانصرام: حيث تهاوت نظرية الرجل الأبيض، والاستعماريات الغربية الكبرى، والشوفينيات العملاقة، والوجودية ذات الإغراء... والشيوعية السوفياتية الأممية... و... فإنه لا يعني - بالضرورة - عدم قدرة الأيديولوجية أو العقيدة الأكثر انسجاماً

مع مطالب الإنسان، على التواصل والديمومة والبقاء... بل على العكس تماماً: إن سقوط الأيديولوجيات الوضعية يؤكد ضرورة الأيديولوجية الدينية، لأنها الوحيدة التي لا تأسرها نسبيات الزمن والمكان، أو تصوغها عقول بشرية، مهما جدّت واجتهدت؛ فإنها عرضة للخطأ والقصور والانحياز... لأنها تفتقد ـ ابتداء ـ القدرة الشمولية، والرؤية الموضوعية العادلة، للوجود والمصير.

والعولمة ـ أيها الأخ الكريم ـ هي إفراز طبيعي تماماً لجملة من الشروط والعوامل التي شكلت الحضارة الغربية المادية عبر القرون الثلاثة الأخيرة... وهي مزيج مرتبط الوشائج من كل المؤثرات والمعطيات التي تنطوي عليها هذه الحضارة: التفوق العلمي في سياقيه الصرف والتطبيقي، والقدرة العسكرية بتقنياتها الهائلة المتمخضة عن ذلك التفوق... والإمكانات الاقتصادية الأسطورية... والمركزية الأوروبية المنسحبة، أو المهاجرة إلى القارة الجديدة... ورؤية الرجل الأبيض للشعوب الأخرى... والعقلية الاستعمارية الباحثة عن تسخير الأيدي والعقول العاملة الأكثر رخصاً وعطاءً، وعن الخامات التي تديم قدرتها على العمل والاستمرار، والأسواق التي تلتهم إنتاجها... أضف إلى ذلك نبضها الديني الذي لا يزال يخفق تحت أردية العلمانية والإلحاد وينتظر الفرصة للرد على أولئك الذين تحدَّوْه يوماً، وإنزال العقاب بهم... ومن وراء هذا وذاك، اليهود، بنزوعهم الديني التلمودي المعادي للجوييم، وتكوينهم المادي الذي أُشرب في شرايينه العجل الذهبي... وقدرتهم المدهشة على التسخير.

هذه كلها تجتمع اليوم لكي تشكل منطوق العولمة بفرضياته ومعطياته معاً... بل إن نظرية نهاية التاريخ نفسها، وبموازاتها نظرية صراع الحضارات لصموئيل هنتنكتن وغيرهما من التنظيرات الفكرية تصبّ هي الأخرى في بؤرة العولمة.

وأذكّرك فقط باللدغة التي تلقتها المنظومة الشرق أقصوية التي طمحت إلى قدر من الاستقلالية في نشاطها الاقتصادي والمالي... وبدعاوى إسرائيل بخصوص حتميات التطبيع مع الأمة العربية، حيث لا مبرر لاستعادة ذكريات التاريخ المريرة... فإنك ستجد أن الخاسر الوحيد في لعبة العولمة، أو دولابها الأسطوري، هي الشعوب الأضعف، مهما كانت مطالبها عادلة ومحقة.

إن خط الغنى والفقر الذي سبق وأن تحدث عنه المفكر الجزائري مالك بن نبي (رَحِمَهُ ٱللَّهُ)، والذي يمتد على محور طنجة - جاكرتا فيفصل العالم إلى شمال وجنوب... لن يكون بمقدور العولمة أن تلغيه بوعودها الخادعة، بل على العكس، وكما هو واضح عبر معطيات العقد الأخير، ستزيده عمقاً، وسيكون عبور الخنادق الموغلة بين الطرفين أمراً مستحيلاً.

قد تسألني: وما العمل؟ فأقول لك بأن تلك مسألة أخرى، وقد عالجتُها وعالجها كثيرون غيري في أماكن أخرى، ولن يتسع المجال للخوض فيها...

❁ ❁ ❁

**ـ في عصر الفضائيات والأنترنيت كيف لنا أن ننشئ مجتمعاً إسلامياً ونحافظ عليه؟**

= لا زلنا في دائرة العولمة، وليست الفضائيات والأنترنيت سوى تعبير عن القدرات العلمية التقنية المتفوقة للعقل الغربي، وهي الآن تخترق ديارنا ودورنا على السواء... والهرب منها ليس ممكناً، بل ليس منطقياً، كما أن قبولها أو توظيفها في غياب البرمجة التي تستهدي بالخصوصيات الإسلامية وتحميها في الوقت نفسه... عمل انتحاري. ولا بدّ إذن من الإمساك بالمعادلة الصعبة من طرفيها: القبول والرفض. أو بعبارة أخرى، تنفيذ محاولة جادة وصبورة... محاولة مترعة بالوعي والذكاء والحكمة والقدرة على تنزيل المرئيات إلى الواقع العملي، وتوظيف المؤسسات الفاعلة كالبيت والمدرسة والمسجد... والإعلام... من أجل الخروج من التحدي الجديد بأكبر قدر من النجاح وأقل قدر من الخسائر والكسور...

ولا تزال هناك صمامات أمان تمكن المؤسسات الإعلامية في الدول الإسلامية، بل تمكن أرباب الأسر أنفسهم، من الانفتاح على المعطيات المرئية النظيفة، بالمعنى الشامل للكلمة، وقطع الطريق على اختراق إفرازات التحلل والرذيلة والسوء إنْ على المستوى الخلقي أو الفكري...

هناك أيضاً إمكان توسيع مساحات الحضور الإسلامي عبر الفضائيات والأنترنيت... وهذا ما بدأت تمارسه بالفعل شركات ومؤسسات ومفكرون وباحثون في مواقع شتى من عالم الإسلام...

وهم جميعاً بجهودهم المكافحة هذه يضربون مثلاً عملياً عن إمكان التوظيف، وجعل هاتين النافذتين المطلتين على العالم كله، فرصةً جيدة لرفع الخطاب الإسلامي في أكثر صيغه فاعلية ومرونة قبالة الآخر، الذي كان إلى وقت قريب معزولاً عن هذا الخطاب بسبب الحواجز التي أقامتها المصالح الغربية الرأسمالية، والرؤية العلمانية، والكهنوتيات المسيحية واليهودية بين الطرفين.

وأعتقد أن من فضول القول التحدث عن إمكان بذل جهود متواصلة خارج نطاق الفضائيات والأنترنيت، وبموازاتهما، لتحقيق قدر من التوازن بين المؤثرات الإعلامية والمعلوماتية التي تمطرنا من الخارج، وبين معطياتنا نحن في سياقات عديدة أخرى، لا تزال تملك القدرة على التأثير من مثل الكتاب والمجلة والمدرسة والجامعة والندوة والمؤتمر و... المسجد... الذي يمكن أن يعدّ نقطة ارتكاز أساسية لمجابهة التخلخل في مناطق الضغط... بمعنى أن علينا أن نخرج من مناطق الضغط المنخفض لكي لا تكتسحنا أعاصير الضغط العالي، وقد تقتلعنا من الجذور... ولن يتمَّ هذا مرةً أخرى، إلّا بالتخطيط والبرمجة والتوظيف وبذل جهود استثنائية على كل المستويات...

❁ ❁ ❁

**ـ ما هو في تقديرك العنصر المحرك للتاريخ... فلسفة التاريخ الإسلامي؟**

**= الله... والإنسان... والعقيدة... تلك هي بإيجاز شديد**

ثلاثية العامل المحرك للتاريخ، وقد عرضتُ لهذه المسألة باستفاضة في كتابي المتواضع (التفسير الإسلامي للتاريخ).

**ـ تاريخنا الإسلامي كيف ندرسه؟ وفق أي منهج؟**

= هذه المسألة عرضتُ لها هي الأخرى وبالتفصيل الضروري في أحد فصول كتابي المتواضع الآخر (حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي)، الذي كان قد صدر عن دار الثقافة في الدوحة عام (١٩٨٦م)، كما عرضتُ لجانبها الحضاري في بحث بعنوان: (في الفقه الحضاري: حول منهج جديد لدراسة حضارة الإسلام) نشر في العدد الثالث عشر من (حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية) (جامعة قطر ـ الدوحة ـ عام ١٩٩٥م). ويمكن الرجوع إلى الكتاب والبحث المذكورين.

❁ ❁ ❁

**ـ الرؤية الإسلامية للكون تقترب من الصيرورة أم الكينونة؟**

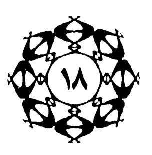
**= الاثنتان معاً، فليس ثمّة في المنظور الإسلامي حواجز تفصل بين الثنائيات... انما هو التوافق والتناغم، من مثل ما يحدث مثلاً في ثنائيات: الله والإنسان، والروح والجسد، والوحي والوجود، والإيمان والعقل، والظاهر والباطن، والقدر والحرية، والضرورة والجمال، والمنفعة والقيمة، والفردية والجماعية، والعدل والحرية، والوحدة والتنوع، والثبات والتطور، والدنيا والآخرة، والأرض والسماء.**

**ها هنا أيضاً بخصوص الصيرورة والكينونة يتم اللقاء،**

ويمضي الوجود الكوني إلى أهدافه بالاثنتين معاً، فلا تعارض أو نفي إحداهما الأخرى.

إن الله جلّ في علاه يخلق الظواهر والموجودات والأشياء بكلمة **(كن)** فتكون، ثم هي بعد ذلك لا تظل على حالها، وإنما تمضي بقوة (الصيرورة)، التي أودعها الله فيها، في الزمن أو المكان، أو في التكوين نفسه... بعد أن (تكون) الشمس والقمر تبدأ رحلة الليل والنهار... حركة دائمة في الزمن والمكان... صيررة متواصلة ولكنها ليست أبدية، لأن لها هدفاً أو حداً تقف عنده في علم الله ﷻ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨ ـ ٤٠]، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]... وصدق الله العظيم.





**أجريت الحوار بنفسي في الموصل (شباط عام ١٩٩٤م) مع الأخوين الأنكوشيين رسلان محمد وأبو آدم والأخ الشيشاني الطيار الشيخ عبد الباقي، ونشر في مجلة (فلسطين المسلمة) التي تصدر في لندن في صيف عام (١٩٩٥م).**

لم أكتب تحقيقاً من قبل، وكنت أتوق إليه بين الحين والحين، كمحاولة لاختبار قدرتي على هذا النمط من الكتابة... مشكلتي أنني منذ بدأت الكتابة قبل أربعين عاماً كنت أحاول أن أجرّب دائماً، أن أبحث عن الأسلوب الأكثر قدرة على التعبير عما يحيك في نفسي... ولقد سبّب لي هذا الكثير من المتاعب، وأنا أتنقل بين الأساليب... في الوقت نفسه منحني الكثير والحمد لله.

وكنت عندما أملّ من مطالب البحث في التاريخ، وهي بالتأكيد مطالب علمية قد تبلغ ـ أحياناً ـ أن تكون جامدة كالجليد ـ كنت أهرب إلى الأدب والفن عموماً، متخففاً من قيود «المنهج» وما يطلق عليه «الروح العلمية»، مستجيباً لنداءات أخرى تضطرب في أعماقي، قد لا أستطيع أن أسميها بدقة، لكنها هي نفسها التي تخفق تحت جلد كل أديب أو فنان.

الآن مع التحقيق أو «الريبورتاج» أجدني في حالة وسط، إذا صحّ التعبير... إنها ـ من ناحية ما ـ بحث في التاريخ... في عينة منه محدّدة بالزمن والمكان... وهي ـ من ناحية أخرى ـ استجابة لإغراء الفن أو الأدب... ومحاولة للإبداع بشكل أو آخر، يكون فيه للأديب أو الفنان مكان. وهذا هو الذي كان يجعلني ـ في كثير من الأحيان ـ أعجب بالمحققين الكبار... بالصحافيين ذوي الفضاء الثقافي الواسع، وبصانعي «الريبورتاجات» المؤثرة والممتعة في الوقت نفسه. وكنت دائماً أقول في نفسي: إن الصحفي الكبير هو ـ بالضرورة ـ مؤرخ وأديب كبير في الوقت ذاته، وطالما تمنيت أن تُعطى الفرصة للصحافي لكي يشارك في إعادة كتابة التاريخ، لأنه سيعرف ـ بلغته الخاصة ـ كيف يتعامل مع وقائعه ونبضه معاً، وليس وقائعه فقط كما يفعل المؤرخون، أو من يسميهم «اشبنكلر»: «منظفي الأتربة الأكاديميين».

أتذكر أيضاً أن الرواية أو المسرحية، وهي تتعامل مع التاريخ كانت تمنحني هي الأخرى فرصة كهذه... للإيغال فيما وراء الوقائع... خلف الطول والعرض والعمق، باتجاه البعد الرابع المخفي عن الأنظار.

لقد كان الإغراء قوياً، والاستجابة ضرورية لتحقيق التوازن المفقود... وبهذا الدافع كتبت مسرحيتَي «المغول» و«العبور»، ورواية «السيف والكلمة»، وإلى حد ما رواية «الإعصار والمئذنة».

مهما يكن من أمر، فإن «الريبورتاج» الذي مورس معي حتى

هذه اللحظة كطرف يعطي ـ فقط ـ أجوبته على الأسئلة التي يختار زواياها (الآخر) أو الصحفي المحاور، بين حين وآخر... «الريبورتاج» يمنحني هذه المرة الفرصة لكي أصنعه أنا بدلاً من الآخرين، وأن أسأل على هواي لمتابعة واقعة ما، أو ظاهرة من الظواهر، بالزاوية أو «اللقطة» التي أختارها.

في مساء يوم من أيام شباط عام (١٩٩٤م)، اتصل بي هاتفياً أحد الأصدقاء... رجل يملك ثقافة عميقة وعلاقات اجتماعية واسعة...

ـ هل أنت مرتبط بموعد ما؟

ـ أبداً...

ـ أريدك في بيتي هذا المساء... ثمّة حشد من الأخوة سيقضون أمسيتهم عندي...

أعتذر... ولكنه يلحّ، فأتذرّع بالأسباب.

ـ إنها فرصة جيدة... ستتعرف على ثلاثة أخوة من الشيشان والأنكوش...

يحاصرني إغراء الذهاب، ولكن ميلي للبقاء في البيت في ليالي الشتاء أشدّ إغراء.

يودّعني يائساً وهو يقفل الهاتف... لحظات وينفجر الندم في أعماقي... إنها فرصة جيدة فعلاً وقد لا تتكرر مرةً أخرى.

بعد دقائق أجدني مسوقاً لأن أطلبه على الهاتف وأعلمه بأنني أرحّب بدعوته!

❁ ❁ ❁

يعرّفني بهم: رسلان محمد وأبو آدم: أنغوشيان... الشيخ عبد الباقي الشيشاني: ضابط طيار ومستشار الرئيس جوهر لشؤون الفقه الإسلامي... والثلاثة يدرسون علوم الشريعة واللغة العربية في جامعات بغداد.

رسلان وأبو آدم يملكان لغة عربية جيدة ويتحدثان بها بطلاقة، أما عبد الباقي فلا يزال ـ بعد ـ في بدايات الطريق، ولكنه يملك نهماً عجيباً لتعلّمها ويصرُّ على أن يكون مثل زميليه.

ـ ماذا عن دياركم يا أخ رسلان؟

يصمت قليلاً في محاولة منه لاسترجاع ذكرياته المتشابكة... عندما يراني أمسك بالقلم لأكتب ما يقوله... يتردد بعض الشيء...

ـ في عام (١٩٤٤م).

ـ ليس هكذا يا رسلان... فالتاريخ لا يتحرك في الفراغ... لابدّ من استدعاء الجغرافيا... إنك تعلم جيداً أنه بالمكان، مضافاً إلى الزمن والإنسان، يتشكل التاريخ... أريد أن أعرف شيئاً عن جغرافية دياركم.

ألحظ أبو آدم يستلّ ورقة ويجري عليها القلم سريعاً بتخطيطات غائمة ما تلبث أن تتكشف عن خارطة قفقاسيا... هذا العالم الزاخر بالدول والقوميات والأديان، ورغم أن بحرَي قزوين والأسود يضيقان عليه الخناق من الشرق والغرب... وتركيا وإيران وروسيا من الجنوب والشمال؛ فإنه ينطوي بسبب من متغيراته الحادة على تاريخ مترع بالأحداث.

أنظر إلى الخارطة متمعّناً فيها... بحر قزوين في الشرق... والبحر الأسود غرباً... وفي الجنوب تركيا وإيران... أما الشمال، فتبدأ الحافات الجنوبية لأراضي روسيا التي تمضي في الانفساح حتى تعانق مضيق بيرنك قبالة ألاسكا الأمريكية، وبحر البلطيق في أقصى الشمال... ثمة دول رئيسية ثلاث تتوزع الإقليم هي أذربيجان، أرمينيا، وجورجيا، فضلاً عن منظومة من الأقاليم المسماة بذات الحكم الذاتي منتشرة هنا وهناك... أذربيجان تتاخم بحر قزوين، وجورجيا تتاخم البحر الأسود، أما أرمينيا فتمتد إلى الجنوب منها...

يمدّ رسلان رأسه إلى الخارطة مشاركاً إياي في البحث... ثم ما يلبث أن يعلّم بالقلم على المساحات الممتدة إلى الشمال الشرقي من جورجيا وإلى الغرب والجنوب من داغستان ذات الحكم الذاتي.

ـ ها هي ذي ديار الشيشان والأنكوش.

ثمة أقاليم عديدة انفرط عقدها بعد سقوط الاتحاد السوفياتي... بعضها أصبح دولاً مستقلة، وبعضها الآخر يكافح من أجل الحصول على استقلاله، وفئة ثالثة استسلمت لمصيرها وظلت تدور في فلك هذه الدولة أو تلك تحت مظلة الحكم الذاتي.

أتابع قلم أبو آدم وهو يعلّم المساحات: داغستان... الشيشان... الأنكوش... بلغار... أبخازي... وأوسيتيا الشمالية والجنوبية... هذه كلها تنتشر في المساحة بين بحر قزوين إلى

الشمال من أذربيجان وبين جورجيا والبحر الأسود... ويصعب على المرء، وهو يترك الخارطة للحظات، أن يحتفظ في ذاكرته بتصور واضح القسمات لجغرافية المكان، ومن ثم لا بدّ له ـ وهو يتابع الأحداث ـ أن يظل بصره مستمرّاً على الخارطة.

ـ وماذا عن المساحة والسكان؟

قال أبو آدم وهو ينحني على الخارطة: ليست كبيرة على أية حال... إن أراضي الشيشان والأنكوش معاً تزيد قليلاً عن العشرين ألف كيلو متراً مربعاً...

ـ وعدد السكان؟

ـ مليون ونصف للشيشان ونصف مليون للأنكوش... أما القومية فهي مستقلة ليست سلافية ولا تتارية، تعود أصولها إلى عشيرة واحدة يطلق عليها اسم (الفايناج)... ولغة الشعبين واحدة مع خلاف في اللهجة... ومعظم السكان مسلمون...

التفتُّ إلى زميله:

ـ الآن لك أن تتكلم يا رسلان...

أجاب وهو يتراجع قليلاً إلى مكانه، وكأنه يستعجل الأحداث خشية أن تفلت بعض تفاصيلها من ذاكرته:

**ـ في فبراير من عام (١٩٤٤م) أمر ستالين بإقامة احتفالات كبرى في المنطقة احتفاء بالانتصار على النازية... كان الشيشان والأنكوش قد قاموا بمشاركة فعالة في مقاومة الألمان إلى جانب**

روسيا... وكان لا بدّ أن يكافئهم ستالين على ولائهم وإخلاصهم بإخلاص مثله!

قاطعته:

ـ وليس إذن كما يقال من أن الشعوب الإسلامية في الاتحاد السوفياتي رمت بثقلها إلى جانب الألمان للخلاص من القياصرة الشيوعيين؟

ـ أبداً... فها أنت ذا ترى أن الشيشان والأنكوش دافعوا بحرارة ضد الاحتلال الألماني.

ـ ليتهم لم يفعلوا!

ـ ماذا؟

ـ لا شيء يا رسلان... ولكن ماذا عن الاحتفالات؟

ـ كانت فخاً لعيناً نصبه ستالين لكي يقابل الإحسان بالإساءة!... واحدة من أبشع عمليات التهجير الجماعي وضعت شعبين من المسلمين في المنفى لأكثر من ثلاثة عشر عاماً...

أقاطعه، متذكراً سلسلة الجرائم التي نفّذها ستالين مع مسلمي الاتحاد السوفياتي... حلقات متلاحقة من الغدر والخيانة والدم والتهجير والتقسيم والمصادرة والإبادة... كأنه كان على موعد مع التاريخ لكي يُلحق بالمسلمين هناك الأذى بأقصى وتائره عنفاً ودموية وضراوة تضيع في غمارها القيم والثوابت التي تحمي إنسانية الإنسان...

ـ ستالين هنا... وتشرشل هناك؟!.

ينظر إليَّ رسلان متسائلاً فأقول:

ـ في أربعينيات هذا القرن قُدّر لعالم الإسلام في معظم مساحاته أن يصير حقلاً لتجارب الرجلين... ما من مصيبة ابتُلي بها المسلمون يومها إلّا وهي من صنع أحدهما... لقد ظلت تأثيرات سياساتهما الخبيثة ضد عالم الإسلام تعرّش فيه لعقود طويلة بعد غياب الرجلين... ولا يزال المسلمون في مناطق شتى يلعقون الجراح التي أخذت تنزف منذ ذلك الزمن البعيد...

وقال رسلان:

ـ تصوَّر أنه لم يسمح للمهجرين حتى بنقل متاعهم.

ـ ثم ماذا؟

ـ أحلَّ الروسَ محلّهم في الشيشان، وألحق معظم أراضي الأنكوش بجمهورية أوسيتيا الشمالية ذات الأصول الفرثية والأكثرية غير المسلمة.

أقاطعه مرةً أخرى:

ـ ليس الأمريكيون فقط مع الهنود الحمر، ولا الصهاينة مع الفلسطينيين، ولا الإسبان مع الأندلسيين... إن ظاهرة اغتيال الشعوب والعقائد التي ابتكرها فرديناند وإيزابيلا، تعيد نفسها مراراً على يد الرجل الأبيض... وها هو ذا ستالين ينفذ هنا في دياركم وهناك في القرم وتركستان وغيرهما من أقاليم الإسلام ما فعله الأسلاف.

يبتسم «الشيخ» عبد الباقي كما يحب أبو آدم ورسلان أن



يسميانه... إنه المستشار الفقهي للرئيس الشيشاني، وهو ضابط طيار ذو جسم فارع ولحية مشذبة تمنح تكوينه العسكري توازناً محبباً... ويقول عبد الباقي بعربية يحاول أن تكون سليمة قدر الإمكان:

ـ إنك محقٌّ فيما ذكرته قبل قليل... فما كان للشيشان والأنكوش أن يساعدوا الروس ضد الألمان...

أحاول أن أصحح رؤيته المتشكلة بردّ الفعل ليس إلّا، وربما رؤيتي أنا كذلك.

ـ الجزار هو الجزار يا عبد الباقي...

ويواصل رسلان:

ـ استمرت المحنة ثلاثة عشر عاماً... وعندما تسلم خروتشوف السلطة، وقام بما سماه سلسلة الإصلاحات لتقويم أخطاء الستالينية، سمح للمنفيين بالعودة إلى ديارهم...

ـ متى كان ذلك؟

ـ عام (١٩٥٧م).

ـ ألم يؤثر عليهم المنفى؟ أقصد هل أفقدهم بعض خصائصهم؟

ـ أبداً... فقد ظلوا على تمسُّكهم بالإسلام، وكان هذا سبب قدرتهم على مواصلة البقاء وحماية أنفسهم من الذوبان والضياع... ولأضرب لك مثلاً... لقد استمر الأنكوشيون على أداء صلاة

الجمعة بشكل جماعي داخل دورهم، رغم تحريمها من قبل السلطات السوفياتية.

يهمس أبو آدم في أذنه، فيبتسم رسلان كأنه يتذكر شيئاً... ويقول أبو آدم مشيراً إلى زميله:

ـ في طفولته صعد إلى منارة في أوسيتيا، ورفع النداء للأذان. كانت ثمة سيارة بانتظاره عند أسفل المسجد ما لبثت أن هربت به بعيداً عن الأنظار... في اليوم التالي أعلن في الإذاعة والتلفزيون عن إدانة السلطة لما أسمته بالأعمال الإجرامية.

ويغمزه رسلان...

ـ وأنت أيها المجرم ألم تشارك في هذه الأعمال؟

ويلتفت إليَّ:

ـ بالمناسبة... كان أبو آدم قد حمل السلاح أكثر من مرة لمجابهة العدوان...

وأقول له:

ـ الحمد لله يا أبو آدم... فبدون التشبث حتى النهاية بمطالب هذا الدين... بدون حمل السلاح دفاعاً عن مقدراته... كان يمكن لشعوب وأمم بكاملها أن تغرق بعد أن أصاب الخصم مركبها بشروخ كبيرة... كان يمكن أن تمضي بهم إلى الأعماق، لكي ما يلبثوا أن يصيروا خبراً من الأخبار... وليس بعيداً عن الأذهان ما فعلته محاكم التحقيق الكاثوليكية في إسبانيا، بإعدام أمة كاملة وإلغاء وجودها من التاريخ.

ويقول أبو آدم:

ـ التحديات كثيرة... والوسيلة الوحيدة للرد... لمواصلة البقاء... هي المزيد من التشبث بالإسلام...

ويعقب الشيخ الطيار بحرارة وصدق:

ـ الحمد لله...

ويواصل رسلان:

ـ توحّد الأنكوش والشيشان في ظل جمهورية ذات حكم ذاتي زمن الاتحاد السوفياتي... ولكن بعد أن كان الأنكوشيون قد خسروا نصف أراضيهم لصالح جمهورية أوسيتيا ذات الحكم الذاتي هي الأخرى...

ـ ومن هم الأوسيتيون هؤلاء؟

ـ لا دين لهم... ولا ينتمون لمذهب ما!

ـ ولذا أصبحوا مدللي القيادة السوفياتية فمنحتهم نصف أراضي الأنكوش... والتاريخ يعيد نفسه... فقبل أن تقوم بريطانيا التي لا تملك بإعطاء فلسطين لمن لا يستحق... وبعدها... ظل المبدأ هو المبدأ... وبقي الإسلام ودياره نهباً للخصوم... قصعة يولم عليها المولمون... حالة كان الرسول ﷺ قد حذّر منها، ودائماً كانت حثالات الشعوب ممن لا تملك ديناً متفوقاً، تُمنح الأرض والمتاع على حساب المسلمين...

**وقال رسلان:**

**ـ أجمع مجلس النواب على ضرورة إعادة الحق إلى**

أصحابه.. لكن الدولة لم تفعل شيئاً... القرارات كثيرة... إلّا أن الحصيلة لا شيء...

ـ هذا أمر طبيعي يا رسلان... فإن الحق يُنتزع ولن يرجع بالاستجداء... أو بمنحة يقدِّمها الغير...

يقاطعنا الشيخ على تردد:

ـ قل يا عبد الباقي.

ـ نفس ما يجري في فلسطين الآن... إن ما أخذه الفلسطينيون في اتفاقهم الأخير ليس شيئاً!

ـ بالتأكيد... فإن سنة اللّه في خلقه... ما يسمى بقوانين الحركة التاريخية لن تتبدل أو تتحول...

ويهمّ رسلان بمتابعة حديثه فأتوسل إليه:

ـ على رسلك يا رسلان... ومن أجل ألا تتعبني وتتعب القراء معي دعنا نفصل الآن بين الشيشان والأنكوش... تحدث عن كل منهما على انفراد... ما دام الأمر قد انتهى بهما إلى الانفصال... أو فرض عليهما بعبارة أدق... وتلك معضلة أخرى... فإنه ما من أمة أُعمل فيها مبضع الطاغوت العالمي تمزيقاً وتفتيتاً كهذه الأمة...

ويقول عبد الباقي بانفعال:

ـ يوشك أن تتداعى عليكم الأمم!

ويعقب أبو آدم:

ـ صدق رسول اللّه ﷺ...

وأقول لرسلان:

ـ وماذا بعد غياب الاتحاد السوفياتي؟

ـ تنفس المسلمون الصعداء... ولكن هيمنة روسيا ظلت تمارس حضورها علانيةً حيناً، وحيناً من وراء ستار... ومع ذلك فقد كان الشيشان أفضل حالاً من الأنكوش... استقلوا بديارهم وأعلنوا جمهوريتهم، بينما ظل الأنكوش دون دولة أو سلطة رسمية ولم يشاركوا في انتخابات عام (١٩٩١م) بانتظار استعادة بقية الأرض من جارتهم المغتصبة أوسيتيا... تلك كانت مشكلتهم الأساسية...

ـ دعنا من الأنكوش الآن فسنرجع إليهم فيما بعد وحدِّثني عن الشيشان...

ـ أسفرت الانتخابات عن فوز الرئيس (جوهر دوداييف...) رمى الشعب الشيشاني بثقله مع زعيمه المحبوب وقاده إلى سدة الرئاسة رغم محاولات روسيا المحمومة لتحقيق الفوز لأحد عملائها... زعيم شيشاني كان يستأثر بالحكم أيام الشيوعية... مجرد أداة في أيدي قياصرة موسكو الماركسيين...

ويمدّ عبد الباقي شفتيه بازدراء وهو يقول:

ـ يهوذا الأسخريوطي!

وأقول له:

ـ بالتأكيد الخيانة موجودة في كل زمن ومكان... ويواصل الشيخ الطيار:

ـ إننا نشبه إلى حد كبير شعب البوسنة والهرسك... لقد استطاع رغم كل التحديات أن يُجمع على انتخاب زعيمه (علي

عزت بيكوفتش) وأن يسلمه زمام السلطة، في بحر مضطرب من الخصوم الذين يملكون قوى تفوق ما يملكه المسلمون هناك بكثير... ومن وراء الخصوم خصوم آخرون يحكمون نصف العالم...

أردد مع نفسي بيتاً للمتنبي:

**وسوى الروم خلف ظهرك رومٌ فعلى أي جانبيك تميل؟!**

وقال أبو آدم منتزعاً الحديث من رسلان:

ـ لقد نجح الرئيس جوهر في تقليم أظافر الوجود الروسي في ديار الشيشان رغم محاولات روسيا المضادة... ليس هذا فحسب، بل إنه يملك طموحاً لاستقلال سائر الشعوب والجماعات الإسلامية في القفقاس، وهو يتميز بشجاعة فائقة تصل به حدَّ الفدائية، ولذا فإنهم يسلّطون عليه حرباً نفسية ويتهمونه ـ حتى ـ بالجنون!

ـ وماذا عن موقف روسيا من الانتخابات؟

ـ رفضت الاعتراف بنتائجها، وأرسلت عدة طائرات لإحباط التجربة وإعادة النفوذ الروسي.

وأتذكر ـ للحظات ـ ثوابت الديمقراطية الغربية التي تعاني من الازدواج... إن الاتحاد السوفياتي نفسه انهار تحت مطرقتي الاقتصاد، والقسر الفكري، وجاءت مرحلة ما بعد الشيوعية لكي تعيد دوله وشعوبه إلى مظلة الديمقراطية الضائعة... وها هي الدول الأخرى... الدول ذات الأكثريات والقيادات المسيحية تحظى بالغنيمة وتفيء إلى الديمقراطية. أما دول الإسلام والشعوب

الإسلامية هناك، فإنها ظلت ولا تزال تعاني من القسر والاستلاب. وترفض القيادة الروسية المتفوقة أن تمنحها بعض ما حظيت به من حرية في صياغة مصيرها. فكانت الديمقراطية ـ والحال هذه ـ مصنوعة للمسيحية الغربية، مفصّلة على حجمها... وكأن الشعوب والدول الإسلامية قد تلقت صكّاً بالحرمان، ومن ثم فإن عليها أن تظل منفية خارج حدود الديمقراطية العائدة بعد غياب القسر الشيوعي... وأتذكر ما هو أمرّ من هذا... إن روسيا التي انقلبت على الشيوعية، تشجع اليوم الأحزاب الشيوعية في الجمهوريات الإسلامية المستقلة وتمدّ في بقائها، وتعينها على القفز إلى السلطة بأشد الصيغ دموية وعنفاً... لماذا؟ أليس ثمة شيء قبل ومع وبعد المصلحة القومية الصرفة التي تتخذ من الديمقراطية سلاحاً ذا حدّين؟

وأتذكر ـ أيضاً ـ أننا ما دمنا نطلب من الغرب المتفوق نفسه أن يمدَّنا بالتصورات والنظم وصيغ الحياة، فإننا سنظل منبوذين خارج التاريخ... خارج الحدود الدنيا من الرحمة التي يستحقها الإنسان... وأننا بدون أن نصنع مصيرنا بأنفسنا... بقيمنا وتصورنا ورؤيتنا المتميزة للكون والحياة والوجود فسنظلّ ضائعين نضرب في التيه...

**وفجأة أتذكر أنني جئت لكي أكتب تحقيقاً... لكي أحاور الإخوة القادمين من ديار القفقاس، وأنه يتحتم عليَّ ألا انجرف باتجاه إغراءات المنولوج الداخلي الذي يبعدني عن الآخرين... فأسألهم:**

ـ وماذا عن ردّ الرئيس جوهر والشعب الشيشاني على استفزاز الروس؟

أجاب رسلان وهو يشير إلى الخارطة:

ـ أعلن الرئيس جوهر النفير العام في كل أنحاء الجمهورية، ووزع الأسلحة على أبناء الشعب شباباً وصبياناً وشيباً... كانت روسيا قد يئست تماماً من كل محاولات الاحتواء، وها هي تلجأ للاحتكام إلى منطق القوة.

وأقول له:

ـ المنطق ذاته الذي يلجأ إليه الغربي لمجابهة الهزيمة... إنه لا يملك الاستعداد لتقبُّل انتصار الآخر، حتى ولو كان هذا الانتصار جزئياً... الشيء نفسه يحدث في المباريات الكبرى... يدخل الفريق القوي الساحة وهو يحمل إحساساً مؤكداً ومطمئناً إلى أنه سيفوز... وفي الحالات التي تتعرض حساباته للاهتزاز، يفقد صوابه ويصبح على استعداد لتجاوز كل قواعد اللعبة وأخلاقياتها... للالتفاف حولها أو رفضها إذا اقتضى الأمر، من أجل ألا يسمح للفريق الضعيف أن يخرج منتصراً.

ـ هذا صحيح. ولكن الشعب الشيشاني لم يستسلم... تدفق أبناؤه على المطار رجالاً ونساءً لإحباط الإنزال الروسي... ونجحوا في هذا، وتمّ أسر الطيارين الروس والسيطرة على طائراتهم ومصادرة أسلحتهم... الشيخ عبد الباقي نفسه بذل جهداً مشهوراً في هذه المهمة (يخفض الشيخ الطيار رأسه بحياء)... وبعد ثلاثة

أيام خاطب جوهر الطيارين الروس: اطمئنوا يا أولادي فستذهبون الآن إلى أمهاتكم. ثم ما لبث أن أطلق سراحهم وخرج يودعهم وهم يستقلون الباصات إلى حدود أوسيتيا... وكما قلت قبل لحظات... فإن الروس لم يسلّموا بالهزيمة رغم هذه المعاملة الودية، ولجؤوا إلى سلاح الضغط الاقتصادي لإرغام الشيشان على العودة إلى أحضان روسيا كرّةً أخرى...

ـ كيف؟

ـ قاموا بسحب العملة... وفي الوقت نفسه أخذوا يمارسون الضغط والإغراء إزاء العناصر الانتهازية المنافقة في البرلمان الشيشاني، فما لبث هؤلاء أن رفعوا صوتهم ضد الرئيس جوهر ودعوا إلى العودة إلى أحضان الروس!

ـ وهذه أيضاً لعبة أخرى تمرّس بها الخصم طويلاً. ولكن قل لي: ما سبب هذا التشبث الروسي بإقليم لا يكاد يُرى على الخارطة بعد إذ سلّمت روسيا باستقلال دول كبيرة كانت يوماً تدور في فلكها في العهدين القيصري والشيوعي؟

ـ بلاد الشيشان غنية بمعادنها، كما أنها تحتوي على كميات كبيرة من النفط، فضلاً عن خصوبة أرضها وإمكاناتها الزراعية... إنها واحدة من صمامات الأمان في دائرة الأمن الغذائي لروسيا.

**وأقول له:**

**ـ هذا وحده لا يكفي... فثمّة دول وأقاليم أكبر بكثير وأغنى وأخصب أعطيت حرية القرار في فك ارتباطها بروسيا...**

ينظر إليَّ متسائلاً ثم ما يلبث أن يقول:

ـ لعله التفاف الشعب حول رئيسه؟

ـ هذا أيضاً لا يكفي.

ـ لعلها دلالة هذا الالتفاف وهدفه؟

ـ بالضبط... فإن جوهر ـ على ما يبدو ـ يريدها «إسلامية»، وهو الهدف نفسه الذي يسعى إلى تحقيقه الرئيس البوسني علي عزت بيكوفتش... وهذا سيستفز روسيا أو أية قيادة غربية... إنهم لا يريدون حكماً إسلامياً في الأرض الأوروبية، بغضّ النظر عن حجمه وقدراته... وهم يعتبرونه تحدِّياً قد يسبب لهم المتاعب، ومن ثم فانهم مستعدون للمساومة في كل شيء إلّا في هذه!

ـ لكن الرئيس جوهر لم يخدع بالمناورة الروسية، فأصدر قراراً بحلِّ البرلمان...

أقول له:

ـ عجيب أمر هذه المؤسسة الديمقراطية التي طالما مارست دوراً مزدوجاً في ديار الغرب، فهي بالنسبة للمواطن الغربي تمضي إلى غايتها من الفاعلية والتحقق، ولكنها بالنسبة «للآخر» تصير سلاحاً قد يشهر لسحق حقوقه المشروعة، فيما هو نقيض لمغزى الديمقراطية نفسها... ثم ما ألبث أن أتذكر الجيش فأسأله عنه، لأنه في دول العالم الثالث على الأقل يدخل دائماً طرفاً في اللعبة المرسومة سلفاً، والتي يصير فيها التأزم الديمقراطي، وتدخل العسكر إحدى حلقاتها المهمة.

ـ اندفعت بعض العناصر باتجاه روسيا، وأسفر ذلك عن صراع عسكري بين الأجنحة المتعارضة، لكن جوهر ما لبث، هذه المرة أيضاً، أن حسم الأمر بسرعة واتخذ القرار المناسب: القبض على مقدّرات الأمور والمزيد من الاستقلال عن روسيا مستنداً إلى تأييد أكثرية الجماهير الشيشانية... فردّ الروس، بدورهم، بالمزيد من الضغط الاقتصادي في مجال النقد والتجارة.

ـ هناك إذن بؤر لتأييد العودة إلى روسيا؟

ـ بالتأكيد... فثمة ـ دائماً ـ حفنات من الانتهازيين وأصحاب المنافع العاجلة.

هكذا يجيب أبو آدم، أما رسلان فإنه يضيف:

ـ تأمُلُ روسيا في انهيار اقتصادي شامل للإقليم، وحينذاك سيجد السكان أنفسهم مضطرين للجوء إلى المظلة الروسية... إن حصاراً قاسياً يُفرض الآن على الاستيراد والتصدير، كما تم استبدال الروبل بإصدار جديد لكي يتم سحق القدرة المالية للشيشان. وفي الأسابيع الأخيرة اغتال عملاء المخابرات الروسية في إنكلترا خبيرين من الشيشان كانا بصدد الاتفاق على إصدار عملة مستقلة خاصة بالإقليم.

**أشرُدُ للحظات... وأسرح ببصري إلى ما وراء الإقليم... هناك باتجاه الشرق والجنوب... وما يلبث السؤال الملحّ أن يفرض نفسه:**

**ـ وماذا عن موقف الحكومات الإسلامية؟**

أجاب أبو آدم بسرعة وكأن المسألة لا تحتاج إلى أي قدر من التريث أو حتى التفكير:

ـ لم يُلمس أيٌّ دعم من أيٍّ نوع كان... من هذه الحكومات...

ـ ولكن وسائل الإعلام؟

قاطعني بالحسم نفسه:

ـ هذه مسألة أخرى... لقد اكتفى بعضها بتقديم الوعود... ولكن حتى على المستوى الإعلامي هذا، فإن معظمها التزم الصمت المطلق! بل ان أحداً لم يعترف بجمهوريتنا الفتية رغم حاجتها الماسة لاعتراف كهذا...

ـ لماذا؟

يدرك رسلان ما في سؤالي هذا من بُعد استفزازي... فيضحك ويواصل أبو آدم:

ـ القضية تقوم على منطق المجال السياسي... بمجرد المقارنة بين إقليم الشيشان الذي لا يكاد يرى على الخارطة، وبين روسيا الشاسعة بقدراتها الكبيرة، يمكن أن يحصل المرء على الجواب...

ـ لا حول ولا قوة إلّا بالله.

❁ ❁ ❁

**وللأنكوش قصةً أخرى... قد تختلف في بعض التفاصيل والمتغيرات، ولكن الخيوط التي نسجت تلك، هي نفسها التي نسجت هذه... خيوط محكمة يغزلها المكر والغدر والروح الصليبية الموغلة في التاريخ، والتي تنبض دائماً بالشيء نفسه حتى وهي**

تتخلى عن أردية الكهنوت وتلبس مسوح المادية والإلحاد... ومع هذا وقبله وبعده: المصالح القومية التي ازدادت خطوطها عمقاً وعنفواناً في القرنين الأخيرين، وأصبحت «وثناً» تتعبده الزعامات والشعوب من دون الله...

ـ ماذا عن الأنكوش؟

تساءلت وأنا أعود إلى أوراقي ثانيةً بعد أن استرحنا قليلاً وارتشفنا الشاي... قال أبو آدم متردداً:

ـ هل تريد أن أدخل إلى الموضوع مباشرةً... أم أبدأ بالجغرافيا؟

ـ أبداً... فإن الخارطة أصبحت واضحة إلى حدٍّ كبير...

ـ إذن لنرجع إلى أواخر الخمسينيات... محاولات خروتشوف لتعديل الوقفة التي انحرفت بها الستالينية إلى حدٍّ يثير الرعب... مجلس السوفيات المركزي أصدر قراراً بإعادة الاعتبار والحقوق المادية لكل المتضررين في العهد الستاليني... لكن هذا القرار لم ينفذ مع الأنكوش!

ـ سبحان الله!

ـ محاولات عديدة بذلت من قبل نواب الأنكوش ولكن دون جدوى... وظلوا بلا سلطة رسمية... وعندما تفكك الاتحاد السوفياتي وأهيل بالتراب على جسده الهائل، اتخذ الروس من الأوسيتيين، جيران الأنكوش، مخلب قط لدفع هؤلاء إلى بدء القتال عبر سلسلة متواصلة من الاستفزازات... كان الفتيل قد أُحكم

وضعه بين الجارين منذ العصر الستاليني، بضمِّ معظم أراضي الأنكوش إلى جمهورية أوسيتيا الشمالية ذات الأكثرية غير المسلمة، وبمحاولات عديدة لطرد الأنكوش من أراضيهم... ولم يبق إلّا إشعال الفتيل ورمي التهمة على الأنكوش وتنفيذ مذبحة جديدة ضد مسلمي الإقليم...

ـ نفس الخطة الذي صنعت مذابح القرن العشرين جميعاً... والضحية والتهمة هي نفسها دائماً: المسلمون والعدوان!

ويواصل أبو آدم حديثه:

ـ روسيا بذلت محاولات مستمرة لإبقاء الانفصال بين الأنكوشيين... بين إقليمهم المستقل وأراضيهم الأكبر مساحة والتي ألحقت بأوسيتيا الشمالية... وبدأت الحرب كقدر لا مفرَّ منه...

ـ متى؟

ـ في نهاية أكتوبر عام (١٩٩٢م) تسامع الأنكوشيون بسيطرة الأوسيتيين على المواقع الأنكوشية الحدودية وقتل ما يزيد على ألف أنكوشي وأسر آلاف أخرى... استخدمت في الهجوم حتى الطائرات المروحية... ورغم ذلك استمر الأنكوشيون على المقاومة دون أن يكون لديهم سوى الرشاشات... لا بل زحفوا إلى العاصمة الأوسيتية وتمكنوا من السيطرة على أربع عشرة دبابة... وحينذاك دخلت أوسيتيا الجنوبية في الحرب إلى جانب الشماليين، وأمدّت جارتها بالرجال المدّربين والسلاح الذي كانت قد تسلّمته من

الروس أيام الصراع ضد جورجيا. وصوّر إعلامهم للرأي العام كما لو كان الأنكوش هم البادئين بالعدوان...

وانتهزت روسيا الفرصة فقامت بإرسال ثمانية آلاف بأسلحتهم الثقيلة تحت شعار الرغبة في الإصلاح بين المتقاتلين وإقرار السلم في المنطقة، وبتغطية مظلة إعلام عالمي تعمّد أن يصور الأنكوشيين كما لو كانوا جماعات من المتوحشين بدأت العدوان بسلاحها الثقيل!!

ـ وماذا بعد وصول الروس؟

كنت أخمّن مسبقاً طبيعة الدور الذي سيلعبونه... فهذه هي المرة الخمسون أو المائة التي يمارس فيها الخصم اللعبة نفسها... ولكنني كنت أريد التفاصيل... الخطوط العريضة هي نفسها في كل زمن ومكان... لكن الخلاف في التفاصيل.

قال رسلان:

ـ وقف الروس في مواجهة الأنكوش، وقام الأوسيتيون ـ تحت حمايتهم وإسنادهم ـ بسحق قرى الأنكوش في أوسيتيا الشمالية، واستخدموا الأسلحة الممنوعة دولياً كالطلقات الإبرية وحتى الكيمياوية... ولم يستطع المقاتلون الأنكوشيون سحب الأهالي من هذه القرى فأصبحوا بين مشرد أو أسير أو مدفون تحت الأنقاض... وثمة ما يزيد عن ألف أنكوشي لم يعرف عن مصيرهم شيء...

ـ وكم عدد السكان الأنكوش في أوسيتيا؟؟

ـ خمسة وستون ألفاً، استخدمت معهم كل الأساليب الوحشية: الحرق والتمثيل والخنق الجماعي... هنالك على سبيل المثال حادثة الأنبوب التي ذهب ضحيتها أكثر من مائتي قتيل... هنالك أيضاً توثيقات بالفيديو لهذه الوحشية... لقد فعلوا بالأسرى ما لا يخطر على بال... كانوا يتلذذون بتعذيبهم قبل تصفيتهم، وما فعلوه مع النساء والأطفال لا يقلُّ هولاً... وثمّة العديد من الأسر التي فقدت الأربعة والخمسة من أبنائها.

ـ والقوات الروسية التي جاءت للإصلاح وإقرار السلم؟

ـ لم تساعد حتى على إعادة الأسرى الذين ما لبثوا أن تعرضوا للتصفية...

ـ والحرب؟

ـ لا تزال قائمة ـ على تقطّع ـ ولكن زخمها الحقيقي لم يتجاوز الأسبوعين...

وقال أبو آدم مقاطعاً وهو يؤشر على الخارطة:

ـ لقد كان هدف أوسيتيا هو إخراج الأنكوش من ديارهم، أما روسيا فقد استهدفت استدراج الشيشان إلى الحرب لتوجيه ضربة إليهم... لكن هؤلاء فوّتوا الفرصة على الروس، واكتفى الرئيس الشيشاني بإعلان النفير العام وإرسال قواته إلى حدود إقليم الأنكوش قبالة الدبابات الروسية... وظل الطيارون في حالة إنذار... واستمر الوضع على هذا الحال... لكن الحرب لم تقع...

وما لبثت القوات الروسية أن انسحبت بعد أن فقدت مسوغات البقاء، وأخفقت في جر الشيشان إلى الحرب...

ـ وماذا عن الفراغ السياسي في الإقليم؟

ـ أجريت انتخابات عاجلة فاز فيها الجنرال رسلان... وما لبث الجنرالات الأنكوش المقيمون في روسيا أن عادوا إلى ديارهم ونظموا السلطة والإدارة... ولا تزال المفاوضات جارية بين الرئيس الأنكوشي وبين روسيا وأوسيتيا لاسترجاع ما يمكن استرجاعه من الحقوق الضائعة... وقد قدم الأنكوش الصورة بتفاصيلها للزعيم الروسي يلتسين فكان يكتفي بتقديم الوعود دون أي إجراء جاد...

ـ وهل ثمة محاولة للوحدة، أو التفاهم في الأقل، بين البلدين المسلمين؟

ـ هناك رغبة من الرئيسين لتحقيق الوحدة إلّا أن العائق هو استمرار خضوع مناطق واسعة من أراضي الأنكوش لأوسيتيا، فضلاً عن تراكمات السنين الصعبة... لكن هناك ـ بالتأكيد ـ قدراً من التنسيق...

ويقول رسلان:

**ـ المشكلة الأساسية أن روسيا لا تزال تبذل وسعها لتأكيد الانفصال، من أجل أن تنفرد بديارٍ الشيشان ذات النفط والمعادن والقدرات الزراعية... وهي قد وظفت حتى مراقبي الحدود الإنكليز والأمريكان لترسيم الحدود بما يخدم غرضها هذا...**

ـ والأمم المتحدة؟

ـ لا تزال ملتزمة الصمت المطبق تجاه القضية...

وأسمع الشيخ الطيار عبد الباقي الذي كان ينصت باهتمام ينشد بعربية تطغى عليها لكنته الشيشانية:

**ولقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي!**

فأقول له، وأنا ألملم أوراقي وأتهيأ للانصراف:

ـ ليست ميتةً يا عبد الباقي، بل هي أكثر حيوية مما نتصور جميعاً... لكن حيويتها هذه توظف لكل مشكلة أو قضية إلّا مشاكلنا وقضايانا الإسلامية...



## وفق تصنيفها الموضوعي

## أولاً: الأعمال التاريخية

### أ ـ محور: المنهج والفلسفة:

١ ـ التفسير الإسلامي للتاريخ (٥ طبعات) (دار العلم للملايين ـ بيروت).

٢ ـ حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣ ـ ابن خلدون إسلامياً (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤ ـ في التاريخ الإسلامي: فصول في المنهج والتحليل (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٥ ـ المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر (مونتغمري وات) (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦ ـ دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية (بالاشتراك مع المهندس حسن الرزو) (طبعة واحدة) (دار الرازي ـ عمان).

٧ ـ المنظور التاريخي في فكر سيد قطب (طبعتان) (دار القلم ـ بيروت).

٨ ـ التاريخ والسنن التاريخية في كتابات النورسي (قيد النشر).

٩ ـ مدخل إلى التاريخ الإسلامي (التأصيل الإسلامي للتاريخ) (٤ طبعات) (المركز الثقافي العربي ـ الرباط).

١٠ ـ مدخل إلى الحضارة الإسلامية (٤ طبعات) (المركز الثقافي العربي ـ الرباط).

**ب ـ محور: السيرة والتراجم:**

١١ ـ دراسة في السيرة (١٨ طبعة) (دار النفائس ـ بيروت).

١٢ ـ كتابات معاصرة في السيرة النبوية (طبعة واحدة) (دار وائل ـ عمان).

١٣ ـ ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٤ ـ عماد الدين زنكي (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٥ ـ نور الدين محمود: الرجل وتجربته الإسلامية (٣ طبعات) (دار القلم ـ بيروت).

**ج ـ محور: البحوث والدراسات:**

١٦ ـ دراسات تاريخية (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٧ ـ المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي: عصر ولاة السلاجقة في الموصل (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٨ ـ الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام: أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر (طبعة واحدة) (مؤسسة الرسالة ـ بيروت).

١٩ ـ الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين (طبعة واحدة) (دار الفكر - دمشق).

٢٠ ـ خطوات في تراث الموصل (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢١ ـ محاضرات في التاريخ والحضارة الإسلامية (قيد النشر).

### د ـ محور: قضايا في التاريخ المعاصر:

٢٢ ـ ملامح مأساتنا في إفريقيا (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٣ ـ لعبة اليمين واليسار (٥ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٤ ـ أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٥ ـ مقالات إسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٦ ـ الرؤية الآن: في هموم فلسطين والعالم الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٧ ـ أولى ملاحم القرن (طبعة واحدة) (مؤسسة الرسالة ـ بيروت).

٢٨ ـ مذكرات حول واقعة الحادي عشر من أيلول (طبعة واحدة) (دار الفكر ـ دمشق).

٢٩ ـ أمريكا مرةً أخرى (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

## ثانياً: الأعمال الفكرية

### أ ـ محور: المنظور الإسلامي للمعرفة:

١ ـ أصول تشكيل العقل المسلم (حول إعادة تشكيل العقل المسلم) (٥ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢ ـ مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣ ـ العلم في مواجهة المادية (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤ ـ مدخل إلى إسلامية المعرفة (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٥ ـ تهافت العلمانية (٧ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

**ب ـ محور: المنظور الغربي للإسلام:**

٦ ـ قالوا عن الإسلام (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧ ـ القرآن الكريم من منظور غربي (طبعتان) (دار الفرقان ـ عمان).

٨ ـ المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي (طبعتان) (دار الفرقان ـ عمان).

٩ ـ الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٠ ـ نظرة الغرب إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم (طبعة واحدة) (دار النفائس ـ بيروت).

١١ ـ غربيون يتحدثون عن الإسلام (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

**ج ـ محور: البحوث والدراسات:**

١٢ ـ مع القرآن في عالمه الرحيب (٣ طبعات) (دار العلم للملايين ـ بيروت).

١٣ ـ حوار في المعمار الكوني: وقضايا إسلامية معاصرة (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٤ ـ رؤية إسلامية في قضايا معاصرة (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

١٥ ـ مقال في العدل الاجتماعي (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٦ ـ متابعات إسلامية في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة (طبعة واحدة) (دار الحكمة ـ لندن).

١٧ ـ كتابات على بوابة المستقبل (بالاشتراك مع الدكتور عبد الحليم عويس) (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

١٨ ـ الله أو الطاغوت: مسائل أساسية في التصوّر الإسلامي (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

١٩ ـ رحلة في عالم الكتاب الإسلامي (قيد النشر).

٢٠ ـ محاضرات إسلامية (قيد النشر).

٢١ ـ أخطاء في حياتنا الإسلامية (قيد النشر).

٢٢ ـ دراسات قرآنية (قيد النشر).

**د ـ محور: المقالات الإسلامية:**

٢٣ ـ آفاق قرآنية (٣ طبعات) (دار العلم للملايين ـ بيروت).

٢٤ ـ مؤشرات إسلامية في زمن السرعة (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٥ ـ في الرؤية الإسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٦ ـ في دائرة الضوء (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

٢٧ ـ من النافذة الإسلامية (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

٢٨ ـ العالم ينتظر البديل (قيد النشر).

٢٩ ـ آيات قرآنية تطل على العصر (قيد النشر).

٣٠ ـ أحاديث نبوية تطل على العصر (قيد النشر).

## ثالثاً: الأعمال الأدبية

### أ ـ محور: الدراسات الأدبية والفنية:

١ ـ الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢ ـ فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٣ ـ الفن والعقيدة (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٤ ـ قراءة في كتابات النورسي: رؤية جمالية (الكلمات) (طبعة واحدة) (دار سوزلر ـ القاهرة).

### ب ـ محور: التنظير:

٥ ـ في النقد الإسلامي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٦ ـ مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٧ ـ حول استراتيجية الأدب الإسلامي (الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي) (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٨ ـ متابعات في دائرة الأدب الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٩ ـ من يوميات الأدب الإسلامي (قيد النشر).

### ج - محور: النقد التطبيقي:

١٠ ـ محاولات جديدة في النقد الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

١١ ـ في النقد التطبيقي (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

١٢ ـ في النقد التطبيقي الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).

### د ـ محور: الإبداع:

- **المسرحيات:**

١٣ ـ المأسورون (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

١٤ ـ الشمس والدنس (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

١٥ ـ المغول (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

١٦ ـ الهمّ الكبير (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).

١٧ ـ التحقيق (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).

١٨ ـ معجزة في الضفة الغربية (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

١٩ ـ خمس مسرحيات إسلامية ذات فصل واحد (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

٢٠ ـ العبور (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

- **الروايات:**

٢١ ـ الإعصار والمئذنة (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

٢٢ ـ السيف والكلمة (طبعة واحدة) (المركز الثقافي العربي ـ الرباط).

٢٣ ـ مذكرات جندي في جيش الرسول (ﷺ) (طبعة واحدة) (دار وائل ـ عمان).

- **القصص:**

٢٤ ـ كلمة الله (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٥ ـ رحلة الصعود التي لا نهاية لها (طبعة واحدة) (دار ابن كثير ـ بيروت).

- **الشعر:**

٢٦ ـ جداول الحب واليقين (٣ طبعات) (دار ابن كثير ـ بيروت).

٢٧ ـ ابتهالات في زمن الغربة (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

- **أدب الرحلات:**

٢٨ ـ من أدب الرحلات (طبعتان) (دار ابن كثير ـ بيروت).

- **أدب الحوار:**

٢٩ ـ ريبورتاج: حوار في الهموم الإسلامية (طبعة واحدة) (دار الحكمة ـ لندن).

٣٠ ـ الطريق إلى فلسطين (طبعة واحدة) (دار وائل ـ عمان).

٣١ ـ لقاءات صحفية (طبعة واحدة) (دار السلام ـ القاهرة).

- **السيرة الذاتية:**

٣٢ ـ السيرة الذاتية:

لا إله إلا أنت (سيرة ذاتية) (قيد النشر).

٣٣ ـ من مذكرات طالب جامعي (قيد النشر).





# حوار في الهموم الإسلامية

-ريبورتاج-

أدب (المقابلات الصحفية) نادرٌ في حياتنا الثقافية الإسلامية كندرة (السير الذاتية) التي تتعامل هي الأخرى مع الرؤية الشخصانية للوقائع والأفكار ... تسأل فتجيب، وتناقش فترد، وتجادل فتجادل بالتي هي أحسن، وخلال ذلك تضاء مسألة هنا ويوضع معلم هناك، أو يكشف النقاب عن جانب من حياة الكاتب لايكاد يعرفه الكثيرون.

وعبر تنقلي في البلدان العربية والإسلامية والأوروبية جرى معي أكثر من لقاء، وتلقيت في البريد طلبات أخرى للإجابة على أسئلة أثارها العاملون في حقل الصحافة الإسلامية، وقد آثرت أن أختار من هذا وذاك اللقاءات الأكثر حداثة، لاسيما تلك الأسئلة التي تمس العديد من المتغيرات الدولية والمستجدات الفكرية والثقافية.

وحرصت على أن أحقق قدراً مناسباً من التغطية الجغرافية للمقابلات التي امتدت على مساحة مكانية تبدأ في لندن وتجتاز اسطنبول ثم تعبر البحر المتوسط إلى المغرب والجزائر وتيمم وجهها شرقاً صوب القاهرة والموصل أو الدوحة وصنعاء.




www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com

